نساء صغيرات

١

obeikandl.com

نشر هذا الكتاب بالاشتراك

مع

الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية

القاهرة

الطبعة الأولى : سنة ١٩٥٤

الطبعة الثانية : سنة ١٩٥٥

الطبعة الثالثة : سنة ١٩٥٨

الطبعة الرابعة : سنة ١٩٦٨

الطبعة الخامسة : سنة ١٩٨٣

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

obeikandl.com

نساء صغيرات

١

تأليف

لويزا م. ألكوت

ترجمة

أمينة السعيد

دار المعارف

obeikandl.com

هذه الترجمة مرخص بها وقد قامت الجمعية المصرية لنشر المعرفة
والثقافة العالمية بشراء حق الترجمة من صاحب هذا الحق .

This is a translation of LITTLE WOMEN
by Louisa May Alcott. Published in the
United States of America by Houghton
Mifflin Company and its predecessors.

obeikandl.com

محتويات الكتاب

صفحة

١ — لعبة الحجاج ٥

٢ — عيد سعيد ٢٩

٣ — لورنس الصغير ٥١

٤ — متاعب وهموم ٧٦

٥ — حقوق الجار ٩٩

٦ — «بث» فى قصر الأمانى ١٢٥

٧ — «آمى» تقاسى الهوان ١٣٩

٨ — «چو» فى قبضة الشيطان ١٥٣

٩ — «ميج» تجرب مباهج المجتمع ١٧٦

١٠ — ندوة الأدباء ٢٠٨

١١ — تجارب ٢٢٧

openkandil.com

obeikandl.com

تصدير الطبعة الأولى

من هم ؟

بقلم الأستاذ حسن جلال العروسى

هذا كتاب نساء صغيرات كأصدق ما يعرف كتاب من عنوانه ، مؤلفته « لويزا ألكوت » ؛ سيدة شبت صغيرة فى كنف عائلة مكونة من شقيقات أربع وأب وأم . هى عائلة عادية لا يميزها من هذه الناحية مميز عن باقى عائلات العالم إلا أن يكون ذلك فى أن الأب « أموس برونسون ألكوت» كان معلماً بحرفته ، وكان إلى ذلك مصلحاً تعليمياً واجتماعياً أثر بآرائه واتجاهاته فى بيئته وفى جيله . وأيا كان مدى تأثيره خارج نطاق بيته فما من شك فى أنه أثر فى تنشئة صغيراته ، وتكوين عقلية واحدة منهن على الأقل — هى المؤلفة — وتكييف اتجاهاتها الذهنية . فقد وجدت تعاليمه وتوجيهاته أرضاً خصبة فى ابنته الموهوبة ، كما وجدت فيها ذاكرة فتوغرافية — إن صح هذا التعبير — وقلماً هو بريشة الرسام الفنان الأصيل أشبه ! فاختزنت لويزا فى وعيها الصور المتلاحقة فى حياتها مرحلة فرحلة ، وصورتها بقلمها لوحات رائعة فى بساطتها وفى صدقها بأسلوب يمس شغاف القلوب بما فيه من دراسة إنسانية . وجعلت لويزا من هذه

الصور المتلاحقة قصة حياتها ، ولكنها كذلك جعلت منها قصة حياة كل عائلة ، وكل نساء صغيرات ، فى أسلوب قصصى جذاب لاتكلف فيه ولا اصطناع . وما من شك فى أن المؤلفة إلى جانب تأثرها بوالدها تأثرت بمرحلة دراستها ، وبصفة خاصة بأحد مدرسيها وهو هنرى داڤيد ثورو ، وهوكاتب أمريكى ذاعت شهرته فى التأليف فيما بعد ، وكذلك تأثرت المؤلفة برحلاتها المتكررة إلى أوربا ، وبالوظائف التى تقلبت فيها قبل أن تنضج وتستوى مواهبها كقاصة ومؤلفة . فقد مارست التدريس فى المدارس حتى سن الثلاثين ثم ذهبت إلى واشنطن متطوعة فى الجيش الاتحادى فى أثناء الحرب الأهلية كممرضة ، ومن وحى هذه المرحلة كتبت سلسلة من المقالات الوصفية لحياة المستشفيات نشرت سنة ١٨٦٣ فكانت أول ما أذاع شهرتها ككاتبة . ومع أن ملكات المؤلفة الأدبية تفتحت وهى لا تزال صغيرة نسبيا ، إذ بدأت فى الكتابة والتأليف وهى فى السادسة عشرة من عمرها — فإن مجدها الأدبى كان مع الكتاب الذى نقدمه على ميعاد ، فلم يكد ينشر سنة ١٨٦٣ — وهى فى الحادية والثلاثين من عمرها — حتى استطارت شهرتها وذاع صيتها ككاتبة من طراز فريد .

إن حديث النجاح الذى صادفه هذا الكتاب ليشبه فى غرابته الأساطير . فقد أعيد نشره مرات يكاد يخطئها الحصر ، حتى بلغت النسخ التى طبعت منه بالإنجليزية وحدها أكثر من ثمانية ملايين نسخة فى مختلف طبعاتها . كما ترجم إلى معظم اللغات الأجنبية . ومن أحدث

اللغات التى ترجم إليها فى السنوات الأخيرة اللغات الإسبانية ، والفنلندية ، والفرنسية ، والإيطالية ، واليابانية ، والنرويجية . وأخرجت القصة كذلك على الشاشة البيضاء مرتين بنجاح كبير . ويعد هذا الكتاب حتى اليوم على رأس الكتب الأدبية التى تستأثر بإعجاب الجماهير وتقديرهم جيلا بعد جيل . وقد ظهر هذا الكتاب فى السجل الرسمى الذى يصدره الناشرون الأمريكيون عن أعظم المؤلفات ذيوعاً ، بل ظهر على رأسها جميعاً . ومن عجب أن يظهر بعده فى السجل نفسه كتاب آخر للمؤلفة ذاتها ، يجرى على النسق عينه ، وهو قصة « رجال صغار » وإن يكن النجاح الذى بلغه الكتاب الأخير لم يصل إلى نجاح الكتاب الأول لسبب لا يصعب استنتاجه هو أن المؤلفة فى كتابها الأول كانت تصف حياتها الحقيقية الخاصة وحياة شقيقاتها الثلاث ، فى حين كانت تصدر فى كتابها الثانى (رجال صغار) عن معينها الخصب من التصور والخيال . وماتت لويزا ألكوت سنة ١٨٨٨ وهى فى السادسة والخمسين من عمرها بعد أن خلفت أكثر من عشرين كتاباً .

أما مترجمة « نساء صغيرات » فهى أيضاً سيدة كاتبة وقاصّة من الطراز الأول ، وهى بذلك فى غير حاجة إلى التعريف . ولعله ليس بين من عهد إليهم بترجمة هذا الكتاب إلى لغات أجنبية من صادف اختياره مثل ذلك التوفيق الذى صادف اختيار السيدة أمينة السعيد . ومن عجائب المصادفات أن تكون مترجمة الكتاب إلى العربية ليست مجرد سيدة وكاتبة

مشهورة فحسب ، بل تشترك فى أكثر من ناحية مع المؤلفة وظروف حياتها الخاصة وتكوينها ، فالسيدة أمينة السعيد — كلويزا ألكوت — صاحبة أسلوب سهل إنسانى بسيط فى بلاغته ، وهى مثلها إحدى شقيقات أربع ، وهى أخيراً مثلها فى أنها ابنة رجل كان مصلحاً اجتماعياً كبيراً ، وبذلك أثر بغير شك فى تكوين بناته جميعاً . وهن اليوم من نعرف مكانة فى مجتمعنا المصرى .

وثالثة المصادفات أن تفوز بجائزة فرانكلين لتصميم غلاف هذا الكتاب آنسة هى « اعتدال حسن منيب » مدرسة الرسم بمدرسة الحواياتى الفنية الثانوية ، وخريجة معهد الفنون الجميلة ، والفائزة بجائزة مختار للفنون الشعبية . ولعله مما يستحق التسجيل هنا أن عدد الأغلفة التى قدمت فى المسابقة لهذا الكتاب بالذات فاق نظائره بالنسبة إلى الكتب الأخرى ، ومن ثم كان نجاح الآنسة اعتدال خليقاً بتنويه خاص .

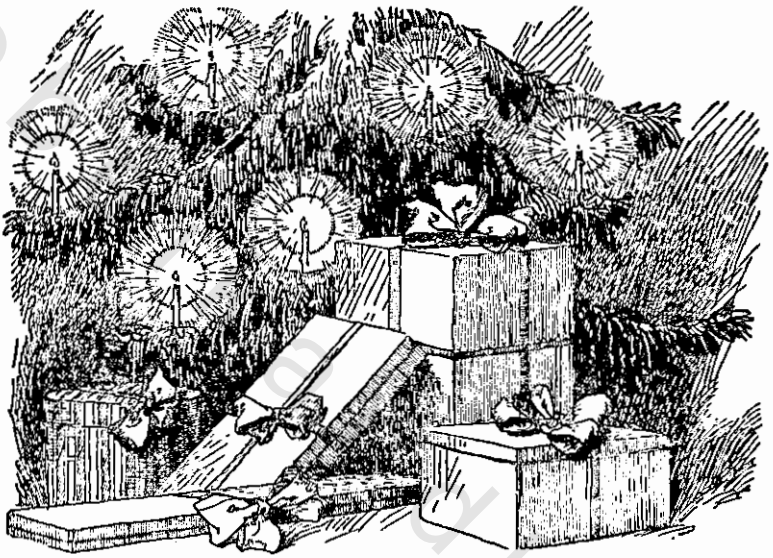

الفصل الأول

لعبة الحجاج

كان عيد الميلاد قد قرب ، ولم يبق على الاحتفال به غير ليلة واحدة ، ولم يكن فى شواهد الأمور ما يدل على أنه سيكون عيداً ممتعاً ، فاجتمع الأخوات الأربع حول الموقد يصطلين بنيرانه فى وجوم .

قالت چو ، وهى مستلقية على البساط :

ـ لن يكون العيد عيداً بمعناه الصحيح ما لم تأتنا فيه الهدايا كالمعتاد .

قالت ميج ، وهى ترمق ثوبها العتيق بحسرة :

ـ ما أقسى الفقر !

وقالت آمى الصغيرة بصوت عامر بالألم :

ـ ليس من العدل أن ينال بغض الفتيات كثيراً ، ولا ينال غيرهن شيئاً على الإطلاق .

أجابت بث وفى صوتها آيات الرضا :

ـ ولكننا نحظى بأمنا وأبينا ، وكذلك نحظى ببعضنا بعضاً ، وهذه نعم جزيلة .

فأشرقت الوجوه الأربعة التى ينعكس عليها لهيب الموقد ، ثم ما لبثت أن اغتمت ثانية عندما قالت جو فى حزن :

ـ وهل حقيقة نحظى بصحبة أبينا ؟ إنه بعيد عنا ، ولن يعود إلينا قبل وقت طويل .

ولم تقل إنه قد لا يعود إليهم أبداً ، وإن قالتها أخواتها فى سرائرهن ، وهن يذكرن ذلك الأب العزيز الحبيب الذى تركهن إلى ميدان القتال .

وساد الصمت لحظة قصيرة ، ثم قالت ميج فى رنة جديدة :

ـ ولكننا نعرف لماذا لن تعطينا أمنا هدايا فى هذا العيد ، فسيكون الشتاء قاسياً على الناس كلهم ، وفى رأيها أنه ليس من الكياسة أن ننفق

نقودنا فى متعنا ومسراتنا ، ورجالنا يقاسون الشدائد فى الحرب . إننا بعدُ صغيرات ، ولن نستطيع أن نسهم معهم بأدوار فعّالة ، أفليس من واجبنا على الأقل أن نبذل هذه التضحية التافهة راضيات ؟ ولكنى لست فى الحقيقة راضية بالتضحية تمام الرضا !

وهزت رأسها حزينة ، وهى تفكر فى مختلف الأشياء الجميلة التى تريدها .

فقالت چو : وكانت مولعة بالقراءة :

— لن يضير رجالنا أن ننفق نقودنا القليلة فى شراء ما نحب ، فليس لدى إحدانا أكثر من ريال ، وهو مبلغ ضئيل لن يستفيد به الجيش إذا نزلنا عنه . أعرف أننى لن أحصل على هدية منكنّ أو من والدتى ، ولكنى أريد أن أشترى كتاباً طال بى الشوق إلى اقتنائه .

وقالت بث ، وقد ندت عنها تنهدة قصيرة :

— كنت أتمنى أن أشترى بنقودى كتاباً جديداً فى الموسيقى .

وقالت آمى فى عزم :

— سوف أشترى علبة أقلام ملونة للرسم ، لأننى فى أشد الحاجة إليها .

قالت چو بوقار :

— لم تذكر والدتنا شيئاً فيما يختص بنقودنا ، ولن يسرها أن نحرم أنفسنا على طول الخط ، فلقد تعبنا فى الحصول على هذه النقود ، وكسبناها بالعرق والجهد ؛ وأرى أن نشترى بها ما نريد ، وبذلك تتوافر لنا بعض المتعة .

قالت ميج فى تذمر :

ــ إننا بالفعل نتعب فى الحصول عليها، والله يعلم أنها لا تأتينا سهلة هينة ، أفلستُ أتقاضاها أجراً لتعليم أطفال مزعجين ، علىّ أن ألازمهم طول اليوم ، ونفسى تتوق إلى بعض الراحة فى البيت ؟ !

فقالت چو :

ــ عذابك لا يعدو نصف ما ألاقيه ، فانا أخدم عجوزاً ثائرة المزاج لا تكف عن الشكوى ، ولا تعطينى مهلة للراحة ، ولا يرضيها شىء مهما كان ، وتظل طول اليوم تزعجنى بصخبها وضجيجها حتى ليخال إلىّ أن أقفز من النافذة ، أو أعرك أذنها مؤدبة .

ونظرت بث إلى يديها الخشنتين وقالت :

ــ ليس من حسن الأدب أن أشكو ، ولكنى أقوم بأشق مهمة فى هذه الدنيا : أغسل الصحون ، وأنظف البيت ، وأنظم الرياش . إنه عمل بغيض يضر بنعومة يدى ويصلب أصابعى فلا أقوى على المرانة على الموسيقى كما أحب .

فصاحت آمى تقول :

ــ ولكن عذابى يفوق كل عذاب ، فأنتن غير مجبرات مثلى على الذهاب إلى المدرسة مع فتيات وقحات ، يعايرنى بجهلى ، ويضحكن من ملابسى ، ويسخرن من شكل أنفى ، ويشهرن أبى لفقره وحاجته .

وابتسمت چو ، وقالت تصحح خطأ أختها :

— يُشهِّرن به ، لا يشهرنه ، فليس أبى بضاعة يعلن عنها !

أجابت آمى فى كبرياء :

— إنى أعرف ما أقول ، فوفرى عليك مشقة السفسطة ، فليس أجمل من أن نستعمل ألفاظاً نحوية تُحسن معانى الكلام .

قالت ميج ، وقد عادت بها الذكرى إلى أيام سعيدة خلت :

— اتركن الشجار أيتها الصغيرات ، فما منه فائدة ، وحدثينى يا چو ألا تتمنين أن يسترد أبى ثروته التى فقدها ، لنهنأ ونسعد وتزول متاعبنا كلها ؟

قالت بث :

— أما قلت يوماً إننا أسعد حالا من أولاد الملوك ، لأنهم يتخاصمون ويتشاتمون بالرغم من ثرائهم الطائل وجاههم العريض ؟

أجابت ميج :

— نعم قلت ذلك ، وما زلت أعتقد أننا أحسن حالا منهم ، فنحن نعيش فى جو سعيد ، وإذا كنا نكد ونكدح فى طلب العيش ، فنحن إلى جانب ذلك « شلة » مرحة — على حد تعبير چو .

فاستاءت آمى لكلمة « شلة » وعزّ عليها أن تستعين ميج فى حديثها بألفاظ عاميَّة ، فنظرت إليها عاتبة وقالت :

— لا يليق بك أن تقتبسى تعبيراتها ، فقد تعودت چو أن تستعمل ألفاظاً دارجة فى حديثها .

وانتصبت چو من رقدتها ، ووضعت يديها فى جيبيها متحدية ، ثم بدأت تصفر بشفتيها لتغيظ أختها .

قالت لها آمى :

ــ أتصفرين أيضاً كما يفعل الصبيان ؟

أجابت چو :

ــ بل أنا أصفر لأتشبه بهم !

قالت آمى :

ــ أنا أكره الفتيات الخشنات .

قالت چو :

ــ وأنا أكره الصغيرات المغرورات .

وكان من عادة بث أن تنشر السلام بين أخواتها ، فجعلت تغرد كالطيور ، وهى تقلب سحنتها فى أشكال مضحكة ، وغرضها من ذلك أن تعيد المرح إلى الجلسة .

قالت آمى فى استنكار :

ــ إن الطيور على أشكالها تقع !!

وضحك الأخوات جميعهن لكلامها ، وانتهت المشادة عند هذا الحد مؤقتاً ، فقالت ميج تنصح المتخاصمتين بلهجة الأخت الكبيرة العاقلة :

ــ كلتاكما فى الحقيقة أخطأت ، فأنت ياجوزفين قد كبرت على هذه الألاعيب الصبيانية ، وحان الوقت لتحسنى سلوكك . لم تكن صبيانيتك

تزعجنى وأنت طفلة صغيرة ، ولكنك ترعرعت طولا وعمراً ، وأصبحت تعقصين شعرك كما تفعل الشابات ، فليس أقل من أن تسلكى سلوك الشابة المهذبة .

ولما سمعت چو هذا الكلام من أختها ، نزعت الشبكة التى تضم شعرها ، وهزت رأسها ، فانسدلت خصلاته البنية على كتفيها ، ثم قالت غاضبة :

ــ لا ، لست شابة كما تقولين ، وإذا كان تصفيف شعرى بهذه الطريقة يجعلنى سيدة صغيرة ، فلن أتردد فى العودة إلى ما مضى ، فأجدله فى ضفيرتين حتى أبلغ العشرين من عمرى . إنى أكره أن أصبح آنسة وقوراً أعقص شعرى وأرتدى ملابس طويلة أنيقة ، وأحَب شىء إلى نفسى أن ألعب مع الصبيان ، وأفعل مثلما يفعلون . كفانى عذاباً أن خلقت فتاة ، وكفانى ألماً أن تضطرنى أنوثتى إلى أن أطرز فى البيت كما لوكنت عجوزاً حيزبوناً ، وقلبى يتوق إلى خوض ميدان القتال مع أبى جنباً إلى جنب ! !

وهزت چو الجورب الذى كانت تصنعه لجنود الجيش هزة عنيفة ، فتصادمت الإبر المعدنية فى رنين مسموع ، وتدحرجت لفة الخيط على أرض الحجرة .

قالت بث وهى تربت رأس أختها الغاضبة بيدها الحنون :

ــ مسكينة أنت يا چو ، كان يجب أن تولدى صبيا ، ولكن الأمر

جاء بالعكس ، ومن المحال أن تغيرى جنسك ، فخير لك أن تقنعى بالاسم الصبيانى الذى ندللك به ، واعبرى نفسك أخاً لنا نحن الفتيات ! !

وعادت ميج إلى نصحها السابق فقالت للغاضبة الثانية :

ــ أما أنت يا آمى فكل همك فى الحياة أن تتأنقى وتتذمرى ، وإذا لم تداركى عيوبك هذه بالإصلاح ، سوف يقال إنك إوزة غبية تافهة . وأحب أن تعلمى أن أساليبك فى معاملة الناس لا تعجبنى ، وألفاظك النحوية المفتعلة ، لا تقل قبحاً عن التعبيرات العامية التى تكثر منها چو .

قالت بث وقد أعدت العدة لتنال نصيبها من نصح أختها الكبيرة :

ــ عرفنا أن چو تقلد الصبيان ، وعرفنا أيضاً أن آمى إوزة غبية تافهة ، فماذا أكون فى رأيك يا ترى ؟ ؟

قالت ميج بحرارة :

ــ أنت أخت عزيزة ، وستكونين كذلك دائماً .

ولم تعترض واحدة من الأخريات على هذا الوصف ، لأن بث كانت حبيبة الأسرة كلها .

قد يلذ للقراء أن يعرفوا مزيداً من وصف شخصيات هذه القصة ، لذلك ننتهز هذه الفرصة ، فنرسم صوراً واضحة للأخوات الأربع اللواتى جلسن يتناقشن حول الموقد ذات مساء ، وثلوج ديسمبر تتساقط فى سكون خارج البيت .

كانت الغرفة التى يجلسن فيها ، رغم بساطة رياشها العتيق ، مريحة

أنيقة ، على جوانبها تقوم رفوف خشبية مليئة بالكتب . وجدرانها مزينة ببعض الصور ، وفى نوافذها أوان عامرة بزهرات الأقحوان أضفت على المكان جوًّا من السكينة والجمال .

وكانت مارجريت — ميج — كبرى الفتيات الأربع فى السادسة عشرة من عمرها ، شقراء ممتلئة الجسم ، واسعة العينين ، شعرها بنى غزير ، وفمها صغير عذب ، ويداها بضتان جميلتان . وكانت چوزيفين — چو — فى الخامسة عشرة . فارعة القامة نحيفة الجسم ، أطرافها الطويلة تجعلها مثل مهر صغير ، وفمها الصارم ينم عن حزم شديد ، وأنفها على صغره مضحك الشكل . وكانت لها عينان رماديتان ذكيتان تتقلبان حسب الظروف ، فاحياناً تكون نظراتهما غاضبة ، وأحياناً أخرى ضاحكة أو ساهمة . وكان أجمل ما فيها شعراً بنيا غزيراً ، ولكنها كانت تحرص على إخفاء جماله ، فتعقصه خلف رأسها ، وتغطيه بشبكة ضيقة الثقوب ، حتى لا تتساقط خصلاته على كتفيها . وكانت على الدوام قليلة العناية بهندامها ، سريعة فى حركاتها ولفتاتها ، ومنظرها على العموم يوحى بأنها فتاة تسير فى طريق النضج النسوى ، فتثور نفسها غضبا على هذا التغيير !

وكانت اليزابث — بث — فى الثالثة عشرة من عمرها ، ناعمة الشعر متألقة العينين ، فى صوتها خفوت مستحب ، وفى حلقها خجل وحياء ، وفى طبعها على العموم سكينة وسلام . وكان أبوها يسميها « الهادئة

الصغيرة » فكان اسماً على مسمى ، لأن تصرفاتها كلها كانت توحى بأنها تعيش سعيدة فى عالم مستقل بها ، وأنها قانعة بعالمها هذا لا تخرج منه إلا لمن تحبهم وتثق بهم .

أما آمى أصغر الفتيات ، فقد كانت مثل دمية بيضاء : قوامها نحيف ، وشعرها ذهبى ، وعيناها زرقاوان . وكانت كثيرة الاعتداد بنفسها ، حتى ليخيل إليها أنها أهم أفراد الأسرة كلها ، وكانت شديدة الرغبة فى أن تكبر سريعاً ، وتصبح سيدة ناضجة ، فكانت تتشبه بالكبيرات فى ملبسها ومظهرها وحديثها .

ونعود الآن إلى القصة فنقول : إنه عندما دقت الساعة ستا ، قامت بث إلى الموقد فنظفت الأرض حوله ، ثم وضعت حذاء أمها على مقربة منه . وكان عملها هذا إيذاناً بقرب عودة الأم إلى البيت ، فعم الانشراح قلوب الجالسات ، وكفت ميج عن إسداء النصح لأخواتها ، وانشغلت عن ذلك بتقليب الحذاء على مقربة من النار حتى إذا عادت أمها وجدته دافئاً .

وقالت وهى تنظر إلى الحذاء :

ــ لقد أتى عليه الزمن ، ويجب أن يكون لأمى حذاء جديد .

قالت بث :

ــ كنت أفكر فى شراء حذاء جديد لها بالريال الذى ادخرته للعيد .

فصاحت آمى :

— بل أنا الذى سوف أشتريه .

قالت ميج :

— ولكنى أكبركن سنا ، ومن حقى . . .

ولكن چوقاطعتها فى حزم وقالت :

— لن يشترى الحذاء غيرى ، فقد أوصانى أبى بأمى قبل رحيله إلى الميدان ، وأحب أن أشعر فى غيابه ، أننى رجل الأسرة .

قالت بث :

— عندى فكرة طيبة ترضينا جميعاً ، وهى أن نشترى بنقودنا هدايا لوالدتنا بدل أن ننفقها فى متعنا .

فقالت چو معجبة بالفكرة :

— هذا كلام جميل ، فماذا نشترى لها مثلا؟

وجلس الأخوات الأربع يفكرن فيما يشترين . قالت ميج وهى تتأمل يديها البضتين الجميلتين :

— سوف أهديها قفازاً جديداً .

وصاحت چو :

— وأنا أشترى الحذاء .

وقالت بث :

— وأنا أعطيها مناديل مطرزة .

وقالت آمى:

— إنها تحب ماء الكولونيا ، والرأى عندى أن أبتاع لها زجاجة رخيصة الثمن وبذلك يتبقى لى جزء من الريال أشترى به شيئاً لنفسى .

سألت ميج أخواتها :

— ولكن كيف نقدم لها هداياانا ؟

فأجابت چو :

— نضعها على المائدة فى لفافات ، ثم ندعوها لتفتحها أمامنا ، ألم نكن نفعل ذلك فى الأعياد الماضية ؟

قالت بث وهى تقدد الخبز على النار استعداداً لوجبة الشاى :

— كنا نفعل ذلك ؛ وكانت تنتابنى الرهبة عندما يحين دورى ، فتُجلسنى على المقعد الكبير ثم تتقدمن منى واحدة واحدة فتعطيننى هداياكن . وتطبعن قبلاتكن على جبينى . وكنت أفرح بالهدايا وأغتبط بالقبلات ، ثم تعود الرهبة فتتملكنى وأنا أفتح اللفافات لأرى ما فيها .

قالت چو وهى تذرع الغرفة جيئة وذهاباً :

— لا تطلعن أمى على السر ، ودعنها تعتقد أننا سننفق نقودنا على أنفسنا ، ثم نفاجئها بالحقيقة فى حينها . فأرى أن نشترى الهدايا من السوق مساء غد ، وهيا بنا الآن ياميج نستذكر أدوارنا فى الرواية التى سنمثلها فى ليلة عيد الميلاد .

قالت ميج :

— هذه آخر مرة أمثل فيها معكن ، فقد كبرت ولم تعد ألعاب الصغار تلائمنى .

قالت چو :

— لن تهجرى التمثيل ما دمنا نعطيك فرصة تتبخترين فيها على المسرح بثوبك الأبيض وشعرك منسدل على كتفيك . ثم إنك أقدرنا على التمثيل ، فماذا نفعل من غيرك ؟

والتفتت إلى أخواتها وقالت :

— هيا بنا نراجع أدوارنا ، ورجائى يا آمى أن تتقنى الإغماء ، ففى آخر مرة سقطت على الأرض متصلبة ، كما لو كنت لوحاً من الخشب .

ولم تكن آمى ذات مواهب تمثيلية ، ولكن الاختيار وقع عليها لأنها صغيرة الحجم بحيث يسهل على بطل القصة أن يحملها ويخرج بها من المسرح دون عناء .

قالت آمى :

— لا حيلة لى إذا ما أخفقت فى دورى فأنا لم أر فى حياتى أحداً يصاب بالإغماء ، ولا أحب أن أرمى بنفسى على الأرض كما تبتغين خشية أن أصاب برضوض وكدمات . أفضل أن أسقط بسهولة ، وأرتمى على المقعد فى رشاقة ودلال ولا يهمنى ما تقولون فى مواهبى بعد ذلك .

قالت چو :

— انظرى إلىّ أعلمك كيف تحسنين دور الإغماءة . أطبقى كفيك

هكذا ، وترنحى عبر الحجرة ، ثم اصرخى قائلة : أنقذنى يا رودريجو ! أنقذنى !

واندمجت چو فى تمثيل الدور ، وأطلقت صرخة مسرحية مدوية .

وبدأت آمى تقلدها ، ولكنها عادت إلى تصنعها السابق ، فحركت يديها فى آلية شديدة ، وبدل أن تصرخ تأوهت كما لو كان دبوس قد وخزها .

وندت عن جو أنة يأس ، وضحكت ميج عالياً ، وانشغلت بث بالموقف الفكاهى عن مراقبة الخبز الذى تقدده فاحترق فى النار .

قالت چو :

ـ لا فائدة فى تعليمك التمثيل ، ومع ذلك أتوسل إليك أن تبذلى جهداً مضاعفاً أثناء الحفلة ، وإلا ضحك المتفرجون منك ، وكنت وحدك الملومة على سخريتهم بك .

وسارت التمثيلية فى طريقها ، فتحدى «دون پيدرو» العالم بخطبة من صفحتين ، وغنت الساحرة «هاجار» أغنية مفزعة ، وهى ترقص أمام قدر ممتلئة بالضفادع ، وحطم « رودريجو » أغلاله ، أما « هوچو» فقد قتله السم والألم والندم ، ومات وهو يئن عالياً .

قالت ميج التى كانت تقوم بدور الشرير الميت :

ـ هذه أحسن تجربة قمنا بها إلى الآن .

قالت بث بإعجاب ظاهر :

— تدهشنى مهارتك فى تأليف هذه الروائع ياچو ، ويقينى أنك لا تقلين عبقرية عن الشاعر شكسبير .

وكانت بث تقول ذلك عن إيمان صادق ، وتعتقد أن أخواتها ماهرات عبقريات .

قالت چو بتواضع :

— لست عبقرية كما تظنين ، وإن كنت قد وفقت فى تأليف « لعنة الساحرة » ، وأظن أنها مأساة رائعة . ولكنى كنت أفضل أن نمثل رواية « ماكبث » لأقوم بدور القاتل .

واختطفت من فوق المنضدة شيئاً ، ورفعته بيدها ، وقالت وهى تقلد ممثلا رأته على المسرح يؤدى دور « ماكبث » :

— أهذا خنجر أراه أمامى ؟

فصاحت ميج قائلة :

— لا ، إنها شوكة الخبز المقدد ، وعليها حذاء أمى ! !

وانتهت مراجعة التمثيل بعاصفة من الضحك .

وارتفع صوت من ناحية الباب يقول فى عذوبة :

— يسعدنى أن أراكن فى مرح يا بناتى .

واتجهت أنظار البنات إلى الباب ، حيث وقفت سيدة ممتلئة الجسم ، فى نظراتها أبلغ معانى الأمومة ، وفى ابتسامتها عطف وحنان . لم تكن جميلة جمالا يلفت النظر ، ولكنها كانت أجمل الجميلات فى نظر بناتها ،

وكن يعتقدن أن معطفها الرمادى العتيق يضم أعظم امرأة فى العالم كله .

قالت الأم :

ـ حدثنى كيف مضى اليوم بكن ؟ يؤسفنى أن غبت عنكن طول النهار فقد اشتغلنا كثيراً فى إعداد الصناديق التى سترسل بالهدايا غداً إلى الميدان . فهل حضر أحد فى غيبتى يابث ؟ وكيف حال الزكام يا ميج ؟ وأنت يا چو ، لماذا أراك تعبة مجهدة ؟

وبينما كانت مسز مارش تستطلع أحوال بناتها ، جعلت تخلع معطفها المبتل بالمطر ، واستبدلت حذاءها الرطب بالآخر الدافئ الذى كانت بث قد أعدته لها من قبل . فلما انتهت من كل هذا ، جلست على المقعد الكبير . وأجلست آمى فوق حجرها ، وبذلك بدأت أجمل ساعات يومها . وهى الساعات التى تقضيها وسط بناتها الأربع .

والتفت الفتيات حولها يهيئن لها أسباب الراحة ، فأحضرت چو وقوداً للنار ، وجعلت ترتب المقاعد فتصطدم بها . وتقلب كل ما تمسه يداها الخشنتان . وكانت بث تهرول جيئة وذهاباً بين المطبخ وحجرة الجلوس ، أما آمى فقد سكنت إلى حجر أمها مكتفية بإصدار الأوامر لأخواتها .

ولما جلس الجميع حول مائدة الطعام ، قالت مسز مارش :

ـ سأخبركن بعد العشاء بنبأ سار .

وأشرقت وجوه البنات بالابتسام ، وصفقت بث ، وقد نسيت أنها تحمل كعكة بيديها ، وقذفت چو بالمنشفة فى الهواء وهى تصيح :

ـ إنه خطاب . . . خطاب من أبى . اهتفن ثلاثاً تحية له !

قالت مسز مارش وهى تلمس جبين ابنتها فى محبة وإعزاز :

ـ نعم ، إنه خطاب طويل ، ملىء بالأخبار ، يقول فيه إنه بخير ولا داعى لأن نخاف عليه من برد الشتاء . وهو يبعث إليكن بمزيد حبه ويتمنى لكن عيداً سعيداً .

وكانت چو فى لهفة على الانتهاء من طعامها ، فجعلت تزدرد الشاى بسرعة ، وفى عجلتها هذه سقطت منها على البساط قطعة خبز مغطاة بالزبد . قالت تستحث أختها :

ـ أسرعى بالانتهاء من أكلك يا آمى ، وكفاك عبثاً بأصابعك ، فقد فتّتِّ الكعك فى صحنك .

وكفت بث عن الأكل بدورها ، وتسللت إلى ركنها المعتم ريثما تستعد الأخريات للمتعة المقبلة . وقالت ميج فى حماسة وحرارة :

ـ كان جميلا من أبى أن يتطوع قسا فى الجيش ما دامت سنه المتقدمة لا تسمح له بأن يشترك فى القتال .

قالت چو فى حزن :

ـ ليتنى كنت قارع طبل فى الجيش ، أو مجندة أو ممرضة فيه ، حتى أكون على مقربة من أبى فأساعده .

وتنهدت آمى وقالت :

— إنى أكره النوم فى الخيام ، ولا أحب أن أشرب الشاى فى أكواب من الصفيح .

وسألت بث أمها فى لهفة :

— متى يعود إلينا يا أماه ؟

قالت الأم :

— لن يعود قبل انقضاء شهور طويلة ، ما لم يمرض . وسوف يبقى ليؤدى واجبه المقدس ما دام قادراً على أدائه . لا يصح أن نطلب منه أن يعود قبل الوقت المحدد لانتهاء عمله .

والتأم شمل الجميع حول الموقد ، الأم تجلس فى مقعدها الكبير ، وبث عند قدميها ، وميج وآمى على جانبيها ، وچو تقف وراءها ، حتى لا ترى واحدة من أخواتها ما قد يرتسم على وجهها من انفعالات أثناء قراءة الخطاب .

وكان الخطاب خلواً من الفقرات المؤثرة التى اعتاد الآباء أن يضمنوها رسائلهم إلى أهلهم فى تلك الأيام . ولم يكن فيه إلا القليل من أخبار المتاعب التى يتجشمها الرجال فى ميدان القتال ، والأخطار التى يتعرضون لها ، والحنين الذى يستبد بهم لأبنائهم وزوجاتهم ، ولكنه كان عامراً بالسرور والأمل ، بليغاً فى وصف حياة العسكر ، وطوابير الجنود ، وكان ختامه فقط يزخر بما فى قلب كاتبه من حب أبوى وافر وشوق عظيم إلى بيته وبناته .

كتب فى نهاية الرسالة :

« بلغيهن عزيز حبى وقبلاتى ، وأخبريهن أننى أذكرهن بالنهار ، وأصلى من أجلهن بالليل ، وأجد فى عطفهن الدائم راحة وعزاء . قد لا أراهن قبل وقت طويل ، فاطلبى إليهن أن يؤدين واجبهن كاملاً ، حتى لا تضيع أيام الفراق هباء . وأنا واثق بأنهن لن يهملن نصيحتى ، وسيطعن رغبتى ، فيقمن بواجبهن مخلصات ، ويقاومن عوامل الشر فى شجاعة ، وينتصرن على نزوات النفس أجمل انتصار . حتى أعود إليهن وقد ازددت فخراً بنسائى الصغيرات » .

وانهمرت الدموع من العيون ، عندما وصلت الأم إلى هذه الفقرة ، ولم تخجل چو أن يرى أخواتها الدموع تنساب على وجنتيها ، ونسيت آمى اعتزازها بتصفيف شعرها ، فدفنت رأسها فى صدر أمها ، وقالت :

ــ أنا مخلوقة أنانية ! ولكنى سأعمل على إصلاح أخطائى . حتى إذا عاد أبى لا يجد فى سلوكى ما يحزنه أو يسيئه .

وصاحت ميج :

ــ سنفعل ذلك كلنا . فأنا أعنى بأناقتى أكثر مما ينبغى ، وأكره العمل وأفضل الراحة ، ولكنى سأبدأ من اليوم حياة جديدة طيبة .

وقالت چو :

ــ سأحاول أن أترك خشونتى ، وأكون السيدة الصغيرة التى يريدها أبى ، وأؤدى واجبى هنا بدل أن أضيع الوقت فى تمنيات لا تتحقق .

ولم تتكلم بث ، بل جعلت فى صمت تجفف دموعها فى الجورب الأزرق الذى كانت تطرزه ، ثم عادت تطرز بقوة وحماسة ، كأنها تخشى أن تضيع وقتها دون عمل مفيد ، فتعصى رغبات أبيها .

وقطعت مسز مارش السكون الذى أعقب قراءة الرسالة وقالت بصوتها المرح الحنون :

ــ أتذكرن كيف كنا نلعب لعبة الحجاج وأنتن صغيرات ؟ كان أمتع ما فى هذه اللعبة أن أحمّلكن أحمالا صغيرة على ظهوركن وأقول إنها الهموم ، فتسرن بها كالحجاج من الطابق الأسفل إلى أعلى البيت ، حيث تلقين عنكن بأحمال الهموم تلك ، وتلعبن بعد ذلك خاليات البال متفائلات .

فقالت چو :

ــ وكنا نحب هذه اللعبة حبا جما ، ونتمتع كل المتعة فى طريقنا إلى أعلى البيت بالمعارك التى يبتكرها خيالنا مع الأسود والشياطين والجن ، فى الصحارى والوديان ، وغرضنا أن نظهر قوتنا على قهر عوامل الشر ونزوات النفس ، لنصل إلى قصر الأمانى حيث المحبة والسلام والوئام .

وقالت ميج :

ــ كانت أحمال الهموم تسقط عن ظهورنا أحيانا وتتدحرج على السلم ، فنهبط إليها لنصعد بها من جديد .

وقالت بث وهى تبتسم للذكريات القديمة السعيدة :

ـ وكان أجمل ما فيها عندما نصل إلى نهاية الرحلة حيث نتحرر من أحمال همومنا ، ونلعب فيما نتخيله حدائق مشرقة بالشمس عامرة بالزهور .

قالت آمى :

ـ لست أذكر من هذه اللعبة إلا ما كنت أشعر به من خوف شديد ونحن نسير فى الظلام ! ثم غبطتى البالغة وأنا أجد الكعك واللبن فى انتظارنا فى الطابق العلوى . ليتنا نعود إلى هذه اللعبة ، ولكننا كبرنا عليها فيما أعتقد .

وكانت آمى فى الثانية عشرة من عمرها ، ولكنها كانت تتحدث بلهجة من بلغت منتهى الشباب ، ولم يعد يليق بها أن تشغل نفسها بألعاب الصغار .

فقالت الأم :

ـ مازلنا نستطيع أن نلعبها يا عزيزتى ، إنما بأسلوب جديد يناسبنا . فمتاعبنا ما زالت موجودة ، وبيدنا أن نصلح أمورنا ، وسلاحنا فى الانتصار شوقنا إلى بلوغ مرتبة السعادة والإيمان . هكذا نصل إلى بر السلام ، فما الرأى فى أن نبدأ لعبة الحجاج من جديد ، لا كلعبة نلعبها ، ولكن كعقيدة نؤمن بها ونحمل رسالتها ، حتى إذا ما عاد أبوكن اغتبط بحسن أخلاقكن ونبل أهدافكن ؟

سألت آمى ، وكانت تميل بطبعها إلى أخذ الكلمات بمعانيها الحرفية :

ـ حقيقة يا أماه ؟ ولكن أين أحمال همومنا ؟

فقالت أمها :

ـ لقد اعترفت كل واحدة منكن بعيوبها إلا بث ، فليس لديها ما يثقل ضميرها على ما أعتقد .

قالت بث :

ـ بل لدى كثير مما يثقل الضمير ، فأنا أكره غسل الصحون ، وأمقت تنظيف البيت ، وأغار ممن تملك معزفاً جميلا ، ثم هناك خجلى ونفورى من مقابلة الناس .

وكانت هموم بث فى الواقع مضحكة ، ولكن أخواتها استمعن إليها فى جد خشية أن يؤلمن شعورها .

قالت ميج مفكرة :

ـ سنعمل باقتراحك يا أماه ، فما هو إلا وسيلة إلى إصلاح النفس ، ولدينا رغبة صادقة فى تقويم اعوجاجنا ، ولكن التنفيذ صعب ، فأحياناً نسهو عن أداء الواجب ، وأحياناً أخرى نؤديه بغير حماسة .

فقالت چو وقد أيقظ فيها الحديث شوقاً إلى أداء واجباتها كاملة :

ـ لقد كنا نتردى فى الخطأ ، فشاءت والدتنا برحمتها أن تهدينا سواء السبيل ، فأين كتاب النصائح الدينية لنسترشد به فى سعينا إلى الخير ؟

أجابت مسز مارش قائلة :

ـ ابحثى تحت وسادتك صباح عيد الميلاد تجدين ما تريدين .

وظل الحديث يدور حول الاقتراح الجديد ، إلى أن انتهت الطاهية حنة من تنظيف المائدة ، فأخرجت كل فتاة سلة تطريزها الصغيرة ، وتسابقت الأنامل فى إعداد ملاءة يقدمنها هدية لعمتهن مس مارش . وكن يتبرمن فيما سبق بهذا النوع من التطريز ؛ ولكن واحدة منهن لم تظهر ضيقها به تلك الليلة . واقترحت چوأن يطلقن على كل ربع من أرباع الملاءة اسم قارة : فربع أوربا ، وثان آسيا ، وثالث أفريقيا ، ورابع أمريكا . وأخذن بالاقتراح ، فسرن بالعمل مرحات ، وهن يقطعن الوقت فى الحديث عن البلاد المختلفة التى كانت تمر بها الإبر أثناء العمل.

وعندما بلغت الساعة التاسعة توقفن عن العمل ، ثم أنشدن أغنية اعتدن أن يختمن بها السهرة كل ليلة . وكانت بث ماهرة فى العزف على البيانو ، قديرة على إخضاع أصابعه العتيقة للمساتها القديرة ، فعزفت لهن أنغاماً تناسب الأغنية . وكانت آمى ذات صوت رخيم ، أما جو فلم تكن تحسن الغناء ، فكان صوتها يرتفع أو ينخفض حيث لا يجب أن يرتفع أو ينخفض .

وكن قد تعلمن فى طفولتهن أغنية :

« المع . . المع . . . أيها النجم الصغير »

واعتدن أن ينشدنها كل ليلة حتى كبرن ، وما زلن مخلصات لهذه العادة . وكانت أمهن جميلة الصوت ، يتردد غناؤها بين جدران البيت كل صباح كالكروان . وكما كن يستيقظن على نبراته الحنون كذلك كن ينمن على شجوه الجميل .

الفصل الثانى

عيد سعيد

استيقظت چو مع طلائع فجر العيد ، ونظرت إلى الموقد تبحث عن الجورب الذى اعتادت أن تتلقاه مليئاً بالهدايا كل عام ، فلما لم تجده شعرت بحزن وكآبة ، ثم عادت فتذكرت ما وعدتها أمها به فى الليلة السابقة ، فلمست يدها تحت الوسادة ، وأخرجت كتاباً صغيراً ذا غلاف أحمر وكانت تعرف أنه كتاب الحكم والعظات الدينية ، التى هى أقصر طريق إلى السلام والإيمان ، ففرحت به كل الفرح ، وأسرعت إلى أختها ميج توقظها ، وتغريها بالبحث عن هديتها . ودست ميج يدها تحت

الوسادة ، وأخرجت بدورها كتاباً أخضر اللون ، خطت عليه أمها إهداء لطيفاً ضاعف قيمته فى نفسها ، وكذلك استيقظت بث وآمى ، وأخرجتا كتابيهما ، وكان أحدهما رمادى اللون ، والآخر أزرق .

وعندما جلس الأخوات الأربع يتحدثن عن الكتب ويقلبن صفحاتها . كان الأفق قد بدأ يكتسى بلون الورد . مؤذناً بقرب ظهور الشمس .

وكانت مارجريت شديدة التدين ، بالرغم من غرورها اليسير ، وقد تأثر أخواتها بتدينها هذا ، خصوصاً چو التى كانت تحبها حباً جما ، وتعمل دائماً بنصحها وإرشادها .

قالت ميج لأخواتها بلهجة الجد :

— لقد كنا شديدات التدين ، حتى سافر أبى ، وغيرت الحرب مجرى حياتنا . فأهملنا كثيراً من مبادئنا الطيبة . وأمى تحب لنا أن نقرأ هذا الكتاب ، ونعمل بهدى تعاليمه الكريمة ، فيصح أن نبدأ فى الحال ، وسوف أترك كتابى قريباً من فراشى ، لأقرأ فيه كل صباح ، فأستمد من ذلك قوة على احتمال المشاق والصعاب .

وفتحت كتابها الجديد ، وشرعت تقرأ فيه ، فانحنت چو عليها ، وأحاطتها بذراعها . وألصقت خدها بخدها ، ثم جعلت تقرأ معها ، وقد علا وجهها القلق سيماء السكينة والهدوء .

وأخذت بث بروعة الموقف ، فهمست تقول :

ـ ما أجمل ميج فى خشوعها .. هيا بنايا آمى نقرأ مثلهما ، وسأساعدك بقدر إمكانى فى تفسير الكلمات ، ونسألهما إذا استعصى علينا الفهم .

قالت آمى :

ـ لقد أحسنت والدتى اختيار لون كتابى ، فأنا أحب اللون الأزرق .

وساد السكون إلا من صوت الصفحات وهى تتحرك بين أصابع البنات بين آن وآخر ، وتملأت أشعة الشمس إلى الغرفة ، فأضاءت رءوس الجالسات ووجوهن ، كأنها تقرئهن تحية العيد .

وبعد مضى نصف ساعة ، هبطت ميج الدرج مع أختها چو ، لتشكرا والدتهما على هديتها الجميلة ، ولكنها لم تكن فى البيت ، فلما استفسرتا عنها الطاهية حنة ، قالت لهما :

ـ الله أعلم أين ذهبت ، فقد جاءنا صبى صغير يطلب إحساناً ، فخرجت معه ، ولم تعد للآن . إنها ملاك للرحمة ، ولا تبخل على سائل بطعام أو شراب أو كساء أو وقود .

وتطلعت ميج إلى الهدايا التى اشترينها لوالدتهن ، وأخفينها عن أنظارها ، فى سلة تحت الأريكة ، ثم قالت :

ـ أرجو ألا تتأخر فى العودة . ولكن أين زجاجة الكولونيا التى اشترتها آمى؟ إنى لا أراها فى السلة .

وكانت چو قد انتعلت الحذاء الذى اشترته هدية لوالدتها ، وجعلت ترقص به فى الغرفة ، وتدور حول نفسها ، بقصد أن تلين جلده اليابس

قليلا . قالت تجيب أختها :

رأيت آمى تحمل الزجاجة وتخرج بها منذ لحظة ، وأغلب الظن أنها ذهبت لتربطها بشريط جميل .

وقالت بث ، وهى تتأمل المناديل التى عانت مشقة كبيرة فى تطريزها :

ــ ما أجمل هديتى ! ألا توافقنى على أنها بديعة ؟ لقد طرزت فى أركانها اسم والدتى ، ثم تعهدتها حنة بالغسل والكىّ .

وأخذت چو منديلا منها ، لتفحصه عن قرب ، وقالت :

ــ باركك الله من طفلة طيبة ، لقد طرزت كلمة « ماما » ، والأصل أن توضع الحروف الأولى من الاسم فقط .

وانزعجت بث لغلطتها ، وقالت بقلق :

ــ لم أكن أعرف ذلك ، وما كنت أحب أن أخطئ ، ولكنى خشيت أن تختلط هذه المناديل بمناديل ميج ، لتشابه الحروف ، وأنا لا أريد أن يستعملها أحد غير والدتى .

وتضايقت ميج لملاحظة چو التى أحزنت أختهما الصغيرة ، وأرادت أن تزيل أثرها ، فقالت لبث مبتسمة :

ــ ليس هذا خطأ يا عزيزتى ويسرنى أن كتبت « ماما » ، فإنها كلمة لطيفة ستغتبط لها والدتنا كل الاغتباط .

وطرق آذانهن صوت إغلاق الباب ، وتبعه دبيب أقدام فى الردهة ، فقالت چو :

ـ رجعت والدتى ، فهيا ، بنا نسرع بإخفاء السلة .

ولم تكن الداخلة هى الأم بل كانت آمى ، وكانت ترتدى معطفها وقبعتها ، مما يدل على أنها كانت خارج البيت ، فسألتها ميج متعجبة :

ـ أين كنت ، وماذا تخفين وراء ظهرك ؟

قالت :

ـ كنت أستبدل الزجاجة الصغيرة بأخرى كبيرة ، ودفعت فى ذلك نقودى كلها ، ولكنى غير آسفة ، فإنها تجربة فى إنكار الذات . . . لاتضحكى منى يا چو ؛ فقد كنت أحب أن يبقى الأمر سرًّا خافياً عنكن حتى يحين الوقت المناسب فتعرفن به .

وأرتهن الزجاجة الكبيرة الجميلة التى اشترتها بدل الأولى الصغيرة ، وتطلعت إليهن راضية ، وقد أضاء وجهها بعزيمتها القوية التى قهرت بها أنانيتها. وتأثرت ميج بما فعلته أختها ، فضمتها إلى صدرها ، كما امتدحتها چو بكلمة طيبة ، أما بث فقد هرعت إلى إص الأزهار ، فاقتطفت أجمل ورودها منه لتزين بها الزجاجة .

قالت آمى :

ـ بعد أن قرأت جزءاً من كتاب العظات ، وفهمت كيف نكون بنات صالحات ، خجلت من نفسى ، وساءنى أن أبخل على أمى بنقودى كلها ، فما إن استيقظت ، حتى أسرعت إلى السوق القريبة أستبدل الزجاجة ، وأنا سعيدة بهديتى الجميلة .

وانصفق الباب مرة ثانية ، فأخفين السلة تحت الأريكة ، وجلسن حول المائدة استعداداً لتناول الإفطار .

وظهرت الأم فصاحت الفتيات تقلن فى صوت واحد :

ـ عيد سعيد يا أماه . بل أعياد كثيرة سعيدة ، وشكراً لك على الكتب ، لقد قرأنا اليوم جزءاً منها ، وسوف نفعل ذلك كل يوم .

قالت :

ـ عيد سعيد يا بناتى ، ويسرنى أن تحققن ما اتفقنا عليه ، وآمل أن تقرأن فى الكتب دواماً ، ولكنى أود أن أحدثكن بأمر قبل أن نجلس إلى مائدة الإفطار . فعلى مقربة منا تسكن امرأة فقيرة اسمها مسز هامل ولديها طفل حديث الولادة بالإضافة إلى ستة أطفال آخرين ، وقد جاءنى أكبرهم منذ لحظة يشكو إلى ما يقاسون من جوع وبرد ، فذهبت معه لزيارتهم فوجدتهم يرقدون جميعاً فى فراش واحد ، وليس لديهم نار تدفئهم ولا طعام يشبعهم . فما الرأى فى أن نعطيهم إفطارنا هذا هدية منا بمناسبة العيد ؟

وكان الجوع قد استبد بالفتيات ، بعد أن تأخرن عن تناول الإفطار طوال الساعة التى انقضت فى انتظار عودة الأم . فخيم عليهن الصمت لحظة قصيرة فقط ، قالت بعدها جو ، وهى تنهض من مقعدها مسرعة :

ـ من حسن الحظ أننا لم نفطر بعد .

وقالت بث بلهفة :

ــ أتسمحين لى أن أذهب معك لأساعدك فى حمل الطعام إلى أولئك الأطفال الفقراء ؟

وقالت آمى ، وقد لذّ لها أن تنزل عن أحب الأطعمة إليها :

ــ وأنا أحمل الفطائر والقشدة .

وكانت ميج قد شرعت فى تغطية الصحون ، بعد أن جمعت الخبز فى وعاء كبير ، فقالت مسز مارش وهى تبتسم فى رضاً واغتباط :

ــ كنت أعلم أن الفكرة ستلقى منكن ترحيباً ، فهيا بنا نحمل الطعام إلى الأسرة الفقيرة . وعندما نعود ، نفطر بخبز وحليب ، ونعوض النقص فى وجبة العشاء .

وسرعان ما حمل البنات طعام الإفطار ، وخرجن به مع أمهن إلى الطريق فى موكب كبير ، ولحسن الحظ كانت الساعة مبكرة ، فلم يلفت موكبهن أنظار الناس .

وبلغن البيت المنشود ، وكانت الأسرة الفقيرة تسكن حجرة عارية من الرياش والأثاث ، يشع الفقر فى جنباتها ، وتخيم عليها مظاهر البؤس والشقاء . وكانت نافذتها محطمة ، وليس بها موقد يخفف من وطأة البرد ، وفى ركن منها سرير عتيق ، ترقد عليه امرأة مريضة سقيمة ، بجوارها رضيع يبكى بإلحاح ، ومن حوله ستة أطفال جياع يلوذون بغطاء واحد مهلهل ، عسى أن يحميهم من البرد .

وما إن شاهد الصغار الجياع الفتيات يدخلن بالطعام ، حتى علت شفاههم الزرقاء بسمات واهنة . وصاحت المريضة فرحاً ، وقالت بلكنة ألمانية :

ـ شكراً لك يا إلهى ، فقد جاء ملائكة الرحمة .

قالت چو تداعبها :

ـ ملائكة من نوع فريد يرتدين المعاطف والقبعات .

ولم تمض دقائق معدودات إلا وقد تغير الحال : فقد أشعلت الطاهية حنة موقد التدفئة بالوقود الذى أحضرته من البيت ، كما سدت فتحات النافذة المحطمة بقطع من القماش لتمنع تسرب البرد . وسقت مسز مارش الأم المريضة قدحاً من الشاى الساخن وأعقبته ببعض الحساء ، ثم لفت الرضيع بأغطية سميكة وأرقدته بجوار أمه فى حنان بالغ . أما البنات فقد هيأن المائدة وزينها بالمأكولات الشهية التى أحضرنها ، وأجلسن الأطفال حولها ، وأطعمنهم بعناية وعطف ، وهن يداعبنهم ويصغين ضاحكات إلى رطانتهم الألمانية ولغتهم الإنجليزية الركيكة .

وأقبل الأطفال على الأطعمة الشهية يأكلون منها ويهتفون فرحاً :

ـ هذا جميل ، ياملائكة الرحمة .

ولم يكن أحد قد وصفهن بالملائكة من قبل ، فارتاحت نفوسهن لهذه التسمية ، خصوصاً چو العفريتة ، التى كانت منذ صغرها أبعد ما تكون شبهاً بالملائكة . وعندما انتهى الإفطار على ما يرام ، خرج الفتيات الأربع وليس فى الدنيا أسعد منهن . وكن يعلمن أنه ليس بالبيت غير خبز وحليب ، وقد اعتدن أن يتناولن فى العيد وجبة فاخرة ، ولكن الحرمان زادهن فخراً بقدرتهن على التضحية وإنكار الذات .

وشربن الحليب راضيات ، وأكلن الخبز مغتبطات ، ثم قالت ميج :

— هذا ما أوصى به الدين من رعاية الجار ، وإنها حقاً وصية جميلة.

وصعدت مسز مارش إلى الطابق العلوى تجمع بعض الثياب القديمة لأسرة مسز هامل الفقيرة ، فأخرج الفتيات هداياهن ، ووضعنها على المائدة . ولم تكن الهدايا فى حد ذاتها أشياء مذكورة ، ولكن منظرها بدا وهى مرصوصة حول آنية الأزهار العامرة بالأقحوان الأبيض والورود الحمراء.

وصاحت چو وهى تقفز فرحاً حول المائدة :

— ها هى ذى قادمة ، فاستعدى يابث ، وافتحى الباب يا آمى . اهتفن ثلاثاً تحية لأمنا .

ذهبت ميج إلى الباب ، وعادت تقود والدتها إلى كرسى الصدارة ، وعزفت آمى أنغاماً موسيقية بهيجة ، فتأثرت مسز مارش لحنان بناتها ، وازداد تأثرها حتى اغرورقت عيناها بالدموع عندما رأت لفائف الهدايا وعليها عبارات الإهداء . وارتدت الحذاء لفورها ، ودست فى جيبها أحد مناديل بث بعد أن عطرته من زجاجة آمى ، وشبكت الوردة الحمراء فوق صدرها ، ثم جربت القفاز ، وامتدحت لونه وطرازه .

وترددت الضحكات فى جنبات الغرفة ، وتبودلت القبلات ، وقص البنات على أمهن كيف اشترين الهدايا فى ذلك المرح البرىء الخالص الذى يجعل من الأعياد أياماً خالدة فى عمر الإنسان .

وانقضت لحظات اللهو وآن أوان الجد ، فعاد أفراد الأسرة إلى العمل

استعداداً لحفل المساء .

وكان الأخوات الأربع يهوين التمثيل إلى حد الشغف ، ولم يكن يسمح لهن بالتردد على المسرح لصغر سنهن ، وكانت مواردهن المالية لا تجيز الإسراف فى إعداد تمثيلياتهن الخاصة ، ولكنهن تغلبن على المشكلة بغير عناء ، ونجحن فى تحقيق هوايتهن بأقل نفقات ممكنة : فصنعن من ألواح العجين قيثارات مسرحية ، وحولن علب الزبد الفارغة إلى مصابيح منقوشة ، وجعلن من ملاءات الفرش ملابس فخمة طرزنها بقطع معدنية براقة . أما الصفائح القديمة فقد أخرجن منها دروعاً وزرداً للفرسان . وقلبن قطع الأثاث على عقب ، لبناء المسرح المطلوب ، فضربت الفوضى أطنابها فى الغرفة استعداداً لتمثيلية المساء .

ولم يكن مسموحاً للشبان بالاشتراك مع البنات فى التمثيل ، فعهد إلى چو بأدوار الرجال ، وكانت تحب أداء هذه الأدوار ، فترتدى فى كل تمثيلية ذات الملابس : عباءة ذات ذيل طويل ، وسيف قصير يتدلى من حزام جلدى ، وزوج من الأحذية المسرحية كانت قد أهدته إياها صديقة تعرف بعض الممثلين .

ولما كان عدد الأخوات محدوداً وأشخاص التمثيلية عديدين ، فقد استدعى الأمر أن تقوم الأختان الكبيرتان بأكثر من دور واحد فى الرواية . وكان جهداً شاقاً يقتضى منهما حفظ أدوار مختلفة ، مع سرعة فى تغيير الملابس ، وعجلة فى تبديل المناظر ، ولكنه كان جهداً مفيداً

يقوى ذاكرتيهما من ناحية ، ومن ناحية أخرى يستنفد أوقات فراغهما فى تسلية بريئة ، لولاها لانقضت بهن هذه الأوقات فى كسل ووحدة .

وفى ليلة العيد حضرت المدعوات ، وكن اثنتى عشرة فتاة ، تزاحمن فوق السرير الذى يقوم مقام قاعة العرض ، وجلسن أمام الستار الملون بالأزرق والأبيض ، يترقبن بدء التمثيلية فى شوق وحماسة . ومن وراء الستار كانت تتعالى بعض الهمسات ، وبين آونة وأخرى تسمع ضحكة مكبوتة من آمى ، التى استبد بها الانفعال لقرب الساعة الحاسمة . وما لبث أن دق الجرس ، وانفرجت الستائر مؤذنة ببداية التمثيل .

وكان أول منظر يمثل « الغابة الحزينة » ، وقد بذل الأخوات جهداً مذكوراً فى إخراج هذا المنظر ، ففرشن أرض المسرح ببساط صوفى أخضر ، انتثرت فوقه شجيرات فى أصص فخارية وراءها كهف صنع من منضدتين تغطيهما قطعة من اللباد . وكان فى داخل الكهف موقد مشتعل ، عليه قدر سوداء ، انحنت فوقها ساحرة عجوز ، وكان البخار يتصاعد من القدر ، والظلام يسود الكهف ، ونيران الموقد تعكس أضواءها على المسرح ، فتكسب المنظر لوناً من الحقيقة .

ومضت برهة ، ثم دخل الشرير « هوجو » بسيفه المجلجل ، وقبعته الرخوة ، ولحيته السوداء ، وكان يرتدى عباءة غريبة الشكل فضفاضة ، وفى قدميه حذاء جلدى طويل . وبعد أن قطع خشبة المسرح جيئة وذهاباً فى قلق وثورة ، ضرب جبينه بكفه ، وراح ينشد قطعة خشنة

يصف فيها بغضه « لرودريجو » وحبه « لزارا » ، ويروى كيف أعد العدة لقتل غريمه ، حتى يصل إلى من يحب . وكانت العاطفة تغلب « هوجو » أحياناً ، فينقلب صوته الخشن إلى صياح قوى مؤثر ، نال إعجاب النظارة ، فقابلوه بعاصفة من التصفيق .

وانحنى « هوجو » يرد التحية فى حركة طبيعية تدل على الاعتداد بالنفس ، ثم انسل إلى الكهف ، وهو ينادى الساحرة قائلا :

— تعالى أيتها الصغيرة ، فإنى محتاج إليك .

وخرجت إليه ميج ، وقد غطت وجهها بشعر أشيب مشعث ، وارتدت ثوباً أسود ، عليه عباءة منقوشة برموز غامضة . وطلب إليها هوجو أن تعد له إكسيراً يجتذب حبيبته ، وسمًّا يقتل غريمه ، فأجابته بقطعة غنائية مؤثرة تعده فيها بما يريد ، ثم شرعت تنادى الروح الذى سوف يعينها على إعداد إكسير الحب قائلة :

« تعال . . . تعال . . . أيها الروح الأثيرى
« آمرك أن تأتى من عشك البعيد
« يا من ولدت من ورود ، واقتتّ بالندى الرطيب
« تعال . . . تعال . . . فى سرعة الجن
« تعال . . . وأعطنى شراب الحب الجميل
« واجعله حلواً سريعاً قهوراً
« أيها الروح إنى أغنى ، فهل من مجيب ؟ » .

وعلت أنغام موسيقية خافتة ، وظهر من وراء الكهف شبح صغير يلتف فى رداء أبيض شفاف ، شعره يلمع ، وأجنحته من الذهب ، وفوق رأسه إكليل من الورود . ولوح الشبح بعصا قصيرة ، وجعل يغنى ويقول :

« جئتك يا من تناديني
« من مسكنى فوق الرياح
« وراء القمر الفضى البعيد
« جئتك أحمل فنى وسحرى
« فى شراب ذهبى عجيب
« فاسقه الحبيبة ولا تبطئ
« واحذر أثره أن يزول » .

وألقى الروح تحت أقدام الساحرة ، زجاجة ذهبية صغيرة ، ثم اختفى وراء الكواليس .

وعادت الساحرة « هاجار » تغنى فى طلب روح شرير يعينها على إعداد السم ، وما إن إنتهت من أغنيتها حتى ظهر على المسرح شيطان أسود دميم ، وغنى فى صوت كنقيق الضفادع ، ثم ألقى إلى « هوجو » زجاجة سوداء ، ولم يلبث أن اختفى وهو يضحك ساخراً . والتقط هوجو الزجاجتين راضياً وأخفاهما فى عنق حذائه الجلدى ، وشكر للساحرة صنيعها ، واختفى بدوره وراء الكواليس .

وواجهت « هاجار » النظارة ، وجعلت تصف بغضها « لهوجو » الذى

سبق أن قتل أصدقاء لها ، ولذلك فهى تلعنه من صميم قلبها ، وتنوى أن تفسد تدبيره ، ولن تسكت حتى تنتقم منه شر انتقام .

وأسدل الستار ، وجلس المدعوات يسترحن ، ويتسلين بتناول الحلوى والمرطبات ، ويتناقشن فيما رأينه من محاسن التمثيلية الرائعة .

وفى خلال فترة الاستراحة ، تعالت من وراء الستار أصوات المطارق ، ولكن ما إن انفرجت هذه الستائر مرة أخرى حتى أيقن المدعوات أنهن أمام فصل آخر ، لا يقل عظمة عن سابقه : فقد ظهر فى وسط المسرح برج مرتفع ، تكاد قمته تصل إلى السقف ، وفى منتصفه نافذة بها مصباح مشتعل ، ومن ورائه ظهرت « زارا » ترتدى ثوباً فضيا ، وترقب الطريق قلقة ، فى انتظار حبيبها « رودريجو » .

وجاء « رودريجو » فى حلة فاخرة ، وعلى رأسه قبعة من الريش ، ومن كتفيه تتدلى عباءة حمراء . وكانت خصلات شعره الكستنائى تنهدل على كتفيه ، وكان يحمل قيثارة فى يده ويلبس الحذاء الجلدى الأحمر المعهود . ركع الفتى أمام نافذة البرج ، وجعل ينشد أغنية عامرة بمعانى الحب ، وأجابته « زارا » مغنية ، واستمر الحوار الموسيقى بينهما حتى أقنعها أن تفر معه . وهنا ظهرت قوة الإخراج الفنى ، فقد سحب « رودريجو » من ثنايا عباءته سلماً من الحبال به خمس درجات ، وألقى أحد طرفيه إلى « زارا » يدعوها إلى النزول . وخفت إليه من نافذتها فى استحياء ، ثم استندت بيدها إلى كتفيه قبل أن تقفز إلى الأرض

برشاقة ، ولكن مأساة غير متوقعة حدثت فى تلك اللحظة ، فقد اشتبك ذيل « زارا » بالنافذة فلما قفزت إلى الأرض ، اهتز البرج العالى وسقط من عليائه مهشماً فوق العاشقين ! !

وصرخت الممثلات والمدعوات على السواء ، وازداد صراخهن شدة عندما رأين قدمى « رودريجو » ترقصان من تحت الأنقاض فى عنف . ونسيت آمى أنها على المسرح فأطلت برأسها تؤنب چو الراقدة تحت الحطام المهدم وتقول لها :

ــ لقد حذرتك من هذا البرج فلم تستمعى إلى .

ولكن ذكاء إحداهن أنقذ الموقف ، فقد دخل إلى المسرح « دون پيدرو » ، الحاكم القاسى ، وأسرع إلى ابنته يسحبها من تحت الأنقاض ، ويهمس فى أذنها :

ــ لا تضحكى ، واستمرى فى أداء دورك ، كأن شيئاً لم يحدث .

والتفت إلى « رودريجو » يأمره بالنهوض ، ثم أنبه ، وطرده من مملكته مهدداً . ولكن « رودريجو » ، رغم ما أصابه بسقوط البرج عليه ، عصى أمر الحاكم ، ورفض أن يترك مكانه ، وأثارت شجاعته حماسة « زارا » فأعلنت عصيانها أوامر أبيها ، فغضب الأب وأمر أن يكبل الاثنان بالقيود فى قبو قلعته .

ودخلت بث فى ثياب أحد جنود « دون پيدرو » تحمل القيود الحديدية وقادت الاثنين أمامها إلى السجن ، ولكن الخوف كان بادياً عليها ، حتى إنها نسيت أن تقول عبارات الدور الذى تؤديه .

وكان الفصل الثالث يمثل بهو القلعة . فظهرت الساحرة « هاجار » وكانت قد جاءت إلى القلعة ، لتنقذ الحبيبين ، وتنزل انتقامها « بهوجو » وسمعت وقع أقدامه يقترب منها ، فاختفت فى جانب من المسرح ودخل الشرير « هوجو » يحمل الزجاجتين ، وصب محتوياتهما فى كأسى شراب ، وأمر الخادم أن يحملهما إلى المسجونين ، وينتحى الخادم جانباً « بهوجو » ليسر إليه بكلمات خافتة ، فتخرج الساحرة « هاجار » خلسة ، وتستبدل الكأسين بكأسين أخريين ليس فيهما ما يضر ، ثم يعود الخادم فيحمل الكأسين وينصرف بهما إلى القبو . وتحين لحظة الانتقام ، فتترك « هاجار » الكأس العامرة بالسم فى متناول يد « هوجو » ويكون الشرير فى هذه الآونة مشغولا عن الساحرة بالقاء مقطوعة غنائية ، وعندما ينتهى منها ، يستبد به العطش ، فيتناول الكأس المسمومة ويجرع ما فيها بلهفة . ويسرى السم فى بدنه فيتلوى ويتأوه ، ولا يلبث أن يسقط على الأرض صريعاً ، فتخرج إليه « هاجار » من مخبئها وتحدثه بما فعلته به انتقاماً لأصدقائها .

وكان المنظر قويا بحق ، رغم الأخطاء البسيطة التى تخللته ، فصفق النظارة طويلا ، وألحوا فى تحية البطلين ، حتى ظهر « هوجو وهاجار » وردوا تحية الجمهور بانحناءة لطيفة .

وارتفع الستار عن الفصل الرابع من الرواية فظهر « رودريجو » يائساً بعد أن خدعوه ، فأوهموه أن « زارا » قد هجرته ، وبلغ به اليأس

أن استل خنجره ، ليقتل به نفسه ، وقبل أن يصل النصل إلى صدره ، يسمع غناء شجيا يفهم منه أن « زارا » ما زالت مبقية على عهده ، وأنها فى خطر جسيم ، لن ينقذها منه سواه ، ويلقى صاحب الغناء إليه بمفتاح السجن ، وتظهر الحقيقة لرودريجو ، ويمنحه الخوف على حياة حبيبته قوة مضاعفة ، فيتمطى فى حركة هرقلية ، تتحطم على أثرها أغلاله ، فيخرج من السجن حرا طليقاً .

ويحوى الفصل الأخير مشهداً عنيقاً بين « زارا » وأبيها « دون بيدرو » فهو يريدها أن تذهب إلى الدير ، وهى ترفض باكية مستعطفة حتى تكاد تسقط مغشيًّا عليها ، وعندئذ يقتحم رودريجو المشهد ، ويطلب يدها من أبيها ، فيرفض « دون بيدرو » أن يزوج ابنته بفقير مثله . وتحتد المناقشة بينهما بلا جدوى . ثم تشاء الأقدار أن تسعد الحبيب الفقير ، فيدخل الخادم « فرنندو » يحمل رسالة وكيساً ، بعثت بهما الساحرة « هاجار » . ويعلم « رودريجو » من الخادم أن «هاجار» تركت له ولحبيبته ثروة طائلة ، وأنها تهدد « دون بيدرو » بشر مستطير ، إذا هو لم يوافق على زواجهما . ويفتح « رودريجو » الكيس فيتساقط منه على أرض المسرح سيل من الذهب البراق يغتبط به « دون بيدرو » فيرجع عن عناده ، ويرحب بالفتى زوجاً لابنته . ويشترك الممثلون جميعاً فى أغنية مرحة ، ينسدل على أثرها الستار و « دون بيدرو » يبارك الحبيبين فى عطف وحنان .

وهبت عاصفة من التصفيق ، ولكنها انقطعت فجأة ، فقد تداعى السرير الذى يجلس عليه النظارة بمن فوقه ، وشغلهن الصراخ عن سابق إعجابهن بالرواية ، وأسرع « دون پيدرو » و « رودريجو » لإنقاذ المدعوات من تحت السرير ، وقد كدن يفقدن النطق لكثرة الضحك .

وعندما هدأت الأنفاس وخف الانفعال ، دخلت الطاهية حنة تحمل إلى الموجودات تحيات مسز مارش ، وتدعوهن باسمها لتناول العشاء .

وكانت المائدة مفاجأة لبنات مارش الأربع ، فتطلعن إليها فى دهشة بالغة ، وقد رأين ما حوت من لذائذ تفوق فى كثرتها وتنوعها ما اعتدن عليه أيام الرخاء : كان عليها صحنان كبيران مليئان بالمثلجات البيضاء والوردية ، وحولهما انتثرت أطباق الفطائر والكعك والحلوى على مختلف أشكالها ، فضلا عن أربع باقات من الأزهار النادرة .

واحتبست الأنفاس فى صدورهن لفرط العجب ، وانتقلت أنظارهن فى تساؤل بين المائدة الفاخرة وبين وجه الأم الباسمة فى غبطة وانشراح .

قالت آمى :

— ياللمعجزة !

وقالت بث :

— إنه سنتا كلوز !

وابتسمت ميج ابتسامة عذبة وقالت :

— إنها هدية والدتى .

فصاحت چو كأنما هبط عليها الوحى فجأة :

— بل هدية عمتنا مارش ، وأعتقد أنها أصيبت بنوبة من الحنان ، فأرسلت إلينا هذا العشاء !

فقالت مسز مارش :

— لم تصب واحدة منكن فى حدسها ، فهذه هدية مستر لورنس العجوز .

قالت ميج فى عجب :

— جد لورنس الصغير ؟ ترى ما الذى دفعه إلى ذلك ، ولسنا على معرفة به ؟

قالت مسز مارش :

— يبدو أن حنة حدثت خادماً له بقصة تنازلكن عن إفطاركن لمسز هامل الفقيرة ، فنقل الخادم القصة إلى سيده . وقد سر مستر لورنس لصنيعكن ، فبعث إلىّ بعد ظهر اليوم رسالة يستأذنى فيها أن أسمح له بالتعبير عن بعض عواطفه الودية نحوكن ، فأقبل منه الأطعمة الشهية تكريماً لهذا اليوم . ولم يطاوعنى قلبى على الرفض ، لأنه كان صديقاً لأبى فيما مضى من الأيام . هذا سر الوليمة ، ولعل فيها أعظم تعويض عن خبز الصباح وحليبه .

وبينما كانت صحون الحلوى تدور على البنات وضيفاتهن ، والمثلجات

تختفى تدريجاً فى الأفواه الصغيرة النهمة ، قالت چو :

ــ أنا واثقة من أنها فكرة الصبى أقنع جده بها . إنه صبى ممتاز وإن كان شديد الخجل ، ويا حبذا لو تعرفنا إليه ، واتخذنا منه صديقاً لنا ، وطالما شعرت بأنه يتوق بالمثل إلى صداقتنا ، ولولا تزمت ميج كنت بادلته الحديث منذ زمن طويل ، ولكنها كانت تمنعنى من ذلك ، وتذكرنى دائماً بدواعى العرف والتقاليد .

سألت إحدى الفتيات قائلة :

ــ أتتحدثين عن أولئك القوم الذين يسكنون البيت الكبير المجاور لكم ؟ إن والدتى تعرف مستر لورنس العجوز ، ولكنها تقول إنه متكبر يكره الاختلاط بجيرانه ، وله أساليب عجيبة فى تربية حفيده الوحيد ، فهو يمنعه من الخروج إلا على صهوة جواده ، أو فى رفقة مربيه ، كما أنه يفرض عليه العلم والدرس فرضاً ، ويعمل جهده على إبعاده عن أترابه من البنين والبنات . وأذكر أننا دعوناه مرة إلى وليمة أقمناها ببيتنا ، ولكنه لم يحضر .

قالت چو فى عزم :

ــ إنه صبى مهذب ، وقد هربت قطتنا يوماً إلى حديقته ، فأحضرها لى ، وتبادلنا الحديث عبر السياج ، وكان حديثاً شائقاً عن الألعاب الرياضية ، ولكن ميج أقبلت فجأة فانصرف عنى مسرعاً . إنى أعطف عليه وأود من صميم قلبى أن أتعرف إليه ، وأعتقد أنه فى أشد

الحاجة إلى أصدقاء يؤنسون وحدته ويذهبون وحشته .

قالت مسز مارش :

ــ وأنا أراه مهذباً كريم الأخلاق ، ولا مانع عندى من أن تتعرفى إليه فى أول فرصة مواتية ، فلقد جاء بنفسه يحمل باقات الأزهار ، ولست فيه ميلا إلى قضاء السهرة معنا ، وكنت أود أن أستبقيه ، ولكنى لم أكن أدرى ماذا تفعلين فى الطابق الأعلى على وجه التحقيق .

فضحكت چو وهى تنظر إلى حذائها الطويل ، وقالت :

ــ حسنا صنعت يا أماه ، فتمثيلية الليلة لم تكن على ما ينبغى ، ولكننا قد نقوم قريباً بتمثيل رواية أخرى أفضل من هذه ، فندعوه إليها ، وربما أشركناه معنا فى تمثيلها .

قالت ميج وهى تتأمل باقة الأزهار معجبة :

ــ إنها أول مرة تأتينى فيها أزهار نادرة كهذه .

فقالت مسز مارش وهى تشم الوردة الذابلة التى أعطتها إياها بث فى الصباح :

ــ إن أزهار مستر لورنس جميلة ، ولكن وردة بث أجمل وأبدع .

فنهضت بث إلى أمها تشكرها وقالت تهمس فى أذنها :

ــ ليتنى أستطيع أن أبعث بأزهارى إلى أبى ، فلست أظن أنه يقضى فى الميدان عيداً سعيداً كالذى نستمتع اليوم به .

الفصل الثالث

لورنس الصغير

وقفت ميج عند أسفل السلم تنادى :

— چو . . . چو . . . أين أنت ؟

أجابت چو من الطابق العلوى :

— هنا .

وصعدت ميج السلم جرياً ، فوجدت أختها تقبع فى ركن من الأريكة العتيقة، ذات الأرجل الثلاث ، وهى تأكل تفاحة، وقد اغرورقت عيناها بالدموع لفرط تأثرها بالقصة المحزنة التى تقرؤها. وكان هذا الركن ملاذ

چو المفضل ، كلما أعوزها الهدوء هرعت إليه ومعها بضع تفاحات وكتاب لطيف ، فتقضى فيه الوقت وحيدة ، لا أنيس لها إلا « سكرابل »، ذلك الفأر الأليف ، الذى اتخذ له جحراً بالقرب من الأريكة ، واعتاد أن يسكن إلى چو ، فيطوف حولها فى غير حرج . وما إن ظهرت ميج حتى أسرع الفأر هارباً إلى جحره ، ومسحت چو دموعها ، والتفتت إلى أختها مستفسرة .

قالت ميج وهى تلوح بورقة فى يدها :

— هاك بطاقة رسمية بعثت بها إلينا مسز جاردنر تدعونا فيها إلى وليمتها مساء غد . . . انظرى ! .

وشرعت تقرأ الدعوة فى مرح وحماسة :

— « يسر مسز جاردنر أن تتشرف بدعوة الآنستين مارجريت وچوزفين مارش إلى حضور المرقص الذى تقيمه احتفالا بليلة رأس السنة الجديدة » . . . والدتى لا تمانع فى ذهابنا . . خبرينى ماذا نرتدى غداً ؟ .

أجابت چو وفمها محشو بالتفاح :

— كيف تسأليننى وأنت تعلمين جيداً أنه ليس لدينا سوى ثوبينا البوبلين ؟

فتنهدت ميج وقالت :

— ليتنى أملك ثوباً من الحرير . ولكن هيهات فوالدتى لا تريد أن

ألبس الحرير قبل أن أبلغ الثامنة عشرة من عمرى ، وما زال أمامى عامان طويلان حتى أبلغ السن الموعودة .

قالت چو :

ــ البوبلين لا يقل جمالا عن الحرير ، وثوبك يكاد يكون جديداً ، أما أنا فقد أفسدت ثوبى ، فحرقته من الخلف ، ومزقه من الأمام ، فماذا أنا صانعة الآن ؟ إن الحرق كبير ملحوظ ولن أستطيع إخفاءه .

قالت :

ــ اجلسى طول الوقت ، وأسندى ظهرك إلى المقعد حتى لا يراه أحد، فالصدر لا بأس به . لقد وعدتنى أمى بمشبكها اللؤلؤى ، وأرى أن أزين شعرى بشريط جديد ، ومن حسن الحظ أن حذائى جميل ، أما قفازى ففى حالة جيدة على كل حال .

ولم يكن من طبع چو أن تحرص على أناقتها فقالت :

ــ أما قفازى فقد أفسدته منذ أن سكبت عليه شراب الليمون، وليس معى نقود أشترى بها قفازاً آخر جديداً ، فلا مفر من أن أذهب بغير قفاز .

صاحت ميج فى استنكار :

ــ لا يمكن أن تذهبى بغير قفاز ، وإن فعلت ذلك لن أذهب معك ، إن القفاز جزء لا يتجزأ من أناقة الهندام ، ولا يجوز الرقص بدونه ، فالبسى بالله واحداً وإلا قتلنى الخجل منك .

قالت چو :

ــ إذا كان الأمر كذلك فلن أرقص ، ويكفينى أن أجلس مكانى

طوال السهرة ، ولست على كل حال من هاويات الرقص ، ورأيي أن اللف والدوران مضيعة للوقت .

قالت ميج :

ـ إنك مهملة فى العناية بثيابك ، ويوم أفسدت قفازك أنذرتك والدتى بأنها لن تشترى لك غيره طوال الشتاء، فلا تتوقعى أن تأتيك بجديد لأنه غالى الثمن . أفلا يمكنك أن تتداركى الموقف بحال من الأحوال ؟

قالت :

ـ ليس أمامى إلا أن أمسك به فى يدى حتى لا تظهر البقع . أو هناك فكرة أخرى ، فما دام قفازك فى حالة جيدة ، أعطنى فرداً منه وأعطيك فرداً من قفازى ، ونلبس النظيف ونمسك بالمبقع .

وكانت ميج شديدة العناية بملابسها وأدوات زينتها ، فعز عليها أن تعير قفازها لحو ، خشية أن تفسده بإهمالها فقالت :

ـ يدك أكبر من يدى فإن لبسته اتسع .

صاحت چو بضيق ، وقد استقر رأيها أن تعود إلى قراءة كتابها :

ـ إذاً أذهب بغير قفاز ، ولا يهمنى ما يقول الناس .

قالت ميج منزعجة :

ـ خذى قفازى إذا أردت ، ولكنى أرجوك رجاء حاراً أن تحافظى عليه ، وأن تحافظى على مقتضيات الأنوثة ، فلا تضعى يديك وراء ظهرك ، ولا تحملقى فى وجوه الناس ، وإياك أن تنطقى بألفاظ

عامية كما اعتدت دائماً أن تفعلى .

قالت :

ـ اطمئنى فسأكون عند حسن ظنك ، ولن أحشر نفسى فى المآزق ما أمكن ، فاكتبى لمسز جاردنر واشكريها على دعوتها الكريمة وأخبريها بأنه يسرنا أن نلبيها ، والآن ، اذهبى ودعينى أكمل قراءة هذا الكتاب البديع .

وكتبت ميج الخطاب المطلوب ، ثم جلست تغنى فى صوت خافت جميل، وهى تصلح ثوبها ، وتضيف إليه بعض التحسينات ، حتى أتمت چو قراءة قصتها ، وأتت على بقية تفاحاتها ، وانتهت من مداعبة فأرها العزيز « سكرابل » .

وفى ليلة الحفل ، أقفر بهو آل مارش من سكانه الذين اعتادوا أن يجتمعوا فيه كل مساء ، فقد انشغلت الفتاتان الصغيرتان بمساعدة أختيهما فى الاستعداد للرقص ، وكان البيت فى هرج ومرج ، فواحدة تهبط السلم مسرعة ، وثانية تصعده قفزاً ، وثالثة تدلى بملاحظتها ، ورابعة تضحك مغتبطة . وقد رأت ميج ، استكمالاً لأناقتها ، أن تسدل خصلة من شعرها فوق جبينها ، فتطوعت چو بمعاونتها على ذلك ، وأتت بمكواة الشعر الساخنة تلف حولها الخصلة حتى تنسدل على جبين أختها فى شكل جميل . وكانت المكواة أكثر سخونة مما يجب ، فما التف الشعر حولها ، حتى فاحت رائحة الحريق وتصاعد دخان خفيف . ورأت بث

ما حدث فسألت أختها :

ـ يتصاعد الدخان دائماً هكذا عند كى الشعر ؟

أجابت چو :

ـ بل هى رطوبة الشعر تتصاعد فى بخار .

قالت بث وهى تتحسس خصلات شعرها الجميل باعتزاز :

ـ ما هذه الرائحة العجيبة ؟ كأنى أشم ريشاً يحترق .

فقالت چو ، وقد أوشكت أن تنتهى من عملها :

ـ عندما أسحب المكواة من بين الشعر ، ستزين الحلقات الجميلة تحيط بجبينك كالتاج .

وسحبت المكواة من شعر أختها ، فلم تظهر الحلقات الجميلة التى وعدت بها ، إنما كان الأمر بالعكس ، فقد سقطت الخصلة كلها ، محترقة على مائدة الزينة .

وصاح الأخوات فى فزع وذعر ، وصرخت ميج منزعجة لما حل بها ، قالت فى أسى بالغ :

ـ ماذا صنعت بشعرى ، لقد أفسدته ، وحرقت أجمل خصلة منه ، فكيف أذهب إلى المرقص بهذا الشكل ؟ أواه يا شعرى ! أواه ياشعرى !

وانهمرت الدموع من عينى چو ، لفرط أسفها على ما بدر منها دون قصد ، قالت :

ـ إنه النحس الذى يلازمنى دائماً ، ليتك ما طلبت منى أن أكوى

شعرك . إنى أفسد كل ما تمتد إليه يدى ، وهذه محنتى . فتقبلى معذرتى وأسفى ، وثقى أننى لم أكن أعلم أن المكواة ساخنة إلى هذا الحد .

فقالت آمى تعزى أختها ميج :

— لم يفسد شعرك كما تتصورين ، ونصيحتى أن تعقصيه بشريط كبير يخفى أطرافه المحترقة ، وسيبدو بذلك مصففاً على أحدث طراز ، فقد رأيت أنيقات كثيرات يصففن شعورهن بهذا الشكل .

قالت ميج فى ندم :

— ليتنى تركت شعرى على حاله ، ولكنى أردت أن أبالغ فى التأنق ، فجوزيت على غرورى أسوأ جزاء .

ونهضت بث من مقعدها وانحنت على أختها تقبلها وقالت :

— صدقت ، فقد كان شعرك جميلا ، وما كنت فى حاجة إلى تجعيده ، ولكن خلى عنك ، فبعد قليل يطول ويستعيد رونقه القديم .

وأتمت ميج زينتها ، وتعاونت الأسرة كلها على تصفيف شعر چو العزيز ، وساعدها أخواتها فى ارتداء ثوبها ، وكانت ميج تلبس قبعة من المخمل الأزرق ، وثوباً فضى اللون ، لمع على صدره مشبك أمها اللؤلؤى ، وكانت چو ترتدى ثوباً أحمر اللون ، له بنيقة بيضاء مرتفعة ، زينه زهرتان من الأقحوان الأبيض . ولبست كل واحدة منهما فرداً من القفاز السليم وأمسكت بفرد من القفاز القذر فى رشاقة طبيعية أخفت السر الحقيقى فى هذا التوزيع . وهكذا بدت الفتاتان على بساطة

هندامهما ، آية فى الأناقة والذوق السليم .

وكان حذاء ميج ذو الكعب العالى ضيقاً يؤلم قدميها ، وكانت چو تحس كأن مشابك شعرها تنغرس فى جلد رأسها ، ولكن هذه المتاعب بدت ثمناً رخيصاً للأناقة التى تنشدانها .

قالت مسز مارش تودع بنتيها :

ــ أرجو لكما سهرة ممتعة . لا تسرفا فى الأكل ، وسأبعث إليكما حنة فى الحادية عشرة ، لتعود بكما إلى البيت .

وخرجت الفتاتان إلى الطريق ، فأطلت عليهما مسز مارش من النافذة ، وقالت :

ــ أمعكما مناديل يد جميلة ؟

فصاحت چو ضاحكة :

ــ معنا مناديل جميلة جداً ، ومنديل ميج معطر بماء الكولونيا .

والتفتت إلى أختها وقالت لها :

ــ لو زلزلت الأرض زلزالها ، ما نسيت أمى أن تسألنا عن المناديل .

وكانت ميج ذات طابع أرستقراطى ، قالت :

ــ إنه سؤال هام ، وهى محقة فيه ، فما من سيدة أنيقة تهمل العناية بحذائها وقفازها ومنديلها .

وأخيراً دخلت الأختان بيت آل جاردنر ، وفى الردهة ، وقفت ميج أمام المرآة ، تتأمل صورتها راضية . قالت لچو :

ـ أترين وشاحى منظماً ؟ وهل يبدو شعرى فظيعاً ؟ تذكرى أن تخفى ظهرك عن العيون ، فالحرق واضح فى ثوبك .

أجابت چو ، وهى تعدل بنيقتها ، وتسوى شعرها :

ـ سوف أنسى بلا شك . فإذا رأيت عيباً فى مسلكى ، اغمزى لى بعينك حتى أنتبه له .

قالت ميج :

ـ إن السيدة المهذبة لا تغمز بعينها ، فيكفى أن أرفع حاجبى إذا أخطأت ، وأومئ برأسى إذا أحسنت . والآن ارفعى كتفيك ، وسيرى فى خطوات قصيرة ، وإياك أن تصافحى الناس بيدك ، ففى ذلك خروج على دواعى الأدب .

قالت چو :

ـ بالله كيف تعلمت كل هذه الأصول ؟ من العسير أن أحفظها مثلك .

وتقدمت الفتاتان إلى بهو الرقص فى بعض الخجل ، لقلة ارتيادهما مثل هذه الحفلات . واستقبلتهما مسز جاردنر فى عطف وترحيب ، ثم عهدت بهما إلى سالى كبرى بناتها الست . وكانت ميج تعرف سالى من قبل ، فسرعان مازال خجلها ، ولكن چو لم تكن بطبعها تأنس إلى صحبة البنات ، أو تجد فى حديثهن تسلية ، فوقفت بجوار الحائط تخفى ظهر ثوبها عن العيون ، وقد أحست أنها وحيدة غريبة فى مثل هذا الوسط .

وحانت منها نظرة إلى الجانب الآخر من الغرفة ، فرأت ستة فتيان يتحدثون عن رياضة الانزلاق ، فتمنت لو كان فى استطاعتها أن تلحق بهم وتشترك معهم فى حديثهم . فأشارت إلى أختها برغبتها ، ولكن حاجب الأخت ارتفع فى تحذير شديد ، فلزمت چو مكانها ولم تجرؤ على تحقيق أمنيتها .

وظلت تقف وحدها بجوار الحائط ، ولا من يبادلها الحديث ، وخرج المدعوون من البهو تباعاً ، فلم يبق فى المكان غيرها . وكانت تخشى أن تتحرك من مكانها حتى لا يظهر الحرق الأسود فى ثوبها . فقنعت بالمشاهدة من بعيد . وبدأ الرقص ، فلم تلبث ميج أن وجدت رفيقاً يقودها إلى الحلبة ، وجعلت ترقص معه فى سرعة ومرح ، لا يمكن لأحد معهما أن يتصور كم تعانى فى الحقيقة من ضيق حذائها .

ورأت چو شاباً أحمر الشعر يتقدم نحوها ، وخشيت أن يكون قد اعتزم دعوتها إلى الرقص ، فانسلت إلى الغرفة الصغيرة المجاورة ، واختفت وراء ستائرها . بحيث يمكنها أن تسترق النظر إلى الراقصين وهى فى مأمن من العيون . ولكن شاء حظها العاثر ، أن تجد وراء الستائر شخصاً خجولا مثلها ، لاذ هو الآخر بالمخبأ هرباً من الناس . وكان هذا الشخص هو لورنس الصغير . فقالت وهى تحاول أن ترتد على أعقابها فى سرعة :

ــ ظننت المكان خالياً .

فضحك الفتى وقال فى مرح يخالطه بعض الخجل :

— ابقَ هنا إذا شئت ، وانسى وجودى .

قالت :

— ألا يزعجك أن أفسد عليك عزلتك ؟

قال :

— أبداً . فما لجأت إلى هذا المكان إلا لأنى لا أعرف أحداً من المدعوين .

قالت :

— وأنا مثلك ، فأرجو أن تبقى ، إلا إذا كنت تفضل أن تكون وحيداً .

وجلس الفتى بوقار . فقالت چو فى تلطف :

— أظن أننى تشرفت برؤيتك من قبل ؟ فأنت تسكن بجوار بيتنا .

قال :

— بل نحن أقرب جيران لكم .

وضحك بمرح ، وقد تذكر يوم أعاد إليها قطتها . فتحدثت إليه عن الألعاب الرياضية . واغتبطت بضحكه ، فضحكت بدورها وقالت بحرارة :

— لست أدرى كيف أشكرك على هديتك فى العيد .

قال :

— إنها هدية جدى .

قالت :

ــ ولكنها فكرتك . وأكاد أكون واثقة من ذلك .

قال الفتى فى مرح مكبوت :

ــ كيف حال قطتك يا آنسة مارش ؟

قالت :

ــ بخير يا مستر لورنس ، ولكنى أفضل أن تنادينى « چو » دون ألقاب .

أجاب :

ــ وأنا لست أدعى مستر لورنس بل لورى فقط .

قالت تردد اسمه :

ــ لورى لورنس ! ياله من اسم غريب

قال :

ــ اسمى الكامل ثيودور لورنس ، ولكنى لا أحب هذا الاسم لأن زملائى فى المدرسة كانوا يختصرونه إلى « دورا » فطلبت إليهم أن يدعونى « لورى » .

قالت :

ــ إذا كنت تكره اسمك ، فأنا كذلك أكره اسمى ، وأعتقد أنه اسم شاعرى وأفضل أن يدعونى الناس چو بدل چوزفين . ولكن ، كيف أقنعت زملاءك بتغيير اسمك إلى « لورى » ؟

ـ أقنعتهم بالضرب .

أجابت چو فى أسف :

ـ ولكنى لا أستطيع أن أضرب عمتى مارش . وليس أمامى سوى الصبر .

سألها :

ـ ألا تحبين الرقص يا آنسة چو ؟

ونظر إليها كأنما أعجبته كلمة « آنسة چو » ، فقالت :

ـ أحبه إذا كانت الحلبة متسعة ، ولكنها ضيقة فى هذه الليلة ، وأخشى إذا رقصت أن أدوس على أقدام الراقصين ، أو أقلب الموائد بخشونتى المعهودة ، فمن الخير أن أكفيهم شرى ، وأترك الميدان لميج تصول فيه وتجول . ألا ترقص أنت ؟

قال :

ـ أحياناً . ولكنى لم أرقص الليلة خشية أن أخطئ ، فأنا أجهل أساليب الرقص عندكم ، لأننى عشت سنوات فى الخارج .

صاحت چو بحماسة :

ـ فى الخارج ! ؟ حدثنى إذاً بما رأيت فى البلاد الأخرى ، فأنا جد مشغوفة بأخبار الأسفار والرحلات .

ولم يعرف من أين يبدأ الحديث ، ولكن أسئلة چو سهلت له مهمته ، فانساق يقص عليها كيف تعلم فى مدرسة ڤيڤاى بسويسرا ،

حيث لا يلبس التلاميذ قبعات على الإطلاق ، وحيث يقتنون أسطولا من القوارب الشراعية يمرحون بها فى البحيرة . وحدثها كيف كانوا يقومون بالرحلات مع أساتذتهم فى مختلف بلدان سويسرا خلال العطلة المدرسية .

قالت چو :

ــ ليتنى أزور هذه البلاد ، هل ذهبت إلى باريس أيضاً ؟

قال :

ــ قضينا فيها الشتاء الماضى .

سألته :

ــ أتتكلم الفرنسية ؟

قال :

ــ إنها اللغة الوحيدة التى كنا نتكلم بها فى ڤيڤاى .

قالت :

ــ إذاً أسمعنى جملا منها ، لأننى أقرأ الفرنسية ولكنى لا أعرف نطقها الصحيح .

سألها بالفرنسية :

ــ من تكون تلك الشابة الصغيرة ذات الحذاء الجميل ؟

قالت :

ــ تعجبنى لهجتك الفرنسية السليمة ، وقد فهمت الجملة كلها

والآنسة التى تسأل عنها ، هى أختى مارجريت . ألا تعتقد أنها جميلة ؟

أجاب :

ــ نعم . وتذكرنى نضارتها بالألمانيات ، ويعجبنى أسلوبها الممتاز فى الرقص .

واغتبطت چو لكلامه كل الاغتباط ، وسرها أن تسمع مديح أختها من شاب مهذب مثل لورى . وجلس الاثنان فى صمت ، يشاهدان الراقصين والراقصات ، ويتسامران بإبداء الملاحظات ، كأنهما صديقان قديمان طالت بهما المعرفة سنين . وتخلى لورى عن خجله أمام صراحة چو وبساطتها ، واستعادت چو ثقتها بنفسها . فنسيت ثوبها ، وسرها أن شغل الرقص أختها عنها فلم ترفع لها حاجبها محذرة مؤنبة . وقد زادتها المعرفة إعجاباً بلورى ، فتأملته بدقة عدة مرات ، حتى يمكنها أن تصفه وصفاً مسهباً لأخواتها فيما بعد ، وكانت تعلم أنهن يرحبن بذلك لحرمانهن من الأخ ولقلة عدد الذكور فى العائلة ، مما جعل الفتيان مخلوقات مجهولة لهن .

وجعلت ، فيما بينها وبين نفسها ، تردد أوصافه : شعر أسود مجعد ، وبشرة تميل إلى السمرة ، وعينان سوداوان واسعتان ، وأنف طويل حاد ، وأسنان منتظمة ، وقامة فى مثل قامتها ، ثم أدب جم ومعشر لطيف . ترى كم يبلغ من العمر ؟ وكاد السؤال يفلت من بين شفتيها ، ولكنها حبسته فى آخر لحظة بلباقة غير معهودة فيها . وكانت تريد أن تعرف

عمره ، فجعلت تلف وتدور حول الموضوع لعلها تصل إلى بغيتها فى كياسة وأدب . قالت :

ــ أتلتحق بالجامعة عن قريب ؟ إنى أراك « تصُمّ » الدروس .

وتداركت خطأها باستعمال هذا اللفظ العامى ، فقالت :

ــ أقصد أنك تذاكر كثيراً .

هز كتفيه وقال :

ــ مازال أمامى عامان أو ثلاثة حتى ألتحق بالجامعة . فالقوانين الجامعية تحتم أن أكون فى السابعة عشرة .

وكانت قامته الطويلة قد خدعتها فظنت أنه بلغ السابعة عشرة .

قالت :

ــ أما زلت فى الخامسة عشرة ؟

قال :

ــ سأبلغ السادسة عشرة فى الشهر القادم .

قالت :

ــ ليتنى أستطيع أن ألتحق بالجامعة ، ولكنى لست أراك متحمساً لها ، أفلا تحب أن تنتظم فى صفوفها ؟

قال :

ــ إنى أكره الجامعات ، فالحياة فيها لا تخرج عن العمل والمشاكسة ولست من المغرمين بمشاكسة شباب هذا البلد .

سألته :

ـ وماذا تحب أن تفعل ؟

قال :

ـ أفضل أن أسافر إلى إيطاليا أعيش فيها كما يحلو لى .

وكانت چو تتمنى أن تعرف ما الذى يحلو له ، ولكنه كان مقطباً فى هذه اللحظة ، فلم تجرؤ على الاسترسال فى الموضوع . ورأت أن تغير الحديث فقالت :

ـ إن فرقة الموسيقى تعزف رقصة البولكا ، فلم لا تذهب وترقص ؟

قال : وهو ينحنى أمامها بطريقة فرنسية رشيقة :

إذا قبلت أن تكونى رفيقتى فى الرقص .

قالت :

ـ لا يمكن ، فقد وعدت ميج أن أبتعد عن الرقص لأن . . .

وأمسكت عن الكلام ، ولم تحدثه بالسبب ، واكتفت بأن ضحكت فى مرح ، فقال يلح فى السؤال :

ـ لأن ماذا ؟ ؟

قالت :

ـ أتكتم السر ؟

قال :

ـ من غير شك .

— من سوء الحظ أنني اعتدت أن أقف بجوار الموقد وظهري إلى النار ، فكان أن احترق ثوبي ، ولم يجد الإصلاح فيه ، ولذلك وعدت ميج ألا أتحرك من مكاني ، حتى لا يرى الناس مكان الحرق في ظهر ثوبي . إنه أمر يدعو إلى الضحك ، ولا بأس من أن تضحك إذا شئت .

ولكن لوري لم يضحك . وسكت قليلا يفكر ، ثم قال وفي عينيه نظرة حيرت الفتاة :

— نستطيع أن نحل المشكلة ، إذا رقصنا في هذا الممر الطويل ، بحيث لا يرانا أحد .

واغتبطت چو للفكرة ، وقامت ترقص معه ، وكان البهو خالياً ، فراحت تتبع أنغام البولكا في براعة ورشاقة . وعندما انتهت الموسيقى جلس الاثنان يستريحان على درجات السلم ، وعاد لوري يحدثها بالأعياد في هايدلبرج . وكيف يحتفل الناس بها هناك . وأقبلت ميج تبحث عن أختها ، فلما رأتها على الدرج ، أشارت إليها تستدعيها ، فقامت چو من مكانها متثاقلة ، وسارت وراء أختها إلى حجرة جانبية . وارتمت ميج فوق الأريكة ، وقد أمسكت بقدمها في ألم بالغ ، وقالت وهي تتأوه وتتلوى :

— انثنى كعب الحذاء تحتي ، فالتوت قدمي ، وأشعر بألم فظيع ، يعجزني عن الوقوف ، فخبريني كيف أعود إلى البيت .

قالت چو وهي تدلك قدم أختها في رفق :

كنت أتوقع أن يؤذيك هذا الحذاء ، وأنا آسفة لما أصابك . وأرى أن نعود إلى البيت فى عربة .

قالت ميج :

ـ مستحيل . فكل العربات الموجودة خاصة بالمدعوين ، ولكى نستأجر واحدة ، يجب أن نسير إلى الموقف البعيد . ولا أستطيع ذلك فى حالتى الراهنة ، ولن نجد من يحضر لنا واحدة .

قالت چو :

ـ أنا أحضرها .

قالت ميج :

ـ لا تذهبى . فالوقت متأخر والطرقات مظلمة . والأفضل أن أستريح قليلا حتى تأتى حنة فأحاول أن أعود معها إلى البيت .

قالت چو ، وقد عرضت لها فكرة طيبة :

ـ سأطلب من لورى أن يحضر لنا عربة .

قالت ميج :

ـ لا . . . لا تخبرى أحداً بالأمر ، أحضرى لى خفى المطاط وضعى هذا الحذاء مع بقية ملابسنا . فلن أستطيع أن أرقص بعد ما حدث . وأرجوك أن ترقبى مجئ حنة حالما ينتهى العشاء .

قالت چو :

ـ رأيتهم يتأهبون للعشاء ، وأفضل أن أبقى بجانبك .

قالت :

— بل اذهبى معهم لتأكلى ، واحضرى لى قدحاً من القهوة إن استطعت ، فلست أستطيع الحراك وقدمى بهذا الألم .

وجلست ميج فى مكانها بطريقة أخفت الخف المطاط عن العيون ، وذهبت چو تبحث عن قاعة الطعام فضلت طريقها إليها مرتين : الأولى عندما اقتحمت مخزن الأطباق . والثانية عندما ولجت غرفة صغيرة كان مستر جاردنر العجوز قد لاذ بها يتناول بعض المرطبات . وأخيراً وصلت إلى حيث امتدت موائد الطعام ، فأسرعت تعد قدحاً من القهوة حملته إلى ميج ، ولكنها لم تلبث أن سكبته على ثوبها ، فتشوه الصدر منه مثلما تشوه الظهر . قالت بارتباك ، وهى تزيل القهوة من ثوبها بقفاز ميج النظيف فتلطخه بالبقع :

— ما أغبانى ! !

وهنا سمعت صوتاً يقول لها فى رفق :

— أتسمحين لى أن أعاونك ؟

والتفتت خلفها ، فرأت لورى يحمل بإحدى يديه قدحاً مليئاً بالقهوة الساخنة ، وباليد الأخرى صحنا عامراً بالمثلجات . قالت :

— أردت أن أحمل شراباً لميج ولكنى اصطدمت فى سيرى بأحدهم فانظر ما أصاب ثوبى ! !

وجعلت تردد النظر بين الثوب المبقع والقفاز الملوث .

قال :

ــ أمر يؤسف له، ولكن خلي عنك ، فقد كنت أبحث عن شخص أقدم القهوة له والمثلجات ، فإن سمحت ، حملتها إلى أختك .

قالت :

ــ شكراً جزيلا ، تعال أرشدك إلى مكانها ، ويؤسفني ألا أستطيع حملها عنك ، خشية أن أسكبها فأزيد الطين بلة .

وسارت أمامه إلى حيث جلست ميج ، فوضع الطعام والشراب على مائدة صغيرة بجوار الفتاة المتعبة ، ثم انصرف إلى قاعة الطعام ، وعاد يحمل لحو نصيبها من العشاء . وكان يقوم على خدمة الفتاتين بأدب ورشاقة ، حتى أقرت ميج بأنه « شاب لطيف » .

وانقضى بهم وقت بهيج ، ولم تلبث أن انضم إليهم بعض الشبان ، فازدادت الجماعة مرحاً وغبطة . وعندما انتهوا من العشاء أقبلت حنة ، فنهضت ميج تلقاها مسرعة ، وقد نسيت ما أصاب قدمها ، وإذا بالألم يفاجئها شديداً قاسياً ، فترنح وتستند إلى ذراع أختها ، همست في أذن چو تحذرها :

ــ هس . . . لا تحدثهم بما جرى .

والتفتت إلى أصحابها وقالت :

ــ لا شيء . . . التوت قدمي قليلا ، ولا داعي للقلق .

وصعدت السلم تعرج . فجعلت حنة تؤنبها حتى انهمرت الدموع

من عينى ميج ، وأسقط فى يد چو ، ثم اهتدت إلى فكرة تساعد بها أختها ، فهبطت درجات السلم مسرعة ، وطلبت إلى أحد الخدم ، أن يحضر لهن عربة . ولكن الخادم اعتذر عن أداء هذه المهمة ، إذ كان غريباً عن هذا الحى ، ولا يعرف أين تقف العربات المستأجرة .

وبينما وقفت چو تتلفت حولها فى ضيق ويأس ، أقبل عليها لورى وقد سمع طرفاً من الحديث ، واقترح أن يرافقهن إلى بيتهن فى عربة جده . واغتبطت بهذا الاقتراح ، ولكنها ترددت بعض التردد فى قبوله . قالت :

— إن الوقت مازال مبكراً ، ومن الظلم أن نقطع عليك سهرتك .

قال :

— ولكنى اعتدت أن أعود إلى البيت مبكراً ، ولست أنتوى البقاء على كل حال ، فاسمحى لى أن أرافقكن إلى البيت ، فالسماء تمطر فى الخارج ولن أتجشم بمرافقتكن عناء لأنكن فى طريقى .

وشجعها كلامه على قبول دعوته ، فأخبرته بما أصاب قدم ميج ، وشكرت له اهتمامه وكرمه . وصعدت مسرعة تنادى أختها والطاهية ، وكانت حنة تمقت السير تحت المطر ، ولذلك لم تعارض فى الفكرة ، ولم تثر مزيداً من المتاعب والإشكالات .

ودرجت بهم العربة الفاخرة ، وكان لورى قد قنع بالجلوس إلى جوار السائق حتى يخلى لميج مكاناً متسعاً تريح فيه قدمها . واغتبطت الفتاتان بالرحلة المريحة كل الاغتباط ، وقطعتا الوقت فى التعليق على الحفل ومن

فيه . قالت چو ، وهى تصلح شعرها ، وتريح بدنها المتعب :

ــ لقد قضيت وقتاً سعيداً ، فهل استمتعت بوقتك مثلى ؟

قالت ميج ، وهى تراجع حوادث الليلة فى بشر :

ــ استمتعت كل المتعة حتى التوت قدمى . فقد عرّفتنى سالى بصديقتها الثرية آنى موفات ، فارتاحت إلى معرفتى ، ودعتنى إلى زيارتهم ، فى فصل الربيع عندما يبدأ موسم الأوبرا ، وأرجو أن توافق والدتى على قبول هذه الدعوة ، حتى أذهب مع سالى لقضاء أسبوع حافل بالمباهج مع آل موفات .

قالت چو :

ــ شاهدتك تراقصين رجلا أحمر الشعر ، فهل كان لطيفاً ؟

قالت :

ــ جداً . وعلى فكرة ، شعره كستنائى لا أحمر ، وكان جم الأدب ، ماهراً فى الرقص .

قالت چو :

ــ رأيته يرقص البولكا فذكرنى بجرادة طائشة ، فضحكت ولورى ملء شدقينا ، هل سمعتنا ؟

قالت :

ــ لا . . . والسخرية بالناس مجافاة للأدب ، فأرجو ألا تفعلى ذلك مرة أخرى ؛ ولكنك اختفيت عنا مع لورى وقتاً طويلا ، فماذا كنت تفعلين ؟

وحدثتها چو بما فعلته منذ بداية الحفل ، وما انتهت من كلامها حتى كانت العربة قد وصلت إلى البيت . فشكرت الفتاتان لورى وودعتاه ، ثم دخلتا البيت بهدوء حتى لا تزعجا النيام ، ولكن آمى وبث كانتا فى الانتظار ، فلما دلفت الفتاتان إلى غرفة النوم ، هتفت بهما الأختان الصغيرتان تقولان فى نفس واحد :

ــ علينا بأخبار الحفلة ، وما حدث فيها من البداية إلى النهاية .

وأخرجت چو من جيبها قطعاً من الحلوى ، كانت قد اقتصدتها من نصيبها لأختيها رغم معارضة ميج ولما فى ذلك من خروج على أصول اللياقة ، واغتبطت الصغيرتان بالهدية ، وزاد اغتباطهما بسماع حوادث السهرة المثيرة .

وجلست ميج فى مقعد مريح ، وعكفت عليها چو تمشط لها شعرها وتدلك قدمها الملتوية . قالت :

ــ يخيل إلىّ ، بعد ما حدث الليلة ، أننى سيدة أرستقراطية ، أرتاد المراقص والحفلات ، وأعود إلى البيت فى عربات فاخرة ، وإذا ما أويت إلى مخدعى ، عاونتنى خادمى فى تصفيف شعرى وخلع ملابسى .

قالت چو :

ــ صدقت ، وأنا أشعر مثلما تشعرين ، وأعتقد أننا استمتعنا إلى أبعد حد ، وسعدنا كل السعادة ، بالرغم من ثيابنا العتيقة ، وشعورنا المحترقة ، وأحذيتنا الضيقة المتعبة .

الفصل الرابع
متاعب وهموم

لم يكن من السهل على ميج أن تستقبل عملها المضنى راضية ، بعد عطلة العيد العامرة بالمباهج والمسرات ، فقالت فى صباح اليوم التالى فى حسرة وضيق :

ـ ما أشق أن نعود إلى طريق الكفاح الطويل .

أجابت چو وهى تتثاءب :

ـ ما كان أسعدنا ، لو أن الحياة كلها أعياد !

قالت ميج وهى تفحص ثوبيها لتختار أقلهما قدما :

— إنى أحب الرخاء ، وأغبط الفتيات الثريات ، وأتمنى أن أعيش فى ترف ونعيم : أتناول العشاء خارج البيت كل ليلة ، وأهدى باقات الزهور النادرة ، وأرتاد الولائم والحفلات ، وأتنقل فى عربات تجرها الجياد المطهمة ، ليتنا نستطيع أن نستمتع بالراحة ولا نعمل شيئاً .

قالت چو :

— لا تطلبى المستحيل ، ولا داعى للتذمر إذا لم يكن منه فائدة ، وخير لنا أن نحزم متاعبنا وأعباءنا . ونحملها فى طريق الحياة متفائلات مستبشرات ، وقدوتنا فى ذلك أمنا العزيزة . . . إذا كان عملك يضايقك ، فماذا أقول أنا فى خدمة عمتى مارش ؟ إنها والله عبء ثقيل على أكتافى ويوم أروض نفسى على احتمالها راضية . تكون متاعبى قد انتهت ، وطريق حياتى سهل واتسع .

وتصورت چو أن أمنيتها تحققت ، وأنها نجحت فى احتمال عمتها راضية ، فانشرح صدرها للفكرة ، ولكن ميج ظلت واجمة ، ورأت كأن متاعبها تفوق متاعب الدنيا كلها . فهى تعمل مربية لأربعة أطفال أفسدهم الرخاء والتدليل ، وإنه لعمل يقبض الصدور ، خصوصاً بعد عطلة العيد وما حفلت به من ألوان المتعة والترفيه . وضاعفت فكرة العودة إلى العمل شعورها بالانقباض ، فكرهت أن تتجمل كالمعتاد ، ولم تعن بتصفيف شعرها ، لا ولم تربط عنقها بشريط أزرق لامع . قالت وهى تنتهى من ارتداء ثيابها :

— لماذا أتجمل ولا من يرانى غير أولئك الأطفال المتعبين ؟ سواء كنت جميلة أو دميمة ، فليس هناك من يلقى نظرة علىّ أو يهتم بأمرى . سوف أتعب وأشقى طوال حياتى ، ولن أنال من المتعة إلا نتفاً صغيرة، ولن تلبث الشيخوخة أن تحل بى ، فأصبح عانساً لاذعة اللسان ، وما ذلك إلا لأنى فقيرة ، لا أملك مالاً يسعدنى ، ولا جاهاً يسندنى ، فيا للبؤس ويا للشقاء !

وتوجهت ميج إلى مائدة الإفطار كسيرة القلب حزينة ، فوجدت أخواتها بدورهن ثائرات متذمرات : بث ترقد على الأريكة تشكو صداعاً ألم برأسها ، وآمى فى ضيق شديد لأنها لم تستذكر دروسها فى خلال العطلة ،

ولا تجد حذاءها المطاط . وجو تصفر فى عصبية وهى تستعد لاستقبال يوم عصيب ، وحنة تضج لتأخر أفراد العائلة فى النوم مما يعطل أعمالها .

وازدادت جو بالتوتر الشامل ارتباكاً على ارتباك ، فانقلبت منها زجاجة الحبر ، وانقطع رباط الحذاء ، وجلست سهواً على قبعتها فهشمتها ؛ عند ذلك فقدت سيطرتها على نفسها وصرخت غاضبة :

ــ ما رأيت شبيهاً لهذه الأسرة الثائرة !!

أجابت آمى ، وهى تغسل بدموعها أخطاءها الحسابية عن لوح الاردواز :

ــ أنت أكثرنا ثورة وتذمراً .

وصاحت ميج غاضبة . عندما تشبثت بثوبها قطيطات بث الصغيرات :

ــ إن لم تبعدى هذه الحيوانات عنى يابث ، أغرقتها فى النهر .

وضحكت جو ، وظلت ميج تؤنب أختها ، وبث تستعطفها العفو عن قطيطاتها ، وبكت آمى لعجزها عن إتمام مسألة الحساب .

وكانت مسز مارش مشغولة فى تحرير رسالة ، فرفعت رأسها تقول لبناتها :

ــ اهدأن لحظة واحدة ، حتى أنتهى من هذه الرسالة ، فشجاركن يعطلنى وأخشى أن يفوتنى بريد الصباح .

وساد السكون مؤقتاً ، وهدأت الغرفة إلا من حركات حنة ، وهى

تحمل الفطائر الساخنة إلى المائدة ، وكان البنات جد مشغوفات بهذا اللون من الفطائر ، ولذلك كانت الطاهية تحرص على صنعها لهن كل صباح، فيحملنها معهن إلى العمل وجبة للغداء، يصبرن بها على الجوع حتى يعدن إلى البيت آخر النهار .

قالت چو ، وهى تشعر أن اليوم لم يبدأ بداية حسنة :

— هيا بنا إلى العمل ياميج ، وحاولى أن تتغلبى على صداعك يابث ، إلى اللقاء يا أماه ، لقد بدأنا اليوم شياطين ، وأرجو أن نعود إليك ملائكة .

وانصرفت من البيت فى رفقة ميج .

وكان من عادة الفتاتين أن تلتفتا إلى البيت عند منعطف الطريق ، فتلوح لهما الأم بيدها من النافذة ، وكانت حاجتهما إلى تلك التحية شديدة هذا الصباح ، فإن نظرة من وجهها العامر بأبلغ آيات العطف والحنان ، ذخيرة نفسية وفيرة ، تعينهما على تحمل أعباء عملهما المضنى الشاق .

وبعثت برودة الجو فى جسد چو نشاطاً ، وأكسبتها تحية أمهما مرحاً وتفاؤلا ، فقالت لأختها ضاحكة :

— ليت أمى هزت لنا قبضتها مهددة ، بدل القبلة التى بعثت بها إلينا مع الهواء ، فلسنا أهلا لحنانها ، وقد كنا صباح اليوم أشبه « بغانيات » جاحدات .

قالت ميج تؤنب أختها :

ــ لا تستعملى هذا اللفظ القبيح .

قالت چو ، وهى تحمى قبعتها من عبث الهواء :

ــ إنى أحب الألفاظ القوية المعبرة .

أجابت ميج :

ــ صفى نفسك بما تشائين ، ولا شأن لك بى ، فلست « غانية » كما تقولين ، ولا أحب أن أشبه بالغانية .

قالت چو :

ــ أنت اليوم مخلوقة متعبة ، قلبك عامر بالحنق والغضب ، لعجزك عن التمرغ فى أحضان الترف . اصبرى حتى أجمع لك ثروة طائلة ، توفر لك العربات الفاخرة ، والجياد المطهمة والمثلجات الشهية ، والأحذية ذات الكعوب العالية . وعندئذ تعيشين كما ترغبين ، وترقصين مع الرجال ذوى الشعور الحمراء !

وانقشع عن ميج غضبها بهذا الهراء ، وزايلها ضيقها السابق ، فقالت ضاحكة :

ــ ما أسخفك يا چو !

قالت چو :

ــ من حسن حظك أننى سخيفة ، ولو لم أكن كذلك ، لأجبتك على غضبك بمثله فتسوء العاقبة . إنى أحمد الله على نعمة المرح ، وأجد

فى التفاؤل قوة وسعادة ، فكونى مثلى ، واتركى الغضب والتذمر ، وتعودى أن ترجعى إلى البيت فرحة راضية .

ثم ربتت كتف أختها مشجعة ، وانصرفت كل إلى مقر عملها وهى تتظاهر بالسعادة ، رغم برودة الجو ، ومشقة العمل ، وقسوة الحرمان من مباهج الشباب .

كان مستر مارش فى بداية حياته على قدر مذكور من الثراء ، لكنه كان طيب القلب عطوفاً ، فلما رأى صديقاً له فى مأزق مالى ، أراد أن ينقذه ، فضاعت ثروته ، ولم يبق له إلا الكفاف . ورأت ابنتاه الكبيرتان أن تخففا العبء عنه بالعمل ، فسمح لهما أبوهما بذلك ، وغرضه الحقيقى أن يعلمهما الاعتماد على النفس ، ويغرس فى نفسيهما روح الجد والنشاط . واقتحمت الفتاتان أبواب العمل فى عزيمة لا تلين ، واشتغلت مارجريت مربية للأطفال . وكان أجرها ضئيلا ولكنها شعرت كأنه ثروة طيبة ، تكفل لها نفقاتها الخاصة ، وتغنيها عن سؤال والدها المرهق بالأعباء ، وكانت بطبعها تميل إلى حياة الترف ، وتحب أجمل الأشياء ، ولكن ظروفها المالية لم تحقق أمانيها الواسعة . وكانت ترى ألوان الرخاء فى بيت مخدومها مستر كنج ، فتجاهد فى إخفاء غيرتها مما تراه حولها ، وتبذل جهوداً مضاعفة فى كبت ضيقها بالحياة ، وهى ترى بنات مستر كنج الكبيرات يرتدين الملابس الغالية ، ويحملن باقات الزهور النادرة ، ويروين العجيب من أحاديث المسارح والحفلات . وكانت ترى الأسرة

تنفق أموالا طائلة فى كماليات تافهة ، فيزيد شوقها إلى هذه التوافه ، وتعتبرها أثمن الأشياء .

وقلما كانت ميج تصرح بما يعتمل فى نفسها ، فاستبد بها إحساس مكبوت شعرت معه بأنها مظلومة فى هذه الحياة ، وأن ظلمها يبدو مريراً لأنها لم تنشأ على الفقر فى صغرها ، بل عرفت الثراء يوماً ، وما زالت تذكر عهد العز والرخاء .

وكان نصيب چو مختلفاً ، فقد أعجبت بها عمتها مارش ، فاستخدمتها وصيفة لها . وكانت العمة مارش عجوزاً عرجاء ، تحتاج إلى من يساعدها على أداء واجباتها ، فلما حلت النكبة المالية بأخيها أبدت رغبتها فى أن تتبنى واحدة من بناته الأربع ، ولكن الأب رفض أن يجيبها إلى رغبتها ، وقد أنكر الأصدقاء عليه رفضه هذا ، وقالوا إنه يحرم بناته فرصة طيبة فقد تورثهن العمة مالها ، ولكن الماديات لم تخدع آل مارش ، فردوا على أصدقائهم قائلين :

— لن نفرط فى بنت لنا لقاء مال مهما كثر ، وسنبقى دائماً معاً فقراء أو أغنياء .

واشتد الغضب بالعمة العجوز ، فخاصمت أخاها وأسرته زمناً طويلا ، ثم شاء القدر أن تقابل چو فى بيت أحد الأصدقاء ، فراقها منها وجه ضاحك ، وروح مرحة ، وأسلوب صبيانى خشن ، وعندئذ زلت العجوز عن غضبها السابق ، وعرضت على أخيها أن تتخذها

وصيفة لها تساعدها فى البيت طوال النهار . ولم يرق هذا العرض فى نظر الفتاة ، ولكنها اضطرت إلى قبوله بعد أن أعيـــاها البحث عن وظيفة أخرى . ولدهشة الأقارب والأصدقاء على السواء ، سارت الأمور على مايرام بين چو وعمتها ، وكانتا تختلفان أحياناً ، وتقوم بينهما مشادات ومناقشات ، فتخرج چو من بيت عمتها غاضبة ، وتقسم ألا تعود إليه ثانية ، ولكن غضب العجوز لا يلبث أن ينصرف ، فترسل فى استدعاء بنت أخيها ، وتلح فى طلبها وترجو فتلين الفتاة وتعود إليها ، والسر فى ذلك أنها كانت تحب عمتها وتحلها من نفسها محلا طيباً ، رغم سوء طبعها وقسوة لسانها .

ولعل أكثر ما كان يجتذب چو إلى بيت عمتها ، تلك المكتبة العامرة بأقيم المؤلفات ، وكان زوج عمتها قد ترك هذه المكتبة ضمن مخلفاته ، فظلت بعد وفاته مهملة تنسج عليها العناكب خيوطها . ورغم مضى السنوات على موته ، كانت چو لا تزال تذكره ، وكذلك كيف كان يأذن لها أن تلعب بالكتب والقواميس فتبنى بها بيوتاً وقصوراً ، وكيف كان يهديها صوراً وحلوى كلما رآها فى الطريق .

وكانت غرفة المكتبة مترببة معتمة ، تنتثر فيها التماثيل النصفية والمقاعد المريحة ، وتغطى أرففها كتب لا حصر لها ونماذج مختلفة الأحجام للكرة الأرضية . وكانت چو تحب تلك الغرفة ، وتلجأ إليها كلما أعوزها الهدوء والترفيه ، فما إن تغفو عمتها غفوة قصيرة ، أو يشغلها

عن وصيفتها زائر أو صديق ، حتى تهرع چو إلى ملجئها الهادئ ، فتجلس فوق أحد المقاعد ، وبين يديها كتاب ممتع فى الشعر أو القصص أو التاريخ أو الأسفار والرحلات ، تلتهم بعينيها ما فيه التهاماً . ولكن قلما كانت سعادتها تدوم ، فما إن تصل إلى أمتع ما فى كتابها ، حتى يرتفع صوت العجوز مناديا « چو . . . زيف . . . بن » « چو . . . زيف . . . بن » وعندئذ تترك متعتها كارهة ، وتعود إلى عمتها لتساعدها فى لف بكرة خيط ، أو تنظيف كلبها المدلل ، أو تقرأ لها كتاباً مملاً ساعات وساعات .

وكانت چو تتمنى أن تقوم بعمل رائع فى يوم من الأيام ، ولكنها لم تحدد نوع هذا العمل ، واختارت أن تترك للزمن هذه المهمة ، قانعة عن السعى إليها بالتفجع على حرمانها من القراءة والجرى وركوب الخيل وغير ذلك من ألوان التسلية المفضلة لها . وكانت الفتاة حادة الطبع ، لاذعة اللسان ، حائرة المزاج ، وهى صفات كثيراً ما أوقعتها فى مآزق حرجة ، وجعلت سيرتها خليطاً من الفضائل والنقائص ، التى كانت تضحكها أحياناً ، وتبكيها أحياناً أخرى . ولكنها رضيت بالعمل فى بيت عمتها ، رغم المضايقات المختلفة ، من أجل المرتب الذى كانت تشعر أنها فى حاجة إليه .

وكانت بث تعانى خجلا شديداً ، وقف بينها وبين الاستمرار فى دراستها ، فتركت المدرسة لتتلقى علومها فى البيت على يد والدها ،

فلما دعا الأب داعى الوطن ، وتطوع فى سلك الجيش المحارب ، وانشغلت أمها عن تعليمها بالعمل فى «جمعية مساعدة الجنود» ، عكفت على تعليم نفسها بنفسها فى جد وإخلاص وعزم . وكانت ربة بيت بطبعها ، فتعهدت بمساعدة حنة فى تدبير شئون المنزل ، وتهيئة أسباب الراحة لأخواتها العاملات ، لا تنتظر جزاءً سوى محبة أفراد الأسرة ، واعتزازهن بها .

وكانت تمضى بها الساعات والأيام ، وهى تعمل وحيدة ، فلا تكل من العمل ولا تشكو الوحدة ، لأنها كانت تعيش فى دنيا خيالية عامرة بالأصدقاء والمسرات . كانت تتخذ من الدمى العتيقة التى خلعها عليها أخواتها ، أصدقاء أعزاء ، تحدثهم وتدللهم ، وتكسوهم بالثياب التى تصنعها من الخرق البالية . ولم يكن بين هذه الدمى واحدة سليمة أو جميلة الشكل ، ولكنها كانت تحبها لبؤسها وسوء حالها . ومن الطريف أنها لفرط عطفها على دُماها افتتحت لذوات العاهات منها ملجأ أميناً ، تحوطها فيه بألبغ ألوان الرعاية والحنان ، وكانت تعتز بحطام دمية اشتريت لها فى يوم من الأيام ، فعبثت بها خشونتها الطبيعية حتى تحطمت ولم يبق منها إلا جزء يسير ، فألقت بها فى صندوق الفضلات وجاءت آمى بحنانها المعهود فأنقذت الدمية من مصيرها التعس ، وآوتها فى ملجئها ، بعد أن غطت جمجمتها المكسورة بقبعة صغيرة وأخفت الأطراف المبتورة تحت ثوب فضفاض . والعجيب أن هذه الدمية

المحطمة احتلت أحسن سرير فى الملجأ ، وآثرتها بث بأكبر قسط من رعايتها واهتمامها ، فكانت تأتيها ببقايا الزهور الجميلة ، وتقرأ لها لتسليها ، وتصحبها معها إلى الحديقة لتروح عنها . وكانت تغنى لها قبل النوم وتودعها كل ليلة بقبلة ملؤها العطف والشفقة ، ثم تهمس فى أذنها متمنية لها نوماً هادئاً وأحلاماً سعيدة .

وكان لبث متاعبها وأشجانها ، فقد كانت تعشق الموسيقى ، وتجهد نفسها فى تعلم أصولها ، وتؤدى تمريناتها بصبر وجلد ، وكل أملها فى الحياة أن تقتنى معزفاً جميلاً ، وأن تلقى المساعدة فى دراسة الموسيقى ، ولكن معزف الأسرة كان عتيقاً بالياً ، ولم يعن أحد بمعونتها فيما تنشد ، فكانت إذا اشتدت بها الهموم ، واستعصت عليها الأنغام ، قنعت بالبكاء وحدها ، فتتساقط دموعها على أصابع المعزف الصفراء ولا من يعلم مبلغ شقائها ، وعلى الرغم من ذلك كانت مرحة طروباً ، تغنى كالكروان وهى تؤدى أعمال البيت الشاقة فى صبر وجلد ، وكل أملها أن يحقق الله أمانيها جزاء لها على طيبتها وإخلاصها .

العالم ، ولا شك ، ملىء بفتيات مثل بث ، يقنعن بالانزواء ، ويضحين من أجل سعادة غيرهن ، ويعشن فى إنكار جميل للذات ، ولا من يحس بعظم تضحيتهن حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا ، فتسكت أصواتهن الجميلة عن الكلام ، وتغيب شموسهن الساطعة عن الوجود ، فيرحلن عن الحياة وقد خلفن لأحبتهن سيراً عاطرة وذكريات لا تموت .

لو أن سائلا سأل آمى عن أكبر همومها ومتاعبها ، ما ترددت فى الاعتراف بأنها تعانى الأمرين من أنفها ، الذى يرجع تاريخ محنتها فيه إلى مرحلة الطفولة ، يوم كانت چو تحملها بين ذراعيها ، فسقطت الصغيرة منها عفواً فى إناء الفحم الكبير . ويحلو لآمى دائماً أن تحمل السقطة وزر تشويه أنفها ، وتقول إنه لولا إصابتها فى ذلك اليوم ، ما تغير شكل الأنف وما فسد رسمه الأول الجميل . ولم يكن أنفها فى الحقيقة كبيراً أو قبيحاً ، إنما كان مفرطحاً ، وكانت تود أن يكون معتدلا مستقيما ، ولما لم تجد فى إصلاحه محاولاتها الساذجة الكثيرة ، قنعت فى التعبير عن آمالها الخائبة برسم أنوف جميلة ، ملأت بها صفحات وصفحات .

وكانت ذات موهبة ممتازة فى الرسم ، وأسعد أوقات حياتها تلك التى تقضيها فى نسخ صور الأزهار والورود ، أو فى تأليف مناظر عجيبة تصور بها حوادث القصص التى تقرؤها ، وكان مدرسوها يشكون من أنها تضيع وقتها فى ملء لوح الأردواز برسوم الحيوانات ، بدل أن تحل مسائل الحساب ، وأنها تملأ الصحائف البيضاء من أطلسها بنسخ الخرائط المعقدة ، وأن كتاباً من كتبها لم ينج من الرسوم الهزلية المختلفة . ولم تكن ممتازة فى دروسها مثلما هى ممتازة فى رسومها ، ولكنها استطاعت أن تتحاشى العقوبات بالطاعة والنشاط والأدب هذا إلى إتقانها الغناء والتطريز ، وإلمامها بالفرنسية بحيث لم تكن تخطئ فى نطق أكثر من

ثلثى ما تقرأ ، وهو تفوق عظيم بالقياس إلى زميلاتها الأخريات ! ! وكانت محبوبة من لداتها لمرحها وكياستها ، وتأنقها فى اللفظ باستعمال كلمات نحوية فى أحاديثها ، مما يكسبها سيماء الأرستقراطية .

وكانت آمي مدللة يحبوها أهلها ومعارفها بالعطف والحنان ، فترعرعت بها روح الأنانية ، وازدادت رغباتها التافهة ، ولم يكن يحد من نماديها فى تلك النقائص ، سوى الفقر الذى يحرمها من الثياب الأنيقة التى تحبها ، فلم تكن موارد آل مارش تسمح لها بشراء القبعات الحمراء ، والثياب الجميلة المحلاة بالدنتلا ، والمراول المقصوصة على أحسن طراز . وكانت الظروف تضطرها إلى أن تستعيض عن كل هذا بما تخلعه عليها بنت خالتها « فلورنس » من ثياب مستعملة ، ربما كانت غالية الثمن غير مستهلكة ، غير أن ذوق الفتاة الفنى كان ينكر تنافر ألوانها وتعقيد قصاتها ، وخلوها من مظاهر الأناقة والجمال . وكان أقبح ما فى خلع فلورنس ، ذلك الثوب الذى أعطته لها هذا الشتاء لتذهب به آمى إلى المدرسة ، فقد كان أرجوانى اللون منقوشاً بنقط صفراء فاقعة ، وليس فيه قطعة واحدة من الدنتلا تخفف من حدة تنافر ألوانه .

قالت آمي يوماً لميج :

ــ إنى أكره ثوب المدرسة ، وأمقت طرازه وألوانه ، ولكن عزائى الوحيد أنه أحسن حالا من ثوب زميلتى ماريا پارك ، ولا يمكنك أن تتصورى مبلغ الهوان الذى يلقاه الثوب على يدى أمها ، فأحياناً يرتفع

إلى ما فوق ركبتيها ، وأحياناً أخرى يفسد حتى تنقطع الفتاة عن المدرسة لفرط بشاعته . وكلما تذكرت ماريا وثوبها ، أحمد الله على ما أنا فيه وتهون على متاعبي ، فأرضى بكل هم ، حتى أنقى المفرطح وثوب المدرسة القبيح .

وكانت ميج موضع ثقة آمى وناصحتها ؛ وكانت بث صديقة لجو ، تفتح قلبها الصغير على مصراعيه دون حرج ، وتبسط عليها سلطانها دون بقية أفراد الأسرة ، وتجد فى أساليب أختها الكبيرة الخشنة ملاذاً لعواطفها الحية الجياشة . وكما أن ميج آثرت آمى برعايتها ، كذلك فعلت جو مع بث ، إذ وجدت الأختان الكبيرتان فى تلك الرعاية منفذاً لإظهار عواطف الأمومة الكامنة فيهما ، والتى تطورت بمضى السنوات من اللعب بالدمى إلى رعاية الأختين الصغيرتين .

عندما التأم شمل الأسرة فى المساء ، وجلس الأخوات يطرزن على عادتهن كل ليلة ، قالت ميج :

ـ ألا من خبر جديد يسلينا ؟ لقد قضيت يوماً عصيباً ، وأشعر بحاجة إلى الترفيه .

قالت جو ، وكانت مشغوفة برواية القصص والأحاديث :

ـ سأحدثكن بما حدث اليوم بينى وبين عمتى . لقد اعتدت أن أقرأ لها كتابها الممل فى صوت رتيب كطنين النحل ، حتى تستسلم للنعاس ، فأنسل إلى غرفة المكتبة أقرأ ما يحلو لى من كتب مسلية بسرعة

خاطفة قبل أن تستيقظ . وكنت أشعر فى صباح اليوم بملل شديد ، وأشعر بحاجة إلى ما ينعش نفسى ، فأكسبت صوتى رنيناً ناعساً لأشجعها على النوم ، وعندما رأيت جفنيها ينطبقان ، توقفت فاغرة الفم عن القراءة ، ولكن العجوز رأتنى لسوء الحظ ، فتنبهت وسألتنى لماذا أفتح فمى واسعاً هكذا ، حتى أجعله يتسع لكتاب كامل ؟ قلت وأنا أتظاهر بالأدب :

— ليتنى أملأ ذلك الفم ، لأبتلع هذا الكتاب وأستريح منه .

— وأغضبها كلامى فألقت علىّ محاضرة طويلة تعدد فيها أخطائى ورذائلى ، وطلبت إلىّ أن أجلس إلى نفسى فأحاسبها على شرورها ، ريثما تغفو قليلا . ولم أجد مفرًّا من النزول عند إرادتها والعمل بنصيحتها ، فأخرجت من جيبى كتاب « قس ويكفيلد » وجعلت أقرأ فيه بعين ، والعين الأخرى على عمتى ، وما إن وصلت فى قراءتى إلى حيث سقط الأبطال جميعهم فى الماء ، حتى نسيت حذرى وأدبى ، وانفجرت ضاحكة . واستيقظت عمتى على صوتى ، ولكن النوم كان قد أكسبها هدوءاً ، فلم تؤنبنى ، وكل ما فعلته أن أمرتنى بأن أقرأ لها فى ذلك الكتاب السخيف الذى أفضله على كتابها القيم الثمين . وقرأت كأحسن ما أستطيع ، فأعجبها الكتاب وإن قالت فى النهاية :

— لست أفهم ما يرمى إليه المؤلف بهذا الكلام ، فأعيدى القراءة من البداية !

وبدأت القراءة من جديد ، وبذلت جهدى فى أن أجعل الموضوع

مفهوماً لها ، ثم حلا لى أن أعاكسها ، فلما وصلت إلى موقف مثير ، توقفت عن القراءة فجأة وقلت لها :

ـ أخشى أن القراءة قد أتعبتك ، أفلا يحسن أن ننتهى عند هذا الحد ؟

ـ وكان تطريزها قد سقط فى حجرها ، فلما سمعتنى أقول هذا ، تناولته بيديها ، وألقت على من خلال منظارها نظرة قاتلة وقالت :

ـ استمرىٰ فى القراءة إلى نهاية الفصل ، ويحسن ألاّ تكونى وقحة يا آنسة .

قالت ميج ضاحكة :

ـ وهل اعترفت بأن الكتاب أعجبها ؟

قالت چو :

ـ لا . . . طبعاً . . . لم تعترف ، ولكنها هجرت كتابها الأول ، وعندما حان وقت عودتى إلى البيت ، دخلت آخذ قفازى من غرفتها ، فرأيتها تلتهم « قس ويكفيلد » بشوق بالغ ، شغل حواسها عن كل شىء عداه ، فلم تسمعنى وأنا أضحك طرباً وبهجة . إنى أشفق عليها لأنها تعقّد حياتها بنفسها . ولست أحسدها على ثرائها الطائل ، فللأغنياء أيضاً متاعبهم الجسيمة .

قالت ميج :

ـ أما أنا ، فقد وجدت اليوم أسرة كنج فى هرج ومرج ، وأخبرتنى

ابنتهم الصغيرة أن أخاها الأكبر أتى فعلة شنعاء ، طرده أبوه على أثرها من البيت ، وسمعت نحيب مسز كنج وصياح مستر كنج ، وعندما مرت بي بنتاهما الكبيرتان جريس وآمي ، التفتتا إلى الناحية الأخرى حتى لا أرى عيونهما التي قرحها البكاء . ولم أسأل بطبيعة الحال عما حدث، فليس من الأدب أن أتطفل على شئون الغير ، ولكني حزنت من أجل هذه الأسرة ، وحمدت الله أن ليس لنا أخ يأتي شروراً تشين العائلة .

فهزت آمي رأسها هزة الحكيم المحنك وقالت :

— حدث اليوم في مدرستنا ما يشبه ذلك ، فقد حضرت سوزي بيركنز وفي إصبعها خاتم أحمر اللون ، وددت لو كان لي مثله لأزهى به على أترابي ، ولكن هذا أمر آخر . المهم أن سوزي جلست في الفصل ترسم صورة لمدرسنا مستر دافيز ، وجعلت له فيها أنفاً هائلا ، وظهراً أحدب ، وأخرجت من فمه كلاماً يقول فيه « عيني عليكن أيتها الفتيات » وبينما كنا نضحك من الصورة الهزلية ، إذا بعين مستر دافيز تقع علينا فعلا . فاستدعى سوزي إليه ، وأمرها أن تحضر رسمها معها . وكادت المسكينة تجن لفرط فزعها ، ولكنها اضطرت أن تذهب إليه ، وبين يديها دليل جريمتها، فشد أذنها ، ثم جرّها إلى المنصة ، وأمرها بالوقوف فوقها نصف ساعة تحمل الصورة بحيث يراها تلميذات الفصل كلهن. تصوري هذه القسوة والبشاعة ! أعتقد أن أخطاء المدرسة أشد خطراً وأعمق أثراً من أي خطأ في الحياة .

سألتها چو :

— ألم يضحك البنات لما أصابها ؟

أجابت آمى :

— بل انكمشن كالفيران ، وغلبت الدموع سوزى ، فبكت ما شاء لها البكاء وعندئذ رثيت لحالها ، وعرفت أن خواتم العالم كله لا تعوضها عن إهانتها البالغة ، ولوكنت فى مكانها ما نسيت هذه اللحظة طول حياتى.

وتناولت تطريزها ، تعمل فيه مطمئنة إلى سموها على مثل هذه المواقف المخجلة .

قالت بث ، وهى ترتب أدوات التطريز التى اختلطت فى سلة چو :

— نسيت أن أحدثكم على العشاء بما رأيته هذا الصباح ، عندما ذهبت إلى السوق أبتاع بعض لوازم حنة ، فقد رأيت مستر لورنس العجوز فى متجر الأسماك . ولكنى حرصت على الاختفاء وراء برميل كبير حتى لا يرانى . ودخلت حينئذ امرأة فقيرة تحمل دلواً به مكنسة وفرشاة ، وسألت صاحب المتجر أن يسمح لها بتنظيف المكان لقاء قطعة من السمك تطعم بها أطفالها الجياع . وكان البائع مشغولا بعمله ، فصرفها بخشونة ، فاستدارت المرأة إلى الباب وعلى وجهها أبلغ أمارات الحزن واليأس . وفى هذه اللحظة رأيت مستر لورنس يأخذ من المتجر سمكة كبيرة ، ويعطيها إياها ، فاختطفتها من يده فرحة مسرورة ، وخرجت تحتضنها وتقول : « سأسرع بطهيها لأطفالى الجياع » .

وشعرت أن لمستر لورنس مكاناً فسيحاً فى الجنة ، فليس أجمل من أن ندخل السعادة على قلوب المحرومين .

وعندما انتهت بث من قصتها ، التفت أخواتها إلى أمهن ، وطلبن إليها أن تروى لهن بدورها خبراً ، فقالت بعد تفكير قليل ، وقد بان الجد على وجهها :

— بينما كنت أعمل اليوم فى تفصيل ملابس الجنود بدار الجمعية ، حملتنى أفكارى إلى والدكن فاستبد بى القلق على حياته ، وتمنيت إلى الله أن يحفظه من كل سوء ، حتى لا نعيش بعده فى وحدة وعجز . وما كان يصح أن أفكر هكذا ، ولكن قلقى عليه أخرجنى عن حكمتى . ودخل رجل مسن يطلب بعض المهمات ، فرأيت فى وجهه مظاهر التعب والفاقة والقلق ، وأردت أن أسرى عنه فبدأته الحديث قائلة :

— ألك أولاد فى الجيش ؟

أجاب بهدوء :

— نعم ياسيدتى ، أخذ الجيش منى أربعة أولاد ، قتل منهم اثنان ، وأسر الأعداء الثالث ، أما الرابع فجريح فى مستشفى واشنطن . وقد جئت الآن أطلب له المهمات .

— وانقلبت شفقتى عليه احتراماً له فقلت :

— لقد ضحيت كثيراً من أجل وطنك .

قال :

— لم أضح أكثر من غيرى ، إنه الواجب ياسيدتى ، وقد كنت أتمنى أن أحارب فى الجبهة دفاعاً عن وطنى ، ولكنى عجوز مريض لا أصلح للقتال ، ولذلك قدمت أولادى عوضاً عنى ، ولست أبتغى من وراء ذلك شكراً أو جزاء" .

—وكان يتكلم بمرح كأنه سعيد بتضحيته ، وشعرت بالخجل من نفسى ، وكرهت أن أقدم للوطن رجلا واحداً، ثم أطلب من الله سلامته . كنت أظن أننى قدمت بزوجى كثيراً ، فتبينت خطأى أمام ذلك الأب الباسل الذى أعطى الوطن راضيا أربعة أولاد ، ذهب ثلاثة منهم ، والله يعلم بمصير رابعهم الجريح . وهانت على تضحيتى عندما تذكرت أن لى بنات حبيبات يؤنسن وحدتى ، ويذهبن وحشتى ، وإنها لثروة طائلة من السعادة . وأعطيت الرجل هدية طيبة ، ومنحته بعض المال شاكرة له الدرس الخلقى الذى تعلمته عنه .

وساد السكون برهة ، ثم قالت چو :

— علينا بقصة أخرى يا أماه ، يكون لها مغزى جميل كهذه ، فإنى أحب أن أستعيد فى وحدتى ما تقولين ، بشرط أن يكون حقيقيا وليس فيه وعظ كثير

فابتسمت مسز مارش ، وبدأت لفورها قصة أخرى ، وكانت تعرف ما يعجب سامعاتها الصغيرات ، قالت :

— إنها قصة أربع فتيات ، أنعم الله عليهن بحاجتهن من طعام وشراب

وثياب ، وكذلك أنعم عليهن بوالدين طيبين ، وأصدقاء مخلصين ، وبالرغم من كل هذه النعم لم يكن البنات راضيات . . .

وهنا التفتت السامعات بعضهن إلى بعض ، ثم انحنين على تطريزهن يشتغلن فيه بجد واجتهاد .

استرسلت الأم فى حديثها فقالت :

— كن فى الحقيقة بنات طيبات ، يتُقن إلى بلوغ الخير ، ولكنهن أخطأن الطريق إليه لسبب ما ، وانسقن وراء مطالب الدنيا الغرور ، فنسين ما أنعم الله عليهن به ، وتطلعن إلى مزيد من الترف والرخاء . وزايلتهن السعادة ، فذهبن إلى عجوز يطلبن منها طلسماً يفتح أمامهن أبواب الهناء ، فقالت لهن : إذا أعوزكن رضا النفس ، فتذكرن نعم الله عليكن ، وعددن ما تمتزن به على غيركن ممن هم أقل منكن حظاً ، تأتيكن السعادة مسرعة ، وتتفتح لكن أبواب السلام .

وهنا رفعت چو رأسها بسرعة ، كأنها تريد أن تتكلم ، ولكنها عدلت عن رأيها حتى تنتهى أمها من القصة .

ومضت الأم فى حديثها تقول :

— وكن فى الحقيقة بنات عاقلات ، فأخذن بنصيحة العجوز ، وعملن بمشورتها ، فإذا بالسعادة تأتيهن غامرة : فقد كشفت إحداهن أن المال لا يحمى بيوت الأغنياء من العار ، وتبينت الثانية أنها على فقرها أسعد ألف مرة من عمة ثرية مريضة ، وعرفت الثالثة أنها إذا كانت

تتعب وتشقى فى كسب رزقها فتعبها وشقاؤها أكرم وأفضل من مذلة السؤال ، وتعلت الرابعة أن الخواتم الحمراء الثمينة لا تعوض خسارة الإنسان فى الأخلاق .وهكذا انبلجت الحقائق أمام البنات ، فأقلعن عن الشكوى والتذمر ، ورضين بنصيبهن فى الحياة ، وبدأن سيرة جديدة عطرة لابطر فيها بنعمة الله .

صاحت ميج بأمها تقول :

ــ والله إنها لمهارة يا أماه ، أن تشهرى قصصنا أسلحة فى وجوهنا ، وتقلبيها إلى حكم وعظات .

وقالت بث فى تأمل وتفكير :

ــ إنى أحب هذه العظات ، لأنها تذكرنى بما كان يقوله لنا أبى .

وقالت آمى معجبة بالمغزى الحسن :

ــ ليس من طبعى أن أشكو كثيراً ، ولكنى سأضاعف من اليوم حذرى ، فقد كان فيما أصاب سوزى درس لن أنساه .

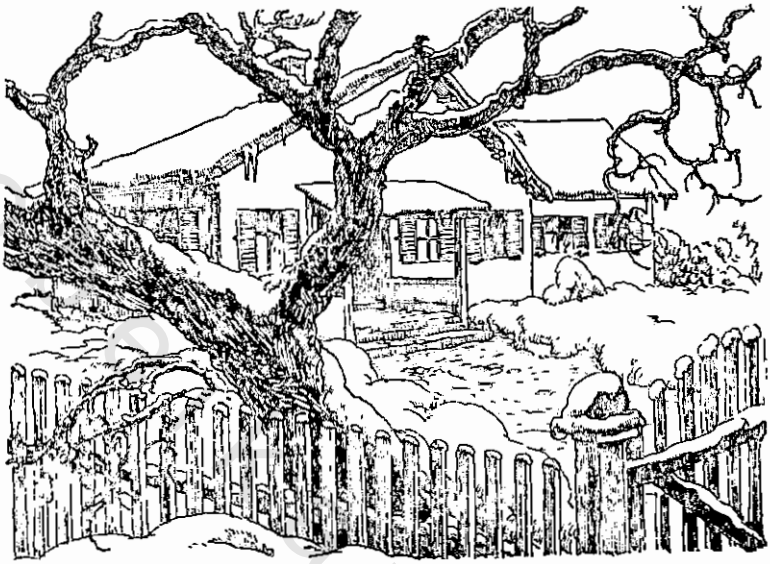

الفصل الخامس
حقوق الجار

فى عصر أحد الأيام ، دخلت چو الردهة ، وهى تلبس حذاءها الطويل المطاط ، وتتدثر بمعطف قديم سميك ، وكانت تحمل فى إحدى يديها مكنسة ، وفى الأخرى مجرفة ، فسألتها أختها ميج :

ـ ما وراءك يا چو ؟

أجابت بخبث :

ـ سأخرج فى رياضة قصيرة .

قالت ميج وهى ترتجف برداً :

— ألم تكفك رياضة الصباح ؟ لقد سرنا طويلا مرتين ، والبرد الآن شديد فى الخارج فأنصحك أن تبقى معى هنا ، حيث الدفء والجفاف .

قالت :

— وفرى عليك نصيحتك ، فلست قطة كسولا أقضى اليوم كله ساكنة فى البيت ، ثم إننى مشغوفة بالمخاطرات ، وسأخرج الآن بحثاً وراءها .

وتركتها ميج تفعل ما تشاء ، راضية لنفسها بالجلوس إلى جانب النيران وبين يديها قصة «ايفانهو» ، وانصرفت چو إلى الخارج تشق طريقها بين الثلوج المتراكمة فى الحديقة. ولم تكن الثلوج قد تماسكت بعد ، فلم يكن من العسير عليها أن تشق طريقاً بمجرفتها ومكنستها ، وغرضها من ذلك أن تهيئ لبث أسباب النزهة اليومية فى صحبة دماها المشوهات .. وكان منزل ل مارش يقع فى ضواحى المدينة ، حيث تمتد الأحراش ، وتكثر الحدائق والحشائش الخضراء ، وكان بيتاً أكسبه الشتاء لونا بنيا ، عبث الصقيع بحديقته ، فجردها من زهورها وخضرتها . وفى نهاية الحديقة سياج قصير على الجانب الآخر منه قصر مستر لورنس العجوز ، وكان القصر جميل البناء تدل مظاهره على اكتمال وسائل الراحة والرفاهية فيه ، فمن حظائر كبيرة للعربات ، إلى مسطحات سندسية خضراء ، إلى بيوت زجاجية تحوى أجمل الزهور. وعندما تنفرج الستائر قليلا عن نوافذه ، يستطيع الناظر إليه من الخارج أن يرى الرياش العظيم ، والأثاث المريح .

ولكن رغم هذه الميزات العديدة ، كان البيت يبدو خلواً من الناس. فلا وجه يطل من نوافذه ، ولا طفل يلعب فى حديقته ، ولا ضجيج يوحى بالأنس والبهجة ، وهو أمر طبيعى ما دامت الأسرة قد اقتصرت على الجد وحفيده ، والأصدقاء القليلين الذين يطرقون أبوابه .

وكانت چو بطبعها ذات خيال واسع حى ، فكانت تعتبر بيت لورنس قصراً مسحوراً يمتلئ بالمتع والمسرات التى لا يمكن أن توجد فى مكان غيره . وكم تاقت نفسها إلى رؤية ما فيه من سحر وعظمة . وكم تمنت أن تتعرف بلورنس الصغير الذى تدل مظاهره على أنه يرحب بمعرفتها ولكنه لا يعرف من أين يبدأ صداقته معها . ومنذ تلاقيا فى ليلة المرقص ، رسمت خططاً كثيرة لاكتساب صداقته ، فلم يشأ القدر أن تتحقق واحدة منها ، إذ اختفى الصبى عن عينيها فى المدة الأخيرة ، حتى ظنت أنه قد سافر إلى مكان ما . وظلت الحال على هذا المنوال ، إلى أن خرجت آمى وبث إلى الحديقة ذات يوم ، تلهوان بكرات تصنعانها من الجليد وتتراشقان بها فى عبث ومرح ، وعندئذ رأت چو وجه الصبى يطل من النافذة العليا على أختيها وفى عينيه شوق مكبوت إلى اللهو معهما . فقالت تحدث نفسها :

إن هذا الصبى فى وحدة قاتلة ، وجده العجوز يجهل صالحه فيحرمه من حريته ، ويغلق الأبواب دونه . إنه فى حاجة إلى صحبة طيبة ورفاق يمتلئون شباباً وحيوية ، وتحدونى رغبة شديدة فى أن أزور السيد

العجوز ، وأرشده إلى مافيه خير حفيده .

وأعجبت چو بالفكرة الجريئة ، ولكنها احتفظت بها حتى تأتى الفرصة المناسبة .

وفى عصر ذلك اليوم البارد ، الذى رأتها فيه ميج تخرج إلى الحديقة بمكنستها ومجرفتها ، كانت چو قد قررت أن تفعل شيئاً ، بعد أن رأت مستر لورنس العجوز يستقل عربته وينصرف عن البيت لقضاء بعض الشئون ، فنزلت إلى الحديقة تمهد طريقاً فى الجليد يتجه نحو السياج ، فلما انتهت من مهمتها ، وقفت تجيل بصرها فيما حولها . وكان كل شىء هادئاً ساكناً ، فستائر القصر مسدلة ، وخدمه لا أثر لهم ، ولم تقع عينها إلا على الصبى لورنس وهو يرسل النظر ساهماً من وراء زجاج النافذة وقد أسند رأسه إلى يده . قالت لنفسها :

— يا للأسى ! إن الصبى يقبع فى البيت وحيداً مريضاً فى مثل هذا اليوم العبوس ، سأرميه بكرة من الجليد ، لألفت نظره ، فأحييه .

وجمعت قبضة من الجليد الناعم ، وشكلتها فى كرة صغيرة ، ثم ألقت بها إلى النافذة ، فالتفت الصبى نحوها ، وذهب شروده عنه ، وافتر ثغره عن ابتسامة مشرقة . وألقت إليه بتحيتها ضاحكة ، ولوحت له بمكنستها ، وصاحت تقول :

— كيف حالك ؟ أمريض أنت ؟

وفتح لورى النافذة ، وقال فى صوت مبحوح :

ـ قد أصابنى برد شديد ، أقعدنى الفراش أسبوعاً ، ولكنى اليوم أحسن حالا .

قالت :

ـ يؤسفنى أن تمرض ، ولكن ماذا تفعل بنفسك طوال الوقت ؟

قال :

ـ لا شيء ، إن البيت فى وحشة القبور .

قالت :

ـ ألا تقرأ كتاباً ؟

قال :

ـ منعونى من القراءة حتى أسترد عافيتى .

قالت :

ـ ألا تجد من يقرأ لك ؟

قال :

ـ جدى يقرأ لى أحياناً ، ولكن كتبى لا تروقه ، وأكره أن أثقل على رائدى « بروك » .

قالت :

ـ ألا من صديق يقرأ لك ؟

قال :

ـ ليس لى صديق فى هذا البلد ، وأخشى إن دعوت فتياناً ،

— يصدعون رأسى بضجيجهم وصخبهم .

قالت :

— إن البنات هادئات بطبعهن ، ولعبة التمريض محببة لهن ، أفلا من صديقة تقرأ لك وتسليك ؟

قال :

— لا أعرف فتاة واحدة ، مع الأسف .

قالت :

— ولكنك تعرفنى

ثم ضحكت وتوقفت عن الكلام ، فصاح بها فرحاً :

— صدقت ، فهلا تكرمت بالحضور قليلا ؟

قالت :

— لست بنتاً هادئة كما تعتقد ، ولكن يسرنى أن ألبى الدعوة إذا أذنت لى أمى بذلك . فأغلق نافذتك ، حتى أستأذنها .

وأسندت مكنستها إلى كتفها ، وسارت إلى البيت بخطى واسعة ، وهى تتساءل عما تقوله أخواتها عندما تروى لهن ما حدث .

وهرع لورى يستعد للقاء الفتاة فرحاً بحضورها ، وكان سيداً مهذباً كما وصفته مسز مارش ، فمشط شعره ، وغير بنيقته ، ثم عكف على الحجرة ينظمها بنفسه ، رغم وجود ستة خدم يقفون على خدمته . وسرعان ما علا رنين الجرس فى البيت ، وسمع صوتاً يسأل عن « مستر

لورى » ثم أقبلت عليه الخادم تعلن فى دهشـــة بالغة قدوم سيدة صغيرة .

قال لورى وهو يتجه إلى الردهة ليقابل چو :

— إنها مس چو ، فأرجو أن ترشديها إلىّ .

ودخلت عليه چو فى بسمة هادئة ، وكانت تحمل فى إحدى يديها صحناً ، وفى اليد الأخرى قطيطات بث الثلاث . قالت بحماسة :

— جئتك بكامل عدتى وعتادى ، ووالدتى تقرئك السلام وقد سرها أن أزورك وأسليك ، وفى هذا الصحن فطائر صنعتها ميج ، ويسرها أن تتذوقها لتقتنع بمهارتها ؛ أما بث فقد أصرت أن أحمل إليك قطيطاتها عسى أن تجد فيها شيئاً من التسلية . وكنت أخشى أن تضايقك القطيطات ولم أكن أريد أن أحضرها معى ، ولكن قلبى لم يطاوعنى على إيلام بث إذ كانت شديدة الرغبة فى أن تسهم بنصيب من الترفيه عنك .

وزايل لورى خجله الشديد ، فضحك من القطيطات ، وأقبل على زائرته يحدثها فى غير تردد أو حرج .

وكشفت چو الغطاء عن الصحن ، فظهرت الفطائر الشهية مزينة بزهور من آمى ، فقال باسماً :

— إن منظرها جميل ، وحرام أن أفسد هذا الجمال بالتهامها .

قالت :

— إنها هدية بسيطة ، وقد أردنا بها أن نعبر عن ودنا لك . فاطلب

إلى خادمك أن تحفظها لك حتى يحين موعد الشاى . هذه فطائر بسيطة ، وستجدها سهاة الهضم ، شهية المذاق .

وتلفتت حولها تتأمل الغرفة وقالت :

— يا للحجرة المريحة !

قال :

— إنها بالفعل مريحة ، ولكنها فى حاجة إلى التنظيم ، والخادمات هنا فى غاية الكسل ، ولست أعرف كيف أجبرهن على العمل ؟

قالت ، وهى تنهض من مكانها :

— أنا أرتبها لك فى دقيقتين ، فالرماد أمام المدفأة تزيله الفرشاة هكذا ، وهذه الأشياء يستقيم شكلها هكذا ، والكتب توضع هنا ، والزجاجات فى الناحية الأخرى ، وأفضل أن أدير الأريكة حتى لاتواجه الضوء ، وفى رأيى أن وسائدها محشوة أكثر مما يجب . والآن . نظمت الغرفة وانصلح كل شىء .

وكانت على حق ، فقد استطاعت فى خلال حديثها المرح أن تضع الأشياء فى مواضعها ، فإذا بالغرفة تبدو جميلة أنيقة مريحة . ووقف لورى يتبعها بأنظاره صامتاً ، فلما انتهت من عملها ، ودعته إلى الجلوس على الأريكة ، ندت عنه تنهدة عامرة بالرضا . قال يشكرها :

— جميل منك أن تفعلى هذا كله ، وقد رتبتها كما أريد تماماً . هلا تفضلت بالجلوس على هذا المقعد الكبير ، وسمحت لى أن أسلى ضيفتى ؟

قالت :

ـ بل أنا أسليك ، فهل تحب أن أقرأ لك ؟

والتفتت نحو مجموعة كبيرة من الكتب ، فقال لها :

ـ شكراً ، فقد قرأت هذه الكتب كلها ، وأفضل أن نتبادل الحديث إذا شئت .

قالت :

ـ فى مقدورى أن أتكلم طول النهار ، وتقول بث إننى متى بدأت فمن العسير أن أنتهى .

سألها باهتمام :

ـ من منكن بث ؟ أهى الفتاة الصغيرة ذات الخدود الوردية ، التى تقضى معظم الوقت فى البيت ، وتخرج أحياناً وفى يدها سلة صغيرة ؟

أجابت :

ـ نعم ، إنها فتاة مدهشة ، وأنا أحبها من صميم قلبى .

قال :

ـ والحسناء هى ميج؟ وذات الشعر المجعد هى آمى على ما أعتقد ؟

قالت چو :

ـ كيف عرفت ؟

واحمر وجه لورى خجلا ، ولكنه أجاب فى صراحة :

ـ كثيراً ما أسمعكن تنادين بعضكن بعضا ، وأراكن أحياناً تتنقلن بين أرجاء البيت ، وعندما تتركن نافذة البهو مفتوحة ، وتضئن الأنوار فى الداخل ، أشاهدكن تجلسن مع والدتكن حول المائدة ، فيخيل إلى أننى أتأمل لوحة زيتية رائعة . إنى أقضى معظم الأوقات وحيداً ، وقد فقدت والدىّ منذ زمن طويل ، وحرمت متعة الأسرة ، وعندما أرى ستائركن مرفوعة ، يسوقنى الإغراء إلى التطلع نحوكن ، فأستمحيكن عذراً لجرأتى .

وانحنى على الموقد يحرك نيرانه ، فرأت چو فى وجهه مظاهر تأثر بالغ ، يحاول جاهداً أن يخفيه ، وكانت الفتاة بطبعها طيبة صريحة ، فآلمها أن تقتله الوحدة ، وهى بأمها وأخواتها سعيدة مرحة ، قالت فى صوت ناعم يفيض بالحرارة والحنان :

ـ لن نسدل الستائر بعد اليوم ، ويسرنا أن تتطلع إلينا متى شئت ، ورأيى أن تزورنا فى بيتنا ، وتشاركنا فى جلساتنا ، وسوف تعجب بوالدتى كل الإعجاب ، لأنها امرأة عظيمة بمعنى الكلمة . ولن تندم على زيارتنا ، فستغرقك والدتى بأكوام من الخبز ، وتغنى لك بث إذا أردت ، وترقص لك آمى فى خفة الطيور ، وسأضحكك أنا وميج على معدات مسرحنا الطريف ، وهكذا نقضى معاً أمتع الأوقات وأبهجها . ولكن أيسمح لك جدك بزيارتنا ؟

قال ، وقد ازداد وجهه إشراقاً :

ـ أظنه يوافق إذا طلبت إليه والدتك ، فهو طيب رغم مظهره الخشن ، ولا يمنعنى من أن أفعل ما أريد ، وكل ما يخشاه أن أثقل على الأغراب .

قالت :

ـ لسنا أغراباً ، إنما نحن جيران ، ولن تثقل علينا بزيارتك ، وقد كنا نود معرفتك من زمن طويل ، وقمنا فى سبيل ذلك بمحاولات كثيرة . نحن أسرة ودود ، ومع أننا نزلنا هذه البقعة من عهد قصير ، فقد صرنا أصدقاء لأهل الحى كله .

قال :

ـ إن جدى يعيش مع كتبه فقط ، ولا يهتم بما يحدث فى الخارج ، ورائدى لا يسكن معنا ، ولذلك لا أجد رفيقاً أخرج معه ، فأضطر إلى البقاء فى البيت وحيداً معظم الوقت .

قالت :

ـ لست أتفق معك فى هذه السياسة ، ورأيى أن تزور وتزار ، حتى يزداد أصدقاؤك ، وتتوافر لك أسباب الترفيه ، ولا تخش الخجل ، فإنه مع المثابرة يزول .

واحمر وجه لورى مرة ثانية ، ولكنه لم يغضب من كلامها ، فقد كانت ملاحظتها الجريئة ، عامرة بالعطف والحنان .

قال يغير الموضوع :

ـ أتحبين مدرستك ؟

أجابت :

ـ إنى لا أذهب إلى المدرسة ، لأننى رجل أء . . . أقصد فتاة أعمال وأشتغل وصيفة لعمة عجوز ثائرة المزاج .

وفتح الفتى فمه يسألها أمراً ، ولكنه أمسك عن الكلام قبل أن ينطق به خشية أن تظن به التطفل .

وأعجبت چو بأدبه ، ولم تر بأساً من أن تسليه قليلا بأحوال عمتها ، فشرعت تصف له العجوز الثائرة ، وكلبها المدلل السمين ، وببغاءها التى تتقن الحديث باللغة الإسبانية ، ثم مكتبتها العامرة بأجمل المؤلفات والمصنفات . وسر الفتى بحديثها سروراً بالغاً ، فلما روت له ما حدث يوم حضر سيد عجوز أنيق يخطب عمتها ، فغافلته الببغاء الخبيثة ، واختطفت شعره المستعار من فوق رأسه الأصلع ، استلقى لورى على ظهره مقهقهاً ، وسالت الدموع على خديه لفرط الضحك ، فأطلت إحدى الخادمات برأسها من الباب ، تطمئن على سيدها الصغير .

ورفع الفتى إليها وجهاً ضاحكاً وقال :

ـ يالها من قصة ، امض فى الحديث بالله عليك ، فقد أفادنى الضحك كثيراً .

ومضت چو فى حديثها ، وقد طربت لنجاحها العظيم ، فقصت عليه أخبار تمثيلياتها ، وأنباء خططها ، وأحوال عالمها الصغير ، الذى

تعيش فيه مع أخواتها آمنة ، ثم انتقل الحديث إلى الكتب ، فوجدت لمزيد سرورها ، أنه يحب القراءة أكثر مما تحبها .

قال لها الفتى ، وهو ينهض من مجلسه :

— إذا كنت تحبين الكتب إلى هذا الحد ، فهيا بنا إلى غرفة المكتبة ولا تخشى شيئاً ، فجدى ليس بالبيت .

قالت فى اعتزاز بشجاعتها :

— لست أخشى أحداً .

فنظر إليها نظرة ملؤها الإعجاب ، وتصور ما قد يحدث إذا تصادف أن اصطدمت مثل هذه الفتاة الجريئة بجده وهو فى ثورة من ثوراته . ولكنه قال :

— أعتقد ذلك فلست ممن يخاف الناس .

وكان البيت دافئاً ، فسار بها لورى من غرفة إلى غرفة ، وهى تتأمل ما حولها باهتمام شديد ، حتى وصلا إلى حجرة المكتبة ، فما إن ولجت جو أبوابها حتى صفقت بيديها طرباً ، على عادتها كلما رأت شيئاً يعجبها . وكانت الجدران مغطاة برفوف انتظمت عليها مئات الكتب والمؤلفات ، وأركانها مزينة بالتماثيل والصور ، وكان فيها — فضلا عن ذلك — خزائن زجاجية ، تحوى نقوداً وتحفاً تاريخية ، وتحيط بهذه الخزائن مقاعد وثيرة وموائد أنيقة ، وكان أجمل ما فى الغرفة كلها مدفأة واسعة ، صنعت من القرميد المنقوش .

وتنهدت چو ، وهى تغوص فى أعماق مقعد مكسو بالمخمل الناعم ، وجعلت ترسل النظر إلى ما حولها بإعجاب واغتباط . قالت :

ــ يا للثراء الممتع ! ثيودور لورنس ، أعتقد أنك أسعد أهل الدنيا كلها .

فهز الفتى رأسه ، وقد أسند ذراعيه إلى مائدة قبالتها ، وقال :

ــ لا يعيش الإنسان على الكتب وحدها .

وقبل أن ينتهى من حديثه ، تعالى رنين الجرس فى البهو الخارجى ، فقفزت الفتاة من مجلسها ، وقالت بخوف :

ــ إنه جدك . . . رحماك يا إلهى !

أجاب الفتى بخبث :

ــ ظننت أنك لا تخافين أحداً ؟ !

فقالت تتظاهر بالشجاعة ، وإن ظلت أنظارها عالقة بالباب :

ــ إنى خائفة قليلا ، ولست أرى فى الحقيقة داعياً لذلك ، فقد استأذنت والدتى فى زيارتك ، ولا أعتقد أن صحتك ساءت بحضورى .

قال الفتى :

ــ بل أفادتنى زيارتك كثيراً ، وأشعر بتحسن عظيم ، وكل ما أخشاه أن تكونى قد تعبت لكثرة الكلام ، ولكنها كانت قصصاً ممتعة حقًّا ، ولم يطاوعنى قلبى على قطعها .

ودخلت الخادم تعلن حضور الطبيب ، فقال لورى بلهجة :

ـ أيضيرك أن أتركك لحظة واحدة ، حتى أستقبل الطبيب ؟

أجابت :

ـ اذهب إليه ، ولا تبال بى ، فأنا سعيدة فى هذه الغرفة الساحرة .

وخرج الفتى ، فقامت چو تجول فى أنحاء الغرفة ، وتتسلى بما فيها ، إلى أن وصلت إلى لوحة زيتية كبيرة لمستر لورنس العجوز ، فوقفت تنظر إليها بتأمل شديد ، وسمعت الباب يفتح خلفها ، فقالت دون أن تدير رأسها :

ـ لست أراه وسيماً كجدى ، ولكنه يعجبنى ، فعيناه صريحتان ، وجبينه المقطب يفيض بالقوة والصلابة ، وأعتقد أننى لن أخاف منه إذا قابلته .

قال من خلفها صوت خشن :

ـ أشكرك يا آنسة .

ولبالغ دهشتها ، رأت مستر لورنس العجوز يقف وراءها ، فتخضب وجهها بحمرة الخجل ، وأسرعت دقات قلبها ، وعندما تذكرت ملاحظتها أمام صورته ، تملكتها رغبة ملحة فى أن تطلق ساقيها للريح ، وتعود إلى بيتها بأسرع ما تستطيع ، ولكنها كرهت أن تفعل ذلك ، حتى لا يتهمها أخواتها بالجبن ، ويضحكن منها .

واستقر رأيها على البقاء ، وشجعها على ذلك أن رأت فى عينى العجوز طيبة وحناناً ، لم تلمسهما فى صورته الزيتية قبل حضوره . قال

الجد ، فى صوت أكثر خشونة من ذى قبل :

ـ إذاً فأنت لا تخافينى يا آنسة ؟

قالت :

ـ ليس كثيراً ياسيدى .

قال :

ـ وترين جدك أكثر وسامة منى ؟

قالت :

ـ إلى حد ما ياسيدى .

ـ وجبينى المقطب يفيض بالقوة والصلابة ؟

قالت :

ـ أظن ذلك يا سيدى .

قال :

ـ ومع كل هذا أعجبك ؟

ـ نعم ، أنت تعجبنى يا سيدى .

وسر العجوز بحديثها ، فضحك ضحكة قصيرة ، وصافحها مرحباً ، ووضع إصبعه تحت ذقنها ، ورفع وجهها إليه يفحصه مليا ، قال ، وهو يومئ برأسه :

ـ لقد ورثت عن جدك أخلاقه وشكله ، وكنت أفخر بصداقته ،

لا لحسن معشره وحسب ، فقد كان أيضاً رجلا شجاعاً أمينا صادقاً .

وارتاحت الفتاة لكلامه كل الارتياح ، فزال عنها خوفها السابق ، وقالت :

ـ أشكرك ياسيدى .

سألها فجأة :

ـ ماذا كنت تصنعين بحفيدى ؟

أجابت :

ـ أردت أن أكون له جارة طيبة .

ثم روت له القصة من بدايتها إلى نهايتها ، وكيف أتت لزيارة لورى ، قال .

ـ أتظنين أنه يحتاج إلى صحبة مرحة ؟

قالت بلهفة :

ـ بلا شك ، ياسيدى ، إنه وحيد ، وصحبة الشباب تفيده ، وكلنا فتيات مع الأسف ، ولكن يسرنا أن نرفه عنه ما استطعنا ، فما زلنا نذكر الهدية الفاخرة ، التى بعثت بها إلينا فى ليلة العيد .

قال :

ـ لا . . . لا . . . إنها فكرة الصبى ، ولكن كيف حال المرأة الفقيرة ؟

قالت :

ـ تحسنت صحتها يا سيدى .

ثم شرعت تقص عليه فى عبارات سريعة أخبار آل هامل ، الذين بادرت أمها إلى مساعدتهم قبل الأغنياء . قال :

ـ إنها طريقة أبيها فى فعل الخير ، وقد أخذت عنه قلبه الكبير ، فأخبريها بأننى آت لزيارتها فى يوم قريب .

ودق الجرس فى هذه اللحظة ، فاستطرد الجد قائلا :

ـ حان موعد الشاى ، ونحن نتناوله مبكراً من أجل الصبى ، فابقى معنا ، واستمرى فى أن تكونى لحفيدى جارة طيبة .

قالت :

ـ كما تريد يا سيدى .

قال ، وهو يقدم لها ذراعه تستند إليه ، حسب التقاليد القديمة :

ـ لو لم أكن أريد بقاءك ، ما دعوتك إلى البقاء .

وسارت بجانبه إلى غرفة الشاى ، وعيناها تلمعان طرباً ، لما سوف تقصه على أخواتها عندما تعود إلى البيت . قالت فى نفسها :

ـ ترى ماذا تقول ميج ، فيما حدث اليوم ؟

هتف العجوز متعجباً :

ـ ماذا دهى الصبى ؟ !

فقد كان لورى يهبط السلم جرياً ، ثم توقف دهشاً ، عندما طالعه المنظر العجيب : منظر چو تستند إلى ذراع جده المخيف .

نظرت الفتاة بانتصار ، فقال لجده معتذراً :

ـ لم أكن أعلم بعودتك ياسيدى .

قال الجد :

ـ فهمت ذلك من جريك على السلم ، تعال معنا إلى الشاى ، وكن مضيفاً كريماً أيها الصغير .

ثم جذب شعر الفتى مداعباً مدللا ، وتقدم بچو نحو غرفة المائدة ، وكان لورى يسير خلفهما ، ويقوم بحركات فكاهية ، كادت الفتاة تنفجر معها ضاحكة . وجلس الثلاثة معاً ، فلم يتكلم الجد كثيراً ، وقنع بارتشاف أربعة أقداح من الشاى صامتاً ، وكان طول الوقت ، يراقب الصغيرين فى مرحهما ، ويصغى إلى أحاديثهما البريئة المسلية ، فلم يفته ذلك التغير العجيب الذى انتاب لورى : فقد كان الصبى مشرق الوجه ، متورد الوجنتين ، يتحدث بنشاط وحيوية ، ويضحك عن سرور حقيقى لا يشوبه التصنع . قال مستر لورنس فى نفسه :

ـ صدقت الفتاة فيما قالته لى ، فالصبى يحتاج إلى ألفة ، وأتوقع له خيراً فى صحبة أولئك الفتيات . فقد أعجبته چو بصراحتها وخشونتها ، وأدرك أنها تفهم نفسية الصبى ، كما لو كانت صبيا مثله .

ولو كان آل لورنس من أولئك « المتغطرسين » على حد تعبير چو ، ما أقبلت الفتاة على معرفتهم ، أوسعت إلى صداقتهم ، إذ كانت تكره مثل هذا اللون من الناس ، وتشعر فى حضرتهن بمنتهى القلق ، ولكنها

لمست فى أسرة لورنس بساطة اجتذبتها إليهم مطمئنة راضية .

وعندما انتهت وجبة الشاى ، استأذنت چو فى الانصراف ، ولكن لورى استبقاها ، ليريها شيئاً جديداً ، ثم خرج بها إل بيت الأزهار ، فخيل إليها أنها تعيش فى حلم جميل ، فقد كان ذلك البيت الزجاجى قطعة من الفن الرفيع ، مماشيه ممهدة ، وأزهاره يانعة ، وجدرانه لامعة ، وأضواؤه خافتة ، وكرومه دانية القطوف . وانحنى لورى على الشجيرات يقطف أبهى زهورها ، حتى اجتمعت له باقة جميلة ربطها بشريط حريرى ، وقال فى غبطة وانشراح :

ــ أرجو أن تحملى هذه الباقة إلى والدتك ، واشكرى لها أن سمحت لك بزيارتى ، فقد كنت خير دواء لمرضى .

وعاد الاثنان إلى البيت ، فوجدا مستر لورنس يقف أمام المدفأة فى إحدى غرف الجلوس الكثيرة ، فاسترعى اهتمام چو معزف كبير ، سألت لورى فى إجلال واحترام :

ــ أتعزف عليه ؟

قال فى تواضع :

ــ أحياناً .

قالت :

إذاً اعزف لى مقطوعة ، فأنا أحب أن أسمع موسيقاك ، لأخبر بث .

قال :

ــ ألا تعزفين أنت أولا ؟

قالت :

ــ يؤسفنى ألا أستطيع ، فقد كنت أغبى من أن أتعلم العزف ، ولكنى أحب الموسيقى من كل قلبى ، ونغماتها تشجينى وتطربنى .

وعزف الصبى مقطوعة ، استمعت إليها چو ، وأنفها مدفون فى باقة الزهور ، ، وكان الصبى عازفاً ممتازاً ، فازداد تقديرها له ، وتضاعف احترامها لمواهبه . وتمنت لو أمكن بث أن تسمع عزفه المتقن ، ولكنها لم تجهر بأمنيتها هذه ، إنما أغرقته بمديحها وإطرائها ، حتى استبد به الخجل ، وتورد وجهه بدماء الحياء ، وانبرى جده إلى إنقاذه فقال :

ــ كفاك إطراءً له يا آنسة ، فإن المبالغة فيه مفسدة للأخلاق ، وربما كان عزفه جيداً ، ولكنى كنت أفضل أن يظهر براعته فيما هو أهم من الموسيقى . أذاهبة أنت ؟ إذاً ، دعينى أشكرك على زيارتك ، واحملى تحيتى لوالدتك ، ومساء الخير يادكتور چو!

وصافحها بعطف ، غير أنه كان يبدو ساهماً واجماً ، كما لو أن أمراً ضايقه ، فلما بلغت الفتاة ردهة البيت ، سألت لورى عما أغضب جده ، فهز رأسه ، وقال :

ــ كل ما فى الأمر أنه لا يرتاح إلى اهتمامى بالموسيقى .

قالت :

ـ ولماذا ؟

قال :

ـ لن أخبرك الآن ، وربما فعلت ذلك فى يوم من الأيام .

وسارت إلى الباب ، فقال لها :

ـ كنت أود أن أصحبك فى طريق عودتك ، ولكنى مريض كما تعلمين ، فخذى معك خادمنا چون .

قالت :

ـ لا داعى لذلك ، فلست طفلة صغيرة ، والمسافة بيننا وبينكم خطوات معدودات ، فإلى اللقاء ، وأرجو أن تعنى بصحتك .

قال :

ـ أعدك بذلك ، فهل تزورينى مرة ثانية ؟

قالت :

ـ إذا وعدت بزيارتنا عندما تشفى .

قال :

ـ أعدك بذلك .

قالت :

ـ مساء الخير يالورى .

قال :

ـ مساء الخير ياچو . . . مساء الخير !

جلست چو إلى أخواتها تحدثهن بما جرى فى بيت لورنس ، فاستنفدت العصر كله فى حديثها ، إلى أن انتهى رأيهن جميعاً إلى وجوب زيارة الجار الطيب ، فقد أثار حديث چو اهتمامهن ، وجعل كل واحدة منهن تشعر أنها ستجد فى البيت الكبير شيئاً يهمها ويسلبها ، فمرز مارش تحب أن تستعيد مع مستر لورنس العجوز ذكريات أبيها العزيز ، وميج مشوقة إلى رؤية بيت الأزهار ، وبث تحلم بالمعزف الكبير ، وآمى تتلهف على رؤية الصور والتماثيل .

قالت چو لأمها :

— ترى لماذا يكره مستر لورنس أن يهتم لورى بالموسيقى ؟

قالت :

— لست أدرى على وجه التحقيق ، وإن كنت أظن أن مرد السبب إلى ابنه ، والد لورى ، فقد تزوج إيطالية تحترف الغناء ، وكان الزواج على غير رغبة أبيه ، فغضب العجوز المتكبر ، ولم يرض بزيارة ابنه أو رؤيته سنين طويلة . وولد لورى فى إيطاليا ، وظل بها بعض الوقت ، فلما توفى والده ، أحضره جده إلى بيته واحتضنه ، ولم يكن الصبى قوى البنية ، فأحاطه مستر لورانس بكل ألوان الرعاية ، خشية أن يفقده كما فقد والده من قبل ، ولذلك ترينه إلى اليـــوم حريصاً يخاف على لورى من التعرض للبرد أو الاختلاط بالناس . ولقد ورث الصبى عن أمه حبها للموسيقى ، ولعل الجد يخشى أن يتخذها حفيده مهنة فى يوم من الأيام ،

ولا شك أن الموسيقى تذكر مستر لورنس بزوج ابنه الإيطالية ، التى لم يحبها أبداً ، مع أنها كانت امرأة طيبة ، فتثيره الذكرى وتغضبه .

قالت ميج بدهشة :

ــ يالها من قصة !

وقالت چو :

ــ ياللغباء ، لماذا لا يغدو لورى موسيقيا إذا كانت ميوله كذلك ؟ ولماذا ينغصون عليه حياته بإرساله إلى جامعة يكرهها ؟

قالت ميج ، وكانت عاطفية إلى حد ما :

ــ عرفت الآن السر فى عينيه السوداوين ، وشعره المجعد ، وذوقه السليم . إنه الدم الإيطالى ، والإيطاليون قوم مهذبون .

صاحت بها چو ، ولم تكن عاطفية كأختها :

ــ وماذا تعرفين عن عينيه السوداوين وذوقه السليم ؟ إنك لم تتحدثى إليه مرة واحدة .

قالت ميج :

ــ ولكنى رأيته فى الحفلة ، وسمعت ما رويته لنا عنه ، خصوصاً عندما شبهك بدواء ناجع ، إنها لباقة تدل على ذوق سليم .

قالت چو :

ــ كان يقصد هدية الفطائر .

قالت ميج :

ـ أنت ساذجة ياطفلتى ، لقد كان يقصدك أنت .

وكانت فكرة جديدة لم تطرأ لحو من قبل ، فاتسعت عيناها دهشة ، وقالت :

ـ أكان يقصدنى حقا . ؟

قالت ميج ، بلهجة الخبيرة المحنكة :

ـ أنت غبية لا تميزين الإطراء عندما يأتيك .

قالت چو :

ـ لا يهمنى الإطراء ، وأكون شاكرة إذا اقتصدت فى سخافتك ، فأخشى أن تفسدى على سرورى بزيارته . إن لورى صبى لطيف ، ويعجبنى منه خلق كريم . ولن أسمح بعبارات الإطراء أن تقف بيننا ، وأرجو أن نغدق عليه بالعطف لأنه يتيم ، لقد وعد بزيارتنا ، فهل تسمحين له بذلك يا أماه ؟

قالت الأم :

ـ بالرحب والسعة ، وأملى يا ميج ألا تفسدى جمال الصداقة البريئة بهذا الكلام ، ودعى الأطفال أطفالا أطول وقت مستطاع .

قالت آمى :

ـ إننى حقيقة فى الثانية عشرة من عمرى ، ولكنى لا أشعر بأننى طفلة ، فما رأيك يا بث ؟

وكانت بث ساهمة كعادتها ، تسبح بذهنها فى عالم الخيال ،

ولم تسمع كلمة من حديث أختها ، قالت :

ـ كنت أفكر فى لعبة الحجاج وكيف نمضى فيها إلى قصر الأمانى ، عبر الصعاب والآلام ، ويخيل إلىّ أنه بيت لورنس العامر بألوان المباهج والمسرات .

قالت چو ، وقد أعجبها تشبيه أختها :

ـ علينا أولا أن نشق طريقنا إليه .

obeikandl.com

الفصل السادس

« بث » فى قصر الأمانى

مضى بعض الوقت قبل أن تزور بنات مارش بيت لورنس ، وعندما دخلنه بعد عقبات ، وجدت بث أنه حقيقة « قصر الأمانى » . وكان مستر لورنس العجوز قد قام بزيارة الأسرة كما وعد ، فلقيته البنات بخوف ورهبة ، ولكنه جلس إلى أمهن يتذاكر معها سيرة أبيها فى الأيام الخوالى ، ويشير إلى صديقه القديم بلهجة الإعزاز والاحترام ، ثم داعب البنات وتحدث إليهن واحدة بعد واحدة ، فأنسن له ، وانقشعت الرهبة عن نفوسهن ، اللهم إلا بث التى اختارت بحيائها الشديد أن تبقى على

مبعدة ، بالرغم من محاولاته الكثيرة فى كسب ثقتها وودها .

وزالت العقبة الأولى بزيارة مستر لورنس ، وكانت العقبة الثانية فقرهن وثراء لورى ، فقد كن يشعرن بالحرج البالغ إذا بعث الصبى إليهن هدية لا طاقة لهن على ردها بالمثل ، ثم كشفت لهن الأيام مدى اعترافه بجميلهن عليه ، وتقديره لرعايتهن إياه ، واغتباطه البالغ بعطف مسز مارش التى كانت تعامله معاملة الابن العزيز . وقوت هذه الحقائق صداقتهن بلورى ، فذهب شعورهن بالحرج ، وتلاشى إحساسهن بالفوارق . وأصبح بيتهن المتواضع ملاذاً له يأوى إليه كلما أعوزته أسباب المسرة والهناء ، ولم يجد البنات غضاضة فى مبادلته الهدايا دون اعتبار كبير لقيمها المادية .

هكذا نمت صداقة جديدة ، وترعرعت سريعاً مثلما يترعرع النبات فى أرض طيبة ، ومضت الأيام مفعمة بدواعى السرور والتسلية : فقد أحبين لورى جميعاً ، وغمرنه بعطف خالص لا زيف فيه ولا اصطناع ، واستجاب الصبى لشعورهن النبيل ، فكان يؤمن بأنهن فتيات مدهشات عن جدارة واستحقاق ، ويجد فى رفقتهن البريئة متعة أنسته وحدة اليتم ووحشته . وسرعان ما ظهر أثرهن فى اتجاهاته، فإن حياتهن العامرة بالكد والكفاح فى طلب الرزق ، أورثته خجلا من دعته وفرغه ، واشتاقت نفسه أن يكون مفيداً مثلهن ، ولكن صداقتهن رغم ذلك شغلته عن كتبه ودروسه . فكان يهرب منها إلى بيت مارش ساعات كل يوم ،

مما اضطر معه رائده مستر بروك ، إلى إطلاع جده على الأمر . قال العجوز فى غير قلق :

— دعه يستمتع بعطلة طيبة ، تقويه على الدرس فيما بعد ، ولا تخش عليه ، فإن جارتى الطيبة ترى الصبى متعباً مجهداً ، وتعتقد أنه فى حاجة شديدة إلى الصحبة والمتعة والتسلية . ولا شك أنها على صواب ، وأظن أننى غاليت فى الحد من حريته ، فدعه بالله عليك يفعل ما يشاء ، ما دام سعيداً ، واطمئن إلى أنه فى سلام وأمان ، مع الأسرة التقية الطاهرة فلقد استفاد بحنان مسز مارش أضعاف ما استفاد بما فعلناه له طوال السنوات الماضية .

ومضى الوقت كأسعد ما يكون ، فى روايات تمثيلية ، ولوحات حية ، ونزهات فى الحقول ، وانزلاق على جليد الشتاء ، ثم أمسيات مرحة يقضيها لورى مع صديقاته فى غرفة الجلوس القديمة ببيت مارش ، وحفلات أنيقة تقام بقصر لورنس الكبير . وأتيح لميج أن تزور بيت الأزهار ، وتخرج منه وفى يدها باقات الأزهار ، والتهمت جو ما فى المكتبة الجديدة بنهم القارئة الجشعة ، وأضحكت السيد العجوز بنقدها الطريف للكتب . أما آمى فكانت تشبع هوايتها للرسم بنسخ الصور الجميلة المعلقة على جدران القصر . كل هذا ولورى يقوم بدور المضيف ، فى أسلوب السيد المهذب الكريم .

ولكن بث رغم تشوقها إلى المعزف الكبير ، لم تقو على جمع شجاعتها ،

لتزور « قصر النعم » كما كانت تسميه ميج . ولقد ذهبت يوماً مع ميج ، ولكن السيد العجوز . الذى لم يكن يعرف مدى حيائها ، حدق فى وجهها بشدة . وتطلع إليها من تحت حاجبيه الكثين ، وناداها بصوت عال ، فأفزعها بذلك كل الفزع . وفرت إلى بيتها هاربة ، وقالت لأمها إنها لن تذهب إلى القصر الكبير مرة ثانية ولو كان فيه معازف الدنيا كلها ، فلقد أفزعها العجوز حتى ارتجفت ركبتاها ، وأحست لفرط الرعب كأنها تكاد تسقط على الأرض . ولم يجد الإقناع فيها ، ولم تفلح الحجج فى إزالة مخاوفها ، إلى أن وصل الخبر بطريقة ما إلى مسامع مستر لورنس ، فعمل على إصلاح الأمر بنفسه ، وفى إحدى زياراته القصيرة لآل مارش ، وجه الحديث إلى الموسيقى بطريقة لبقة . وتكلم عن أشهر المطربين الذين رآهم على المسارح . وأجمل المعازف التى سمع بها ، ثم قص حوادث وقصصاً طريفة ، اجتذبت بث إليه من ركنها البعيد ، فتسللت تقترب منه خطوة خطوة . وكأن يداً خفية تدفعها إليه . وأخيراً وقفت وراء مقعده تصغى بشوق إلى حديثه ، فلم يبد مستر لورنس اهتماماً بوجودها . ولم يلق بالا إليها ، إنما جعل يتكلم عن لورى ومدرسيه ودروسه ثم قال فجأة كأن فكرة عرضت لذهنه بالمصادفة :

— يسرنى أن أهمل الصبى مرانته الموسيقية ، بعد أن انشغل بها إلى حد الهوس . ولكنى أخاف أن نفسد الإهمال المعزف . فهل أجد فى بناتك الصغيرات من تتفضل بالعزف عليه بين وقت وآخر ؟

وخطت بث إلى الأمام خطوة ، وقد ضمت يديها إلى صدرها ، حتى لا يدفعها السرور بهذا الخبر إلى التصفيق فى حضرة العجوز ، فقد كان الإغراء شديداً ، ومجرد التفكير فى استعمال المعزف يبهر أنفاسها .

وقبل أن تجيب مسز مارش ، قال مستر لورنس باسماً :

ــ ولن يقلق العازفة شىء ، فأنا أجلس بمكتبي فى نهاية البيت ، ولورى لديه ما يشغله ، وبعد الساعة التاسعة لا يقترب من غرفة الجلوس أحد من الخدم ، فان شاءت إحدى بناتك أن تأتى ، فأهلا بها وسهلا ، فى أى ساعة تروق لها .

ونهض عن مقعده كأنه يريد الانصراف ، فاستقر رأى بث أن تقول كلمة بعد أن أوقعها مستر لورنس فى شباك حيلته ، ولكن العجوز لم ينتظر حتى تتكلم ، وقال :

ــ أخبرى الفتيات بهذا الأمر ، فإذا رغبن بعد ذلك عن الحضور فلا بأس عليهن .

وهنا أمسكت يد صغيرة بيده الكبيرة ، ورفعت بث إليه وجهاً مفعماً بالشكر ، وقالت فى جد يشوبه الحياء :

ــ بل يرغبن فى الحضور كل الرغبة .

فسألها بصوت خفيض ، حتى لا يفزعها مرة ثانية :

ــ أأنت الموسيقية منهن ؟

قالت :

ـ أنا بث ، أحب الموسيقى من كل قلبى ، ويسرنى أن أعزف ببيتك ، إذا لم يسمع عزفى أحد .

وقالت متأدبة ، وجسدها يرتجف حياءً :

ـ وإذا لم يزعجك حضورى .

قال :

ـ لن تزعجى أحداً يا عزيزتى ، فالبيت خال معظم النهار ، وأكون شاكراً إذا حضرت فى أى وقت تشائين .

قالت :

ـ هذا كرم منك ياسيدى .

ونظر إليها بعطف بالغ ، فاحمر وجهها خجلا ، ولكنها لم تشعر بالخوف منه ، وضغطت بيدها الصغيرة على يده الكبيرة ، تعبر له عن شكرها فى صمت . وربت السيد العجوز بيده على شعرها ، ثم انحنى وطبع على جبينها قبلة ، قال بصوت خفيض لم يسمعه إلا بعض من يجلسون :

ـ كانت لى حفيدة لها مثل عينيك ، فليحفظك الله يا عزيزتى .

ثم قال لمسز مارش وهو يسرع بالانصراف :

ـ طاب يومك ياسيدتى .

وسرت بث بصنيع مستر لورنس سروراً لا مزيد عليه ، ولما كانت أخواتها فى الخارج ، وليس بالبيت من يعلم بالنبأ العظيم ، فقد طارت

جريا إلى أفراد أسرتها من الدمى الكسيحة ، وجعلت تروى لها كيف تفتحت لها أبواب الجنة على يدى جارهم العجوز . وغنت فى تلك الليلة كما لم تغن من قبل ، وعندما استسلمت للنوم كانت أصابعها طوال الليل تلعب على وجه أختها آمى كأنه المعزف المنشود .

وفى صباح اليوم التالى ، قبعت بث وراء النافذة ، حتى رأت مستر لورنس وحفيده يغادران البيت ، وعند ذلك استجمعت شجاعتها ، وبعد تردد طويل ، دخلت القصر من بابه الجانبى ، وسارت تسترق الخطى كفأر مذعور ، إلى غرفة الجلوس ، حيث يوجد المعزف الذى تحلم به . وكان على المعزف بعض كتب موسيقية ، سجلت فيها مقطوعات سهلة الأداء ، فأخذتها بأصابع مرتجفة ، وهى تتوقف بين لحظة وأخرى ، لتصيخ السمع خشية أن يكون أحد على مقربة منها . وعندما تأكدت أن البيت هادئ ساكن ، جلست إلى المعزف ، وما إن لمست أصابعها مفاتيحه ، حتى انقشع عنها خوفها تماماً ، ونسيت نفسها عن كل شىء فى غمرة نشوتها بأنغام الموسيقى الممتعة .

وظلت تعزف وتعزف حتى أتت حنة تدعوها إلى تناول الغداء ، ولكن غبطتها كانت قد ذهبت بشهوتها للطعام ، فجلست مع أخواتها إلى المائدة تبتسم ولا تصيب من صحنها شيئاً .

وتوالت زياراتها لغرفة الجلوس ، وكانت فى ذهابها وإيابها ، أشبه بطيف موسيقى يقبل ويدبر ولا من يراه .

ولم تشعر قط بأن مستر لورنس ، كثيراً ما كان يفتح باب مكتبه بهدوء بالغ ، ليختلس السمع إلى الأنغام الكلاسيكية ، التى يفضلها على غيرها من الأنغام ! وكذلك لم تر لورى ، وهو يقف خارج الباب حارساً أميناً ، يحميها من الانزعاج ويرد عنها تطفل المتطفلين . وكانت تجلس إلى لورى فى بيتها أحياناً ، فتجد فى أحاديثه العابرة عن الموسيقى ، خير مرشد وموجـــه ، ولكنها لم تكن تعرف أن الكتب التى تجدها على المعزف ، لم تترك فى مكانها اعتباطاً ، إنما كان يضعها لورى بيده خصيصاً لها ، ويختارها بنفسه بعد طول تفكير وتدقيق ، وعاشت بث فى نعيم مقيم ، ولعل رضاها بهذا النعيم وتقديرها له ، كانا فاتحة لخيرات أخرى ما زالت الأيام تخفيها فى جعبتها . قالت لأمها بعد انقضاء أسابيع على بداية هذه الحوادث :

ــ أريد يا أماه أن أصنع خفًّا لمستر لورنس ، فقد، غمرنى بكرمه ، وأحب أن أعبر له عن شكرى وامتنانى .

فقالت مسز مارش ، التى لم تكن ترد لبث طلباً ما استطاعت :

ــ إنها فكرة طيبة ، وسيسره أن تعبرى له عن شكرك بهذا الأسلوب اللطيف .

واشتركت ميج وچو فى مناقشة فكرة الهدية ، واجتمع رأى الأسرة على طراز الخف ، واشتريت لوازمه ،فى أسرع وقت ، ثم عكفت بث على صنعه ليلا ونهاراً ، وكانت فى عملها نشيطة دقيقة ، فلم ينقض وقت

قصير حتى انتهت من إعداد هديتها على أحسن وجه . وطوت الخف فى لفافة أنيقة ، واستعانت بلورى على كتابة بطاقة الإهداء التى سترفقها بها ، ثم تسللت إلى القصر ذات صباح ، ووضعت هديتها على مكتب العجوز ، قبل أن يستيقظ من النوم .

وهدأت نفسها بذلك بعض الهدوء ، ولاذت ببيتها تنتظر النتائج ، ولكن يوماً كاملا مضى ولم يأتها خبر بوصول الهدية إلى صاحبها ، وانتصف اليوم الثانى بلا جديد ، فانتابتها المخاوف ، وخشيت أن تكون الهدية لم تقع من نفس العجوز موقعاً حسناً .

وخرجت فى العصر لبعض شأنها ، واصطحبت معها دميتها الكسيحة تفرج عنهـا ، فلما عادت إلى البيت ، استقبلتها أربعة رءوس تطل من النافذة فى انتظارها ، وصاح بها أخواتها مهللات مرحبات ، وسمعت صوتاً يقول لها :

ـ جاءتك رسالة من السيد العجوز ، فأسرعى بالدخول لتقرأيها

وصاحت أمى من النافذة تقول :

ـ لقد بعث إليك . . .

ولكن الجملة لم تتم ، فقد صفقت أخواتها من النافذة ، ليمنعنها من الكلام ، ودخلت بث ترتجف انفعالا ، فاستقبلتها أخواتها على باب البيت ، وقدنها إلى غرفة الجلوس فى مظاهرة مرحة .

هتفن بها فى صوت واحد :

ـ انظرى هناك . . انظرى .

وتطلعت بث إلى حيث أشرن بأيديهن ، فامتقع لونها لفرط الدهشة والسرور . فقد رأت فى ركن الغرفة معزفاً صغيراً جميلا ، وضعت على غطائه الأسـود اللامع ، رسـالة كتب على ظرفها ، « إلى الآنسة بث مارش » .

فشهقت بث . وأحست كأن قواها تخـور فجأة فاستندت إلى چو خشية أن تهزمها الحوادث المتتابعة المثيرة ، فتسقط على الأرض. قالت :

ـ أهذا المعزف لى ؟

أجابت چو ، وهى تناولها رسالة العجوز :

ـ أجل . . . إنه لك أيها الملك الصغير ، فقد بعث به إليك أطيب عجوز فى هذه الدنيا . هاك الرسالة والمفتاح .

ودفنت بث رأسها فى ثوب أختها چو ، وقالت لها بانفعال شديد :

ـ اقرئى الرسالة عنى ، إن المفاجأة تذهلنى وتعجزنى . . .

وفضت جو الرسالة ، وراحت تتلو ديباجتها ضاحكة :

« إلى الآنسة مارش .

« سيدتى الفاضلة . . .

وصاحت آمى وقد أعجبها الأسلوب التقليدى فى الرسالة :

ـ ليتنى أتسلم رسالة بهذه الديباجة الرائعة .

واستأنفت چو قراءة الرسالة فقالت :

« لبست فى حياتى خفوفاً لا عداد لها ، ولكن هديتك فاقتها جمالا وحسناً ، فقد عرفت كيف تختارين ألوانى المحببة ونقوشى المفضلة ، وثقى أن خفك الجميل سيذكرنى دائماً بصانعته الكريمة ، فاسمحى للسيد العجوز أن يعبر لك عن بعض شكره وامتنانه ، وتقبلى منه معزفاً عزيزاً . كان فى يوم من الأيام ملكاً لحفيدته المحبوبة التى فقدها صغيرة قبل سنوات. فتفضلى يا سيدتى بقبول وافر الشكر والامتنان .

ودمت لصديقك الوفى وخادمك المطيع

جيمس لورنس »

وكانت بث تصغى للرسالة ، وجسدها يرتجف لفرط الانفعال ، فقالت چو تخفف عنها :

— إنه شرف عظيم يا بث ، فقد حدثنى لورى بقصة هذه الحفيدة ، وكم كان مستر لورنس العجوز يحبها ويجل ذكراها ، فيحتفظ بكل صغيرة وكبيرة من مقتنياتها ، فليس أمراً هيناً أن يعطيك معزفها ، ولعله وجد شبيهاً لها فى زرقة عينيك وشغفك بالموسيقى .

ورفعت ميج غطاء المعزف تستعرض محاسنه ، وقالت :

— انظرى إلى حوامل الشموع المعدنية ، وتأملى فى جمال الحرير الأخضر المطرز بالورود الذهبية ، ثم حامل الأوراق المنقوش ، والكرسى الأنيق المستدير .

قالت آمى ، وما زالت مشغولة البال بأسلوب الرسالة التقليدى :

ــ تصورى أن يختم الرسالة بـ « خادمك المطيع جيمس لورنس » ؛ والله لأحدثن بنات المدرسة بذلك لأذهلهن وأدهشهن .

وكانت من عادة الطاهية حنة أن تشترك فى أفراح الأسرة وأتراحها ، فقالت :

ــ جربى المعزف يا حبيبتى ، وأسمعينا صوته الجميل .

وجلست بث إلى المعزف ، وتحركت أصابعها على مفاتيحه ، فانبعثت منه أنغام شجية ، قال البنات إنهن لم يسمعن لها مثيلا من قبل . وكان المعزف من نوع جيد ، وأوتاره حديثة الضبط والشد ، ولكن سعادة البنات به ، ضاعفت محاسنه وزادت فى آذانهن أنغامه روعة وجمالا . قالت چو تداعب بث :

ــ عليك أن تذهبى إلى مستر لورنس ، وتقومى بواجب الشكر له .

وكانت تظن أن أختها لن تجرؤ على الأخذ بنصيحتها ، ولكن بث أدهشت الأسرة كلها بقولها :

ــ هذا أقل ما يجب ، وأفضل أن أبادر الآن بالذهاب ، قبل أن أطيل التفكير فى الأمر فينتابنى الخوف .

وقامت إلى السلم تهبط درجاته بعزيمة قوية ، وخرجت إلى الحديقة فتخطت السور ، ثم دخلت بيت آل لورنس . .

وألجمت جرأة الفتاة ألسنة أخواتها عن الكلام ، فقالت حنة مندهشة :

— هذا أعجب ما رأيت فى حياتى ! لقد طيرت الهدية صوابها ، ولو كانت بكامل عقلها ، مارضيت أن تذهب .

ولكن ما فعلته بث بعد ذلك كان أعظم وأروع ، فقد طرقت باب المكتبة ، غير مترددة ، فلما أذن لها الصوت الخشن بالدخول ، سارت إلى مستر لورنس مباشرة فى جرأة أدهشته . ومدت يدها تصافحه ، وقالت بصوت خافت مرتجف :

— جئت ياسيدى ، أشكر لك . . .

وتطلع إليها العجوز بحنان بالغ ، فاحتبست الكلمات فى فمها ، وتلاشت عبارات الشكر عن ذهنها . ولم تعد تذكر سوى أنه رجل فجع فى حفيدته التى كان يحبها من كل قلبه ؛ وعندئذ غلبتها العاطفة ، فطوقت عنقه بذراعيها ، وطبعت على جبينه قبلة حارة .

ولو أن سقف الدار طار إلى السماء السابعة ، ما دهش العجوز دهشته بهذه القبلة . فتأثر كل التأثر ، ورفع الصغيرة بين ذراعيه ، وأجلسها على ركبتيه . ولصق خده المجعد الخشن بخدها الناعم الوردى فى رضاً غامر ، كأنما حفيدته قد عادت إلى الحياة ثانية .

ولم تعد بث تخافه أو تخشاه ، وزال التكلف بينهما ، فجعلت تتحدث إليه بغير حرج مثلما تتحدث إلى صديق عزيز . عرفته طول عمرها . ولما حان موعد عودتها إلى البيت ، رافقها إلى بابه ، وانحنى أمامها

مودعاً ، وقد رفع القبعة عن رأسه بيده ، ثم عاد على أعقابه رافع الرأس مشدود الصدر .

ورأى البنات من النافذة ، كيف عادت أختهن إلى البيت برفقة السيد الأنيق ، وكيف انحنى لها مودعاً باحترام وتقدير ، فطفن بالغرف يرقصن ، وقالت ميج وهى تضرب كفا بكف :

ـ لقد انقلبت الدنيا ، ولا أظن يوم القيامة ببعيد .

obeikandl.com

الفصل السابع
« آمى » تقاسى الهوان

امتطى لورى صهوة فرسه ذات صباح ، ومر ببيت مارش ، فلما رأى البنات فى النافذة ، لوح لهن بسوطه محيياً ، فقالت آمى تتفلسف على عادتها :

— ألا يبدو « مفترساً » بمعنى الكلمة !

صاحت جو ترد العدوان عن صديقها :

— إنه مثل للهدوء والوداعة ، فكيف تجرئين على إهانته بهذا الوصف ؟

قالت آمى تدافع عن نفسها :

كنت أمتدح أسلوبه فى ركوب الخيل ، ولم أتفوه بكلمة تهينه .

فانفجرت چو ضاحكة ، وقالت لأخواتها :

ــ إن هذه الغبية تقصد « فارساً » ، فتقول « مفترساً » .

قالت آمى :

ــ كفاك ضحكاً ، فما هى إلا فلتة لسان ، على حد تعبير مدرسنا مستر دافيز .

ثم أردفت بصوت منخفض كمن تتحدث إلى نفسها ، وإن كانت فى الحقيقة تريد أن يسمعها أخواتها :

ــ ليتنى أملك من المال بعض ما ينفقه لورى على فرسه .

فضحكت چو مرة أخرى ، ولكن ميج قالت فى عطف :

ــ أتحتاجين إلى نقود ؟

قالت :

ــ كل الأحتياج ، فقد أغرقت نفسى فى الديون ، ولن أحصل على مصروفى القادم ، قبل أسبوع طويل .

فقالت ميج فى جد :

ــ أى ديون ، يا آمى ؟

قالت :

ــ اقترضت من زميلاتى اثنتى عشرة « مصاصة » ليمون ، وعلىّ

أن أردها إلى صاحباتها فى أقرب وقت ، ولكن نقودى نفدت ، وأمى تكره أن آخذ من المتجر على الحساب .

ونظرت ميج إلى آمى باهتمام ، وقالت وهى تحاول أن تحتفظ بهدوئها :

ــ كانت كرات المطاط ، فى أيامنا ، تسلية مدرسية شائعة ، فهل حلت « مصاصات الليمون » محلها ؟

قالت آمى :

ــ كلنا نشتريها إلا البخيلات الشحيحات ، ونحن نضعها فى أدراجنا ، ونمصها خلسة أثناء الدرس ، وأحياناً نقايض عليها بالأقلام الرصاص ، أو الخواتم الزجاجية ، أو الدمى الورقية ، أو غير ذلك من اللعب المسلية . وقد اعتدنا أن نعبر بها عن شعورنا ، فإذا كانت لى صديقة مثلا أعطيتها واحدة ، وإذا كانت لى عدوة وقفت أمصها أمامها ولا أدعوها إلى مشاركتى عليها ، وجرى العرف على أن توزع كل بدورها مصاصات الليمون على صاحباتها ، وقد أخذت بهذه الطريقة عدداً كبيراً منها ، ويحز فى نفسى أن أعجز عن ردها ، لأنها ديون شرف ، لا يصح أن نسكت عليها .

وأخرجت ميج كيس نقودها ، وقالت :

ــ كم تحتاجين لتسددى ديونك كلها ؟

قالت :

ــ يكفينى ربع ريال ، وربما تبقى جزء منه أشترى لك به نصيباً من

مصاصات الليمون ، أفلا تحبينها ؟

قالت ميج :

ــ لا ! لا أحبها ، فخذى نصيبى ، وهاك النقود ، فلا تسرعى بإنفاقها إذ أننى أكسبها بشق النفس كما تعلمين .

قالت آمى :

ــ شكراً لك وألف شكر . لا يمكنك أن تتصورى كم تفرجين عنى بذلك . فقد مضى على أسبوع كامل لم أشتر فيه واحدة ، وكذلك لم أقبل من زميلاتى هداياهن حتى لا تتضاعف ديونى فيصعب على ردها .

وفى صباح اليوم التالى ذهبت آمى إلى مدرستها متأخرة ، ومع أن زميلاتها كن جالسات فى الفصل عند وصولها ، فقد ساقها فرحها إلى إطلاعهن على السر ، فأرتهن من تحت درجها الكيس البنى الممتلئ بالمصاصات .

وسرى الخبر فى الفصل بسرعة البرق ، فعرف البنات جميعهن أن آمى أحضرت معها أربعاً وعشرين « مصاصة » ، وأنها تنوى توزيعها على من تحب ، فتلطفن معها تلطفاً بالغاً ، حتى إن كيتى براون دعتها إلى حفلتها القريبة ، وأصرت مارى كنجزلى على أن تقرضها ساعة يدها إلى نهاية الحصة . أما جينى سنو ، تلك الشيطانة الصغيرة ، التى لم تسكت طوال الأسبوع الأخير عن معايرتها بعجزها عن شراء المصاصات ، فقد كفت عن عدوانها ، وعرضت على آمى إجابات المسائل الحسابية الصعبة .

ولكن تودد جينى لم يلق قبولا من آمى ، إذ كانت الفتاة لا تزال تذكر لغريمتها ما كانت تقوله عن « صاحبة الأنف المفرطح التى لا تمنعها فرطحة أنفها من شم حلوى الأخريات » ، لا ، ولم تغفر لها إشاراتها الجارحة إلى « أولئك الفتيات اللائى يستجدين الحلوى بلا كرامة أو إباء » . وكانت هذه الأقوال تحز فى قلب آمى ، فلما رأت تودد جينى ، بعثت إليها برسالة سريعة تهدم فيها آمالها وتقول : «لا حاجة بك إلى الأدب المصطنع ، فلن تنالى منى مصاصة واحدة ! »

وتصادف أن كان بالمدرسة ذلك اليوم زائر كبير ، حازت خرائط آمى إعجابه وتقديره ، فأثار النصر الجديد أحقاد جينى سنو ، وحفزها إلى طلب الانتقام ، وكان انتقاماً ذريعاً ، قلب الأمور رأساً على عقب : فعندما انصرف الضيف الكبير عن الفصل ، قامت جينى إلى مستر دافيز ، كأنها تريد أن تسأله سؤالا ، ثم همست فى أذنه بأن آمى تخفى فى درجها ، كيساً مليئاً بالمصاصات .

كان مستر دافيز قد حرم على البنات إحضار المصاصات إلى الفصل ، وتوعد بالعقاب الشديد من تحدثها نفسها بمخالفة أوامره ، وكان قد أفلح قبل ذلك فى منع « اللبان » والقصص والجرائد والمجلات ، ووضع حدا لأسماء التدليل التى كان البنات ينادين بها بعضهن بعضاً . ومع أن قيادة البنات أشق على النفس من قيادة البنين ، خصوصاً على رجل عصبى المزاج مثل مستر دافيز ، فقد استطاع المدرس بطغيانه

وشراسته أن يبسط نفوذه على خمسمائة فتاة فى المدرسة ، وأفلح فى ترويضهن على احترام أوامره . وكان مستر دافيز مدرساً ممتازاً ، يتقن اللغة اللاتينية كما يتقن الحساب والجبر والهندسة . ولكن أساليبه فى معاملة البنات كانت خشنة جافة ، وتصادف فى ذلك اليوم أن كان ثائراً أكثر من المعتاد ، لصداع شديد ألم برأسه . ولأن البنات لم يظهرن براعة كافية أمام الزائر العظيم . والحقيقة أن البنات ذقن منه الأمرين فى ذلك الصباح حتى وصفنه « بالساحر الشرير » و « الدب الثائر » ، فجاءت وشاية چينى ناراً على بارود ، إذ امتقع وجهه امتقاعاً شديداً ، وضرب المنضدة بقبضته ضربة تنذر بالخطر . ثم صرخ قائلا :

— انتباه .

وهدأ الفصل لكلمته هدوء القبور ، وتطلعت عيون البنات إلى وجهه القبيح فى خوف وقلق . قال :

— آمى مارش . تعالى هنا .

وتظاهرت آمى بالثبات ، ولكن قلبها كان يرتجف بين ضلوعها ، وقبل أن تخطو إليه خطوة واحدة ، قال على غير انتظار :

— وأحضرى معك مصاصات الليمون الموضوعة فى درجك .

همست زميلة ذكية تحذرها :

— لا تأخذيها كلها !

وعملت آمى بالنصيحة ، فتركت فى الدرج ست قطع ، وحملت

الباقى إلى منضدة مستر دافيز ، وكلها أمل أن تلين رائحة الحلوى الشهية قلبه الجامد ، ولكنه قال باشمئزاز :

ــ أهذا كل ما معك ؟

وعجز لسانها عن الكذب ، فأجابت متلعثمة :

ــ ليس كله .

قال :

ــ إذاً عودى وأحضرى الباقى .

وخضعت لأمره والأسى يملأ قلبها . قال :

ــ أهذه مصاصاتك كلها ؟

قالت :

ــ ليس من عادتى أن أكذب يا سيدى .

قال :

ــ أعتقد ذلك . والآن خذى هذه القاذورات ، اثنتين فاثنتين ، وألقى بها من النافذة .

وندت عن البنات تنهدة الحزن والأسى ، فقد ذهبت أوامر مستر دافيز بآخر أمل فى إنقاذ المصاصات الشهية .

وفى مزيج من الخجل والغضب ، خضعت آمى لإرادة مدرسها ، فكانت تحمل فى كل مرة مصاصتين ، تذهب بهما إلى النافذة ، فتلقيهما ، ثم تعود لتحمل مصاصتين أخريين ، وهكذا قطعت

الطريق بين منضدة الأستاذ ونافذة الفصل اثنتى عشرة مرة ، فى كل منها يتعالى هتاف أولاد الشارع ، وهم يتلقفون الحلوى ، وكأنما تهبط عليهم من السماء . وإذا كانت خسارة التلميذات فى المصاصات عظيمة ، فقد كان الخطب أفدح بالهتاف ، إذ كان بينهن وبين هؤلاء الغلمان عداء قديم مكين .

وبعد أن ألقت آمى آخر مصاصتين ، قال المدرس الطاغية يحدث التلميذات بصوت رنان :

— منذ أسبوع ، يابنات ، حذرتكن من إحضار المصاصات إلى الفصل ، وتوعدت من تخالف أمرى بالعقاب ، وليس من عادتى أن أسكت عن العصيان ، أو أرجع عن كلمة قلتها ، ولذلك أرانى مضطراً إلى عقاب هذه الفتاة جزاء وفاقاً على استهتارها بالنظم ، آمى مارش . . مدى يدك .

وانتفضت آمى فزعاً ، وسحبت يدها إلى ما وراء ظهرها ، وتطلعت إليه فى صمت يفيض بالاستعطاف . وكانت آمى تلميذته المفضلة ، وكثيراً ما كان دافيز العجوز يمتدحها ويثنى عليها ، فلما رآها تنظر إليه هكذا لان قلبه الجامد ، وحدثته نفسه بأن يغفر لها غلطتها ، ولكن شاء سوء الحظ فى تلك اللحظة أن ينكر التلميذات أساليب التأديب البدنى ، فندت عن إحداهن آهة غضب خافتة ، لم تغب عن اذن المدرس العنيد ، فقرر أن يمضى فى عقابه ، ليحد من عصيان تلميذاته .

هكذا تقرر مصير آمى ، وكان رده على نظرتها المستعطفة ، أن قال بخشونة مرة أخرى :

ـ آمى مارش . . مدى يدك .

وشعرت آمى برغبة شديدة فى البكاء ، ولكن كبرياءها منعتها من أن تطلق العنان لدموعها ، فأطبقت فكيها فى تحد ، وأعطته يدها يضرب عليها ، واختارت أن تتقبل العقاب صامتة ساكنة لا يتحرك لسانها بكلمة ولا يرمش لها جفن .

وكانت الضربات موجعة ، ولكن شعورها بالمذلة والهوان كان أشد ألماً من الضرب ، إذ كانت هذه أول مرة تعاقب فيها بهذه الصورة . قال مستر دافيز بعد أن أعطاها نصيبها من لسعات مسطرته :

ـ والآن قفى على المنصة ، حتى تنتهى الحصة .

وكان هذا أبشع ما فى المسألة كلها ، فقد كانت آمى تأمل أن ينتهى الأمر عند الضرب فيسمح لها أستاذها بعده بالرجوع إلى درجها ، بين عطف صديقاتها وشماتة عدواتها ؛ أما أن يمضى فى عقابها ، فيأمرها بالوقوف على المنصة ، لتواجه نظرات التلميذات ، وما زال هوان الضرب عالقاً بها ، فأمر لا تحتمله نفسها الوديعة الحساسة . وتطاحنت الآلام فى صدرها ، وخيل إليها أن تلقى بنفسها على الأرض باكية صارخة ، لكن منعها من ذلك أن تذكرت جينى سنو ووشايتها الخبيثة ، فثارت كرامتها ، وأقسمت فيما بينها وبين نفسها أن تحتمل الهوان بشجاعة إلى النهاية .

وصعدت المنصة ، واختارت من جدار الغرفة نقطة عالية ، تثبت عليها أنظارها ، لتتحاشى بذلك مواجهة عيون زميلاتها . ولزمت مكانها لاتتحرك عنه ، وقد امتقع وجهها امتقاعاً شديداً ، شغل البنات به عن تتبع الدرس ، فتطلعن إليها آسفات مشفقات .

ربما يعتقد بعضنا ، أن الحادث فى حد ذاته بسيط تافه ، وأن العقاب أمر شائع فى كل مدرسة ، ولكن آمى ذات الكبرياء والحس المرهف ، وجدت فيه محنة نفسية بالغة لا ينسى عارها مدى الحياة ، فقد تعودت الفتاة منذ مولدها إلى ذلك اليوم المشئوم ، أن تعامل بالعطف والحسنى ، ولم يسبق لأحد أن حطم كبرياءها بمثل هذا العقاب المذل المهين ، فكان ألمها النفسى به أضعاف ألمها البدنى ، وبلغت ثورتها الصامتة أقصاها ، عندما تذكرت أمها وأخواتها ، وتصورت كيف يكون وقع الخبر عليهن .

ومضى بها ربع ساعة ، كل دقيقة منها فى طول الدهور ، ثم شاءت الأقدار أن ترحمها ، فانتهت الحصة وانتهى معها العقاب . قال مستر دافيز فى قلق ملحوظ :

— عودى إلى درجك يا آنسة مارش .

ونظرت آمى إليه طويلا ، ومن غير أن تنطق بكلمة واحدة ، أعطته ظهرها وخرجت من الفصل مسرعة إلى غرفة الملابس حيث جمعت حاجاتها وأداتها ، وانصرفت بها عن المدرسة إلى الأبد .

ودخلت البيت فى حالة يرثى لها ، وروت لأسرتها ماحدث ، فانزعج له أخواتها ، وعكفت چو على كف آمى الملتهب تدلكه بالجلسرين ، وهى فى ذات الوقت تتوعد دافيز . وتطالب بالقبض عليه ومحاكمته على وحشيته . فتؤيدها الطاهية حنة فى هذا الرأى ، وتتمنى لو كان فى استطاعتها أن تقلو الشرير كما تقلو البطاطس فى الزيت . وروحت مسز مارش عن ابنتها بكلمات هادئة مقتضبة . ولكن جسدها كان يرتجف لفرط ثورتها المكبوتة ، إذ كانت بطبعها أماً طيبة ، تقدر كبرياء الصغار كما تقدر كبرياء الكبار . وتنكر أساليب القسوة فى العقاب والتربية . وعرف بنات الفصل بهرب آمى من المدرسة . ولاحظن بعيونهن الثاقبة كم تأثر دافيز بذلك فنحا طول اليوم نحو الهدوء والسكون . وقبيل انتهاء اليوم الدراسى رأين چو تدخل عليه غاضبة ، فتضع أمامه خطاباً من أمها ، ثم تتجه إلى درج أختها ، فتأخذ منه الكتب والأدوات ، وتنصرف بها ، وهى تحك قدميها على منفضة الباب ، كأنها تزيل عن حذائها آخر غبار للمكان البغيض .

وفى مساء اليوم المشهود ، قالت مسز مارش لبنتها آمى :

ـ أكره أن يعاقب البنات بالضرب ، وأرى فى أساليب مستر دافيز ما يتنافى مع أصول التربية ، فخير لك أن تبقى فى البيت ، وتشغلى وقتك بالدرس مع بث ، حتى أكتب لأبيك أسأله رأيه قبل أن أبعث بك إلى مدرسة أخرى .

فتنهدت آمى وقالت بلهجة الشهيدة المعذبة :

ــ يؤسفنى أن أحرم من صحبة زميلاتى ، ولكنى سعيدة بترك المدرسة ، وأتمنى من صميم قلبى أن يتركها بالمثل التلميذات كلهن ، حتى يصاب دافيز بالإفلاس ، فيغلق أبواب مدرسته .

قالت أمها بصرامة :

ــ لست آسفة لحرمانك من زميلاتك ، لأنك أخطأت وخالفت القوانين ، فحق عليك العقاب .

قالت آمى فى انزعاج :

ــ أيرضيك هوانى أمام المدرسة كلها ؟

أجابت أمها :

ــ ليست القسوة طريقتى فى التربية ، ولكنك تلقيت درساً مفيداً ، يقوم اعوجاجك ويصلح ما اختل من أمرك ، فقد داخلك الغرور أخيراً ، واستكبرت بما وهبك الله من فضائل ، ونصيحتى أن تعيدى النظر فى أحوالك ، فالغرور مقتلة العبقرية ، والتواضع سر العظمة ، وليس أجمل ولا أنبل من أن نغتبط بفضائلنا دون أن نتشدق بها ، وإلا نفر الناس منا ، وكرهوا الاختلاط بنا .

وكان لورى يلعب الشطرنج مع چو فى جانب من الغرفة ، فلما سمع كلام مسز مارش قال :

ــ هذا عين الصواب ، فالتواضع ثروة خلقية طائلة ، فأنا أعرف

فتاة بارعة فى الموسيقى ، تعزف أجمل المقطوعات بمهارة فائقة ، ولكنها مثل فى التواضع الجميل ، ولو صارحتها برأيى فى فنها الأصيل ما صدقتنى . إنها فتاة فريدة فى نوعها ، تعيش بمواهبها الممتازة ، ولا تكاد تحس بها .

واجتذب حديث الموسيقى بث ، فسارت إلى لورى تقول :

ــ إنى غبية بليدة ، أفلا تعرفنى بهذه الفتاة الممتازة ، لتساعدنى وترشدنى ؟

أجاب لورى بمرح واغتباط :

ــ ولكنك تعرفينها كل المعرفة . وما من إنسان يساعدك مثلها .

وأدركت بث فى هذه اللحظة أنه كان يعنيها بالكلام ، فاحمرّ وجهها احمراراً شديداً ، وغلبها الخجل ، حتى دفنت وجهها فى وسائد الأريكة .

واغتبطت چو بكلام لورى كل الاغتباط ، وسرها أن يمتدح أختها المفضلة بهذا الأسلوب اللبق الجميل ، فتساهلت معه فى لعبة الشطرنج ، وتركت له الفرصة لينتصر عليها ، وغرضها من ذلك أن تكافئه على حسن صنيعه . واستمدت بث من الحديث شجاعة وقوة ، فقامت إلى « البيانو » تعزف عليه أجمل مقطوعاتها ، ولورى يغنى معها بصوت شجى ، فعاد المرح إلى جوّ الأسرة ، وانقضى المساء فى رضاً وحبور .

ولما حان وقت العشاء ، انصرف الفتى إلى بيته ، فقالت آمى لوالدتها بعد طول تأمل وتفكير :

ــ أليس لورى مثقفاً ماهراً ؟

أجابت والدتها :

— إنه بالفعل كذلك ، فقد نال من التعليم قسطاً موفوراً ، وعنده من المواهب العالية ذخيرة طيبة ، وسيغدو رجلا ممتازاً إذا لم يفسده التدليل.

سألت آمى ثانية :

— وليس مغروراً أيضاً ؟

قالت :

— أبداً ، ولذلك نحبه ونصطفيه .

قالت آمى فى عجب وتأكيد ، كأنها اهتدت فجأة إلى سر الحياة :

— جميل أن يكون مثقفاً أنيقاً ممتازاً ولا يباهى بما حباه الله به من خير جزيل .

قالت مسز مارش :

— إن المواهب الحقة لا تخفى على أحد ، ولسنا فى حاجة إلى استعراضها لإظهارها ، فالحديث عنها يضعف قيمتها مهما بلغت .

قالت چو تتم موعظة أمها :

— وشأن من تفاخر بمواهبها ، شأن من ترتدى دفعة واحدة كل ثيابها وقبعاتها وأشرطتها ، لتباهى بها الناس ، فتكون النتيجة أن يسخر المجتمع منها ، ويحتقرها .

وانتهت المحاضرة بعاصفة من الضحك ! !

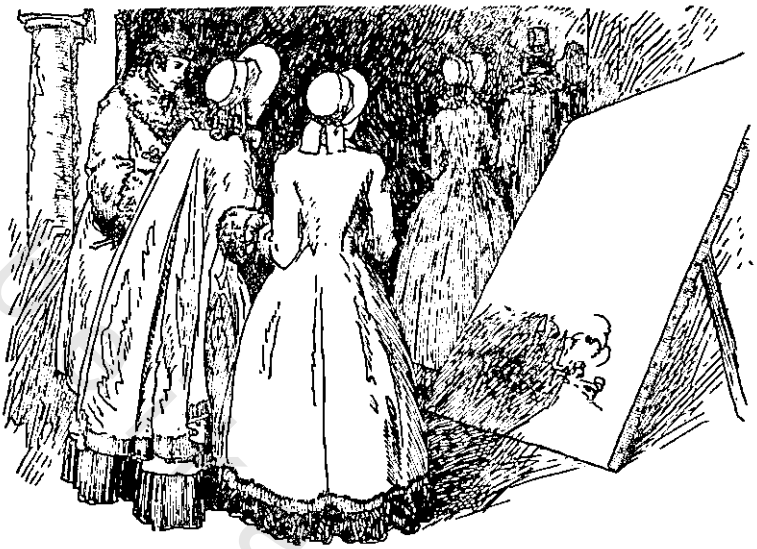

الفصل الثامن

« چو » فى قبضة الشيطان

فى عصر يوم من أيام السبت ، دخلت آمى حجرة أختيها ميج ، وچو ، فوجدتهما تستعدان للخروج ، وتحاولان إخفاء ذلك عنها ، فأثار تكتمهما فضولها ، قالت :

ـ إلى أين تذهبان ؟

أجابت چو بحدة :

ـ هذا شأننا ، وليس لطفلة مثلك أن تتدخل فيما لا يعنيها .

وتألمت آمى لرد چو ، ولكنها قررت أن تعرف إلى أين تذهب أختاها ،

ولو اضطرت فى سبيل ذلك إلى الإلحاح ساعة كاملة ، فليس أشق على كرامة الصغار من أن يقال لهم إنهم صغار ، وليس أبغض إلى نفوسهم من أن يؤمروا بالانصراف إلى اللعب . وكانت آمى تعرف أن ميج لا ترفض لها طلباً ، فتوجهت إليها بالسؤال فى دلال وظرف ، قالت :

ــ أخبرينى ياميج إلى أين تذهبان ، فربما ذهبت معكما ، إذ أن بث تلهو بدماها ، ولست أجد تسلية أقتل بها وحدتى .

ولان قلب ميج ، فشرعت تشرح لها الأمر ، قالت :

ــ لا يمكنك الذهاب معنا ياعزيزتى ، لأنك لست مدعوة .

فقاطعتها چو بصبر نافد وقالت :

ــ اسكتى ياميج وإلا أفسدت كل شىء .

والتفتت إلى آمى تقول :

ــ لن ترافقينا يا آمى ، فاسكتى ، ولا تنوحى نواح الأطفال .

قالت آمى :

ــ أعتقد أنكما ستذهبان مع لورى إلى مكان ما ، فقد رأيتكم فى الليلة الماضية ، تتهامسون وتضحكون معاً على الأريكة ، ثم سكتم عند دخولى . ألست مصيبة فى حدسى ؟ .

قالت چو :

ــ نعم ، فاسكتى الآن ، وكفى عن مضايقتنا .

وسكتت آمى ، وأمسكت لسانها عن الكلام ، ولكنها دارت بعينيها

تفحص ما حولها ، فلمارأت ميج تدس مروحة فى جيبها ، صاحت تقول :

ــ لقد عرفت وجهتكما ، فأنتما ذاهبتان مع لورى إلى المسرح ، لمشاهدة تمثيلية « القلاع السبع » .

وسكتت قليلا ، ثم قالت بإصرار :

ــ ما كان يليق أن تخفيا الأمر عنى ، فقد أذنت لى والدتى بمشاهدة التمثيلية ، ولدى من النقود ما يكفى شراء تذكرة .

فقالت ميج تهدئها :

ــ أصغى إلىّ لحظة ، كونى فتاة عاقلة : إن والدتى لا توافق على ذهابك هذا الأسبوع حتى تبرأ عيناك تماماً ، فلا تؤذيهما أضواء المسرح . ولن تفوتك بذلك الفرصة ، فنى الإمكان أن تشاهدى الرواية مع بث وحنة فى الأسبوع القادم .

قالت آمى ، تستعطفهما وترجوهما :

ــ ولكن متعتى تكون أعظم إذا ذهبت معكما ومع لورى ، فهلا سمحتما لى بذلك ؟ لقد ضاق صدرى بالبقاء فى البيت ، ولم أخرج منذ أصابنى البرد . ونفسى تتوق إلى بعض التسلية . فدعينى أذهب معكما ياميج ، وأعدك بأن أكون دائماً فتاة طيبة مطيعة .

ولان قلب ميج مرة ثانية ، فقالت تسأل چو :

ــ ماذا لو أخذناها معنا ؟ لن تمانع والدتى فى ذهابها إذا دثرناها بمعطف سميك .

فقاطعتها چو غاضبة ، وقد غاظها أن تقلب آمى خططها ، وتفسد بذهابها ما كانت ترجوه من متعة وتسلية . قالت :

— إذا أخذتها فلن أذهب معكم ، إذ أن لورى دعانا نحن الاثنتين فقط ، فإن فى فرضك عليه شخصاً ثالثاً ، مجافاة لأبسط قواعد اللياقة ، وثق أنه لن يغتبط بذلك .

وكانت آمى قد شرعت تلبس حذاءها ، فأغضبها من چو كلامها ولهجتها ، فقالت فى إصرار :

— سأذهب إذا كانت ميج تريدنى ، ولن أكبد لورى مشقة ما دمت أملك ثمن التذكرة .

وكانت چو قد وخزت إصبعها بدبوس فى لهفتها على ارتداء ملابسها ، فازدادت بذلك حنقاً على حنق ، فقالت غاضبة :

— إن مقاعدنا محجوزة ، ولن تجدى مقعداً بجوارنا ، فإما أن تجلسى وحدك وهذا لا يجوز ، أو يعطيك لورى مكانه فتفقد السهرة بهجتها ، أو يبتاع لك مقعداً رابعاً مع أنه لم يفكر فى دعوتك من بداية الأمر ، فخير لك أن تبقى فى البيت ولا تخرجى منه .

وتوقفت آمى عن لبس حذائها ، وجلست على الأرض تبكى بحرقة ، فحنت عليها ميج تسرى عنها ، وتقنعها بالبقاء فى البيت ، وإذ ذاك ارتفع صوت لورى ينادى من الطابق الأسفل ، فأسرعت الفتاتان تهبطان إليه ، ومن خلفهما آمى تصيح وتنوح بأعلى صوتها ، فلما لم تجد من يلتفت

إليها ، أطلت برأسها من أعلى السلم ، وقالت تتوعد چو :

— سوف تندمين على فعلتك يا چو مارش ، وترين كيف أنتقم منك.

أجابت چو وهى تصفق الباب خلفها :

— هراء !

وقضت الفتاتان وقتاً جميلا ، فقد كانت « القلاع السبع » تمثيلية رائعة ، فيها كل ما يشتهيه قلب چو من أمراء وأميرات وأشباح وملابس براقة ومناظر خلابة ، فجعلت الفتاة ترقب المسرح بنظرها وقلبها وحسها ، حتى ظهرت ملكة التمثيلية بشعرها الذهبى الطويل ، وعندئذ تذكرت أختها الصغيرة ، فغشى سرورها بعض الأسف والألم ، وظلت طوال فترات الاستراحة التى تتخلل الفصول ، تفكر فى وعيد آمى ، وتتكهن بما قد تفعله فى سبيل الانتقام الذى أنذرتها به .

ولم يكن هذا أول خلاف ينشب بين چو وآمى ، فكثيراً ما كانت المعارك تقوم بينهما ، وتبلغ من العنف أحياناً حداً بعيداً . وكانت چو بطبعها سريعة الغضب عصبية المزاج ، إذا أثارها إنسان ، فقدت سيطرتها على نفسها ؛ ولكنها كانت إلى جانب ذلك طيبة القلب حسنة الأخلاق ، لا يدوم غضبها أكثر من دقائق معدودات ، يهدأ بعدها غليان مراجلها ، فتعتذر فى لين وأدب عما بدر منها . وكانت تعرف موطن الضعف فيها ، فتبذل جهوداً جبارة فى سبيل السيطرة على غضبها ، وتعاهد نفسها فى كل مرة على أن تكون مثلا فى التسامح والصبر ، ثم يثور غضبها لأمر من

الأمور ، فينفلت منها الزمام ، لتهدأ بعد قليل ، وتعتذر فى لين وأدب . وكان أخواتها يعرفن فيهـــا هذا الطبع الملائكى ، فيتعمدن إغاظتها ليستمتعن بجمال اعتذارها ، ولكن آمى كانت بدورها سريعة الغضب عصبية المزاج ، ولذلك كثيراً ما كانت تصطدم بچو ، وتبلغ المعارك بينهما مبلغ العنف والشدة .

وعندما انتهت التمثيلية ، وعادت الفتاتان إلى البيت ، كانت آمى تقرأ فى الردهة ، وقد علت وجهها سمات الألم الدفين . وأرادت أن تعبر عن غضبها لأختيها ، فتجاهلت دخولهما ، وأبت أن ترفع رأسها عن كتابها ، ورغم شوقها العظيم إلى معرفة تفاصيل السهرة ، اختارت أن ترفع عن الكلام ، تاركة لبث مهمة إشباع فضولها بأسئلتها واستفساراتها .

وصعدت چو إلى غرفتها تخلع قبعتها . فكانت خزانة الملابس أول ما اتجه إليه نظرها ، فقد انصب انتقام آمى فى آخر معركة نشبت بينهما ، على قلب حاجاتها المرتبة ، وإلقائها على أرض الغرفة ، ولكنها لم تفعل ذلك فى هذه المرة ، ولم تعبث بدرج أو خزانة أو صندوق ، فاطمأن قلب چو إلى أن آمى نسيت وعيدها ، وصفحت عنها . ولكنها أخطأت الظن ، فقد حدث فى اليوم التالى أن بحثت چو عن كراسة القصص التى تضم فيها مؤلفاتها ، فلم تجدها حيث تركتها آخر مرة ، وأقنعها البحث الدقيق بأن الكراسة اختفت ، وأن يداً خبيثة أسهمت فى اختفائها .

وكان أخواتها يجلسن فى الغرفة السفلى ، فهبطت الدرج إليهن مبهورة الأنفاس ، وقالت بانفعال :

ـ هل أخذت إحداكن كراستى ؟

وأجابت ميج وبث بالنفى ، وقد بانت فى وجهيهما أمارات الدهشة الصادقة ، أما آمى فقد احمر وجهها قليلا ، ولم تفعل شيئاً ، وتشاغلت عن الإجابة بتقليب نار المدفأة ، فاتجهت چو إليها مباشرة ، وقالت لها :

ـ آمى . . لقد أخذتها !

قالت :

ـ لا ، لم آخذها .

ـ إذاً فأنت تعرفين مكانها !

أجابت :

ـ لا ، لا أعرف .

صرخت بها چو :

ـ أنت تكذبين !

وثارت براكين غضبها المعهود . فأمسكت بكتفى الفتاة بخشونة شديدة ، انخلع لها قلب آمى ، فقالت خائفة :

ـ لست كاذبة ، ولم آخذ كراستك ، ولا أعرف أين هى .

قالت چو وهى تهزها قليلا :

ـ بل تعرفين يا آمى أين ذهبت الكراسة ، فاعترفى من تلقاء نفسك ،

وإلا أكرهتك على الاعتراف .

فصاحت أمى ، وقد ثار غضبها بالمثل :

— افعلى ما بدا لك ، ولكنك لن ترى قصصك السخيفة مرة أخرى .

قالت :

— ولم ؟

قالت :

— لأننى أحرقتها .

فغاض الدم فى وجه چو ، وتشنجت يدها على كتفى أمى ، وقالت فى استنكار وفزع :

— ماذا تقولين ؟ أأحرقت كراستى التى تعبت فى كتابتها سنوات طويلة ، لأنتهى منها قبل عودة أبى إلينا ؟

قالت :

— نعم أحرقتها ، وقد أنذرتك أمس وأقسمت أن أورثك الندم على فعلتك ، ولقد نفذت وعيدى وأحرقتها ، فافعلى الآن ما تريدين .

وانفجرت مراجل غضب چو ، وركبها شيطان الشر ، فجعلت تهز أختها وتهزها ، بكل ما تستطيعه من قوة وعنف ، حتى اصطكت أسنان أمى لفرط الألم والرعب . صاحت الغاضبة تقول :

— أيتها الشريرة الخبيثة ، لن أغفر لك فعلتك ما حييت ، فقد حرمتنى من أجمل قصص كتبتها .

وأسرعت ميج تنقذ آمى من بين يدى چو ، وهرعت بث إلى أختها المفضلة تسرى عنها وتخفف من حدة غضبها ، ولكن چو لم تسكت حتى لطمت آمى على وجهها لطمة شديدة ، لاذت بعدها بغرفتها تعالج ثورتها وحيدة .

وهدأت العاصفة فى الردهة السفلى ، عندما عادت مسز مارش من عملها ، وعلمت بما حدث ، فأنبت آمى تأنيباً شديداً ، وبينت لها مدى الأذى الذى ألحقته بأختها ، فقد كانت تلك الكراسة مفخرة چو ، وكانت قد سكبت فيها روحها وقلبها ، وتعبت فى تأليف قصصها وتهذيبها ، وقضت شهوراً فى تجميل أسلوبهاوتنميقه ، عسى أن تستطيع نشرها فى يوم من الأيام . وكانت چو قد اكتفت بالنسخة الأخيرة ، وأعدمت الأصول كلها ، فكأن آمى بفعلتها قضت على جهودها طوال السنوات الأخيرة ، وأنزلت بها خسارة لاتعوض .

وخيم على البيت سكون ثقيل ، فقد جلست مسز مارش حزينة مهمومة ، وبكت بث على ما أصاب مؤلفات چو بكاء كثيراً ، كما رفضت ميج أن تدافع عن أختها المفضلة أمام قبح الفعلة التى أتتها ، فاستبد الندم بآمى ، وانتوت أن تعتذر لأختها فى أول فرصة ، حتى تستعيد رضا الأسرة وعطفها . فلما حان موعد تناول الشاى ، وأقبلت چو على غرفة الطعام حزينة مهمومة ، استجمعت آمى شجاعتها كلها ، وقالت فى صوت خجل ضعيف :

ـ إن أسفى لما فعلت بالغ يا چو ، فسامحينى بالله عليك .

أجابت چو فى صلابة :

ـ لن أصفح عنك ما حييت .

ومنذ تلك اللحظة تجاهلت وجود آمى كلية ، ولما كانت أمها وأخواتها يعرفن بالتجربة أن لافائدة ترتجى من الجـــدل معها وهى فى عنفوان غضبها ، فقد سكتن جميعاً عن الإشارة إلى الموضوع ، حتى يهدىء الزمن ثائرتها ، فيلين قلبها .

ومضى المساء فى حزن ووجوم ، بالرغم من أن البنات كن يطرزن كالعادة بجوار المدفأة ، وأمهن تقرأ لهن كتاباً مسلياً ، فقد كان الجو خالياً من الأنس والألفة ، والأسرة فى قلق واضطراب بعد طول هدوء وسلام . وعندما أذن الوقت بالنوم ، وحان موعد الغناء ، وقفت چو بجوار المعزف صامتة جامدة ، كأنها تمثال قدّ من صخر ، وانهارت قوى آمى فسكتت بدورها ، ولم يشترك فى الغناء سوى ميج وأمهن ، ولكن صوتهما الجميل خذلهما فى هذه المرة ، وخرج رغم محاولاتهما الكثيرة عن الأنغام على غير المعتاد .

وآوت چو إلى غرفتها ، فدخلت عليها أمها تقبلها وتهمس فى أذنها قائلة :

ـ لا تدعى شمس غد تشرق على غضبك ، وكونى بقلبك الكبير غفورة رحيمة .

وأحست چو برغبة ملحة فى أن تسند رأسها إلى صدر أمها ، وتبكى جهودها الضائعة ، ولكنها كانت تحتقر الدموع ، وتراها مظهراً لا يليق بكرامة الرجال الذين كانت تتمنى لو خلقت واحداً منهم ، فطوت صدرها على ألمها وهزت رأسها وقالت بصوت أجش سمعته آمى من خارج الغرفة :

ـ لقد أخطأت خطأ جسيماً ، ولست أراها تستحق الصفح .

وبهذه الكلمات سارت إلى فراشها ، فانتهى المساء كئيباً حزيناً .

ومضى نهار اليوم التالى ، ومراجل غضب الفتاة ما زالت تنذر بالانفجار ، وزاد الطين بلة أن كان الجو بارداً مكفهراً ، فسقط معطفها فى الوحول أثناء سيرها فى الطريق ، وعندما وصلت إلى عمتها وجدتها فى ثورة مضاعفة ، لاتنى عن التذمر والنقد والتجريح .

وظلت ميج طوال النهار شاردة الذهن ، وكانت بث حزينة واجمة ، أما آمى فقد أساءها أن يقابل اعتذارها بالرفض ، وندمت على أنها أذلت كبرياءها بطلب المغفرة من أختها ، وأحست أن موقف چو الأخير منها قد جرح كرامتها أكثر من ذى قبل ، فعادت إلى غرورها السابق ، وأمعنت فى التحدث عن فضائلها ومواهبها ، ولم تنس التعريض بمن يتظاهرن بالطيبة أمام الناس ولا يعملن فى الحقيقة بأصولها ودواعيها .

وضاق صدر چو بثرثرة أختها وغرورها ، ورأت أن تفرج عن نفسها بالنزهة قليلا ، وقالت تحدث نفسها :

ـ كلهن بغيضات إلى قلبي اليوم . ولورى فتى كريم مرح ، ولن يتردد فى الانزلاق معى على الثلج إذا طلبت منه ، وسوف تسرى عنى صحبته وتسليني .

وسمعت آمى ضجيج قبقاب الانزلاق ، فأغرتها نفسها بالانزلاق مع أختها ، فقالت لميج :

ـ لقد أوشك الشتاء على الانتهاء ، ولم تسنح لى فرصة الانزلاق على الجليد بعد ، لكن لا فائدة ترجى من أن أطلب إلى هذه العنيدة أن تصحبنى معها ، رغم أنها وعدتنى بذلك فى يوم من الأيام .

قالت ميج :

ـ لا تلوميها ، فقد كنت البادئة بالعدوان ، وليس من اليسير على نفسها أن تغفر لك ما فعلته بكراستها ، ولكن خذى قبقابك على كل حال ، واخرجى خلفها عسى أن تكون الآن أكثر استعداداً للصفح عنك ، نصيحتى ألا تعترضى طريقها ، حتى يسرى لورى عنها ويدخل بعض المرح على نفسها ، وعندئذ انتهزى الفرصة المناسبة واعتذرى لها ،

قالت آمى ، وقد راقتها الفكرة :

ـ سأحاول :

ثم أسرعت تستعد، وجرت خلف چو ولورى ، ولكنهما كانا قد سبقاها إلى منعطف الطريق ، ورغم أن المسافة لم تكن طويلة بين البيت

والنهر ، فعندما لحقت بهما آمى ، كانا قد شرعا فى الانزلاق ، وكان لورى قد سبق زميلته إلى سطح النهر المتجمد يختبر كثافة جليده ، ويختار منه البقعة الصالحة للانزلاق ، فلم ير آمى عند حضورها ، ولكن چو رأتها ، فأدارت لها ظهرها ، وتجاهلت وجودها .

ووقفت آمى جانباً تتأمل لورى ، وهو يختبر النهر فى حذر ، وقد ارتدى معطفاً سميكاً وغطى رأسه بقبعة من الفراء فبدا كأنه أمير روسى ، وسمعته يقول لچو : دعينى أختبر الجليد قبل أن نبدأ السباق .

وأرادت آمى أن تلفت النظر إلى وجودها ، فجعلت تضرب الأرض بقدميها . وتنفخ فى كفيها ، وهى تحاول عبثا أن تلبس قبقابها بغير معونة . ولكن چو أمعنت فى تجاهلها . وشرعت تنزلق فى خط متعرج ، ونفسها تفيض بالرضا بما تعانيه أختها من مشقة وغيظ ، فقد كان غضبها على آمى يزداد بمضى الوقت ويترعرع . قال لورى لچو :

— الزمى جانب النهر . وإياك أن تقتربى من وسطه . فالجليد فيه رقيق لا يحتمل ثقلنا .

وسمعت چو التحذير ، ولكن آمى لم تسمعه ، إذ كانت فى شغل عن الإصغاء بمحاولة الوقوف على الجليد المصقول . ونظرت چو إليها من فوق كتفها ، وهمس الشيطان فى أذنها يقول : « لا يهم إن كانت قد سمعت التحذير أولم تسمعه ، دعيها تتولى أمرها بنفسها » .

وانزلق لورى إلى جانب النهر ، وتبعته چو فى بطء وتأن ، وسارت

آمى إلى الوسط غير عالمة بالخطر ، فتوقفت چو لحظة ، وقد تطاحنت فى صدرها رغبات مختلفة ؛ فقلبها يهيب بها أن تحذر أختها ، وشيطانها يحرضها على تركها لشأنها . وترددت چو بين الرغبتين ، ولكن ترددها لم يطل أكثر من لحظة خاطفة ، وقع البلاء بعدها فجأة : إذ انشق الجليد تحت قدمى آمى ، وغاص جسدها الصغير فى مياه النهر الباردة . وصرخت آمى عن قلب استبد به الرعب ، وفتحت چو فمها تستغيث بلورى ولكن الفزع ألجمها عن النطق وأسكتها عن الحركة ، فتسمرت فى مكانها صامتة ، وجسدها يرتجف من الرأس إلى أخمص القدمين . ومضت برهة وهى جامدة فى مكانها تتطلع إلى القبعة الزرقاء الصغيرة وهى تغوص وتطفو فى مياه النهر السوداء ، ثم سمعت صوت لورى يصيح بها وهو يمرق أمامها كالسهم :

— أسرعى إلىّ بلوح من الخشب .

ومضت الدقائق التالية وكأن چو فى كابوس مخيف : كانت تتحرك دون أن تدرى ، وتطيع أوامر لورى من غير تفكير ، وكان الفتى رابط الجأش ثابت الجنان ، فانبطح على الجليد ، وأمسك يد آمى ليحول بينها وبين الغرق ، حتى انتزعت چو من السياج الخشبى القريب لوحاً ، وحملته إليه ، فتعاون الاثنان على إنقاذها من الخطر مستعينين باللوح الخشبى ، وأخرجا آمى إلى سطح الجليد بعد عناء سببه الفزع أضعاف ما سببه الغضب .

ودثر لورى الفتاة بمعطفه الثقيل ، وشد حولها حزامه ، وقال لها :

– عودى إلى البيت مسرعة ، وأنت يا چو اجمعى حاجاتنا ، حتى أخلع عن قدمي هذه القباقيب اللعينة .

وعاد ثلاثتهم إلى البيت ، وآمى ترتجف وتبكى وتقطر ماء . ومضت بالأسرة فترة عامرة بالانفعال والقلق ، حتى استسلمت الفتاة للنوم تحت الأغطية السميكة بجوار النار الموقدة . ولم تتكلم چو إلا قليلا خلال تلك

الدقائق القلقة ، وجعلت تروح وتجيء فى الغرفة شاحبة اللون ثائرة غير آبهة بثوبها الممزق ويديها الزرقاوين المجروحتين بفعل الجليد والخشب .

ولما راحت آمى فى سباتها العميق المريح ، وعاد السكون فى البيت ، جلست مسز مارش تضمد جروح چو وتعالجها ، فنظرت الفتاة بحزن إلى رأس أختها النائمة ، وتصورت قسوة المصير الذى كان ينتظرها فى غياهب النهر ، فقالت لأمها :

ــ أواثقة أنت أنها بخير يا أماه ؟

فقالت أمها فى لهجة عذبة :

ــ اطمئنى يا عزيزتى ، فمن حسن الحظ أنها لم تصب بجرح واحد ، وأعتقد أن لا خطر عليها من البرد بعد أن دثرتماها بالمعطف ، وأسرعتما بها إلى البيت .

قالت چو :

ــ الفضل فى ذلك للورى وحده ، أما أنا فلم أفعل شيئاً ، إنما كنت السبب فى سقوطها ، وأنا الملومة على ما أصابها ، ولو ماتت ما سئل عن موتها غيرى .

وارتمت چو تحت أقدام أمها ، وانفجرت تبكى فى ندم شديد ، وجعلت تروى لأمها ما حدث ، وتتهم نفسها بقسوة القلب والشر ، ثم

تتجه إلى الله شاكرة أن أنقذ برحمته أختها من الموت . قالت فى أسى :

ــ إنه خلقى الثائر الغضوب ، وكم أقسمت أن أتغلب عليه وأقهره ، فكنت أخفق دائماً ، إذ عندما يثور غضبى ينفلت الزمام أشد عنفاً مما مضى .

أسندت مسز مارش رأس ابنتها الحزينة إلى صدرها ، وطبعت على خدها المندى قبلة الحنان ، وقالت للفتاة التى زادها عطف أمها بكاء ونحيباً :

ــ اتجهى إلى الله دائماً ، واطلبى منه العون ، يقويك على غضبك ، ولا تستسلمى لليأس ما دمت قادرة على إصلاح الخطأ .

قالت الفتاة :

ــ خلقى يا أماه يورثنى الحزن والأسى ، فما إن يركبنى شيطان الغضب ، حتى أصبح وحشا ضارياً ، وأشعر بقدرة عجيبة على إتيان الشر ، ويلذ لى أن أرد العدوان أضعافاً مضاعفة ، وأخشى أن يقهرنى الشيطان ذات يوم فأقوم بفعلة منكرة تفسد حياتى وتنفر الناس منى . ساعدينى يا أماه وأنقذينى من محنتى .

قالت مسز مارش :

ــ سأعينك يابنيتى فكفاك بكاء ، وعاهدى النفس منذ اليوم على ألا تكررى ما حدث . كلنا بشر يا چو ، وللبشر أخطاؤهم وإن اختلفت ، والسعيد من كانت أخطاؤه يسيرة ، والشقى من قضى العمر فى التغلب عليها . لاتظنى أنك فريدة فى حماقتك ، فقد كنت مثلك وأكثر ، ولكنى روضت نفسى على الهدوء والتسامح ، فلماذا لا تفعلين

ما فعلت ، فتبلغين ما بلغت من راحة وهدوء وسلام .

قالت چو ، وقد أنستها الدهشة آلامها :

ـ أنت يا أماه ؟ لم أرك تغضبين مرة فى حياتى .

قالت :

ـ لأننى قضيت أربعين سنة فى علاج غضبى ، ولم أنجح إلا بقسط يسير . فانا أغضب كل يوم يا چو ، ولكنى تعلمت أن أخفى ثورتى عن الناس ، وأن أكبتها فى قلبى وأغطيها بستار سميك من الهدوء الظاهرى . وما زلت أرجو أن أنتصر على ضعفى انتصاراً حاسماً ، وأقتلع شجرة الغضب من جذورها ، ولن أسكت حتى أبلغ غايتى ، ولا يضيرنى أن أقضى فى السعى إليها أربعين سنة أخرى .

وتطلعت چو إلى وجه أمها ، فرأت فيه أبلغ معانى الصبر والثقة بالنفس . فتعلمت من ذلك درساً بليغاً ، وأحست براحة هائلة تغمر قلبها الحزين القلق ، واستمدت من قصة أمها قوة على قهر نقيصتها .

وازدادت بصراحة أمها الطيبة رغبة فى الكفاح والجهاد ، من أجل الهدوء والسلام ، وكانت تعرف أن أربعين عاماً يقضيها الإنسان فى مراجعة نفسه دهر طويل . ولكن أمها لم تيأس على مضى السنين ، فلماذا لا تقتفى خطواتها وتطلب الكمال متفائلة وإن طال الأمد ؟ وأحست فى تلك اللحظة كأن أمها أقرب إليها من أى وقت مضى ، فسألتها :

ـ لاحظت يا أماه أنك تزمين شفتيك . أو تخرجين من الغرفة

مسرعة ، إذا أمعنت العمة مارش فى نقدها ولجاجتها ، فهل تكونين فى مثل هذه الأوقات غاضبة ؟

وتنهدت مسز مارش ، ورفعت يدها الرحيمة إلى رأس چو تسوى شعرها المشعث ، وقالت :

ــ نعم ، ولكنى تعلمت أن أحبس كلمات الغضب فى فمى ، وأسرع بالخروج من الغرفة لأعاتب النفس على ضعفها وخذلانها .

سألتها الفتاة :

ــ أرشدينى يا أماه ، كيف أستعين بالهدوء على الغضب ، فالكلمات القاسية تتدفق من فمى على الرغم منى ، وكلما ازداد تدفقها ازدادت مراجل غضبى ثورة وغلياناً ، حتى يعمينى الضلال ، فأجد لذة فى جرح شعور الآخرين . أريد أن أكون مثلك ، فعلمينى ما تعلمته ، وساعدينى على بلوغ غايتى .

قالت :

ــ كانت لى أم رحيمة تساعدنى .

فقاطعتها چو بقبلة وقالت :

ــ مثلما تساعدنينا برحمتك وحنانك .

قالت مسز مارش :

ــ ولكنها ماتت وأنا فى سن مبكرة ، فجعلت أكافح الحياة وحدى ، وقد منعتنى كبريائى من أن أنشد معونة غيرها . وكان وقتاً عصيباً ، كله

دموع وأحزان ، ولكنى لم أوفق فى تحسين أحوالى رغم جهودى المضنية ثم جاء أبوك ، ومعه الخير والسعد ، فتحسنت مواردى ، وتحسنت معها أخلاقى ، واستطعت أن أكون امرأة طيبة . ولما مضت السنون ، ورزقت ببنات أربع ، ضاعت ثروتنا . فعادت إلىّ أحزانى ، وعز علىّ أن يحرم بناتى متع الحياة ومسراتها .

قالت چو :

— مسكينة يا أماه ، ولكن من الذى أخذ بيدك فى تلك المحنة ؟

قالت :

— أبوك يا چو . فهو رجل لا ينفد له صبر ولا يعتور إيمانه شك ؛ يعمل ويجتهد وينتظر السعادة صابراً . كان يعينى ويواسينى . ويرينى كيف أتحلى بالفضائل حتى أكون مثلا تحتذيه بناتى ، وكان من السهل علىّ أن أضحى من أجلكن . وأن أقتفى خطواته لأكون عن جدارة واستحقاق خير قدوة لبناتى . ووجدت فى حبكن لى وثقتكن بى أعظم جزاء فى الحياة .

صاحت چو فى تأثر بالغ :

— ليتنى أتحلى بنصف فضائلك يا أماه .

قالت :

— بل يجب أن يكون لك فضائلى وأكثر ، وكل ما أطلبه منك أن تحذرى العدو الكامن فى صدرك ، حتى لا يسىء إليك ويفسد حياتك

لقد تلقيت اليوم درساً وإنذاراً فاتعظى بما حدث ، وجنّدى قواك فى قهر الغضب وفى الانتصار عليه ، قبل أن يوردك موارد التهلكة ، فتقاسين من الألم ما لا قبل لك به .

قالت چو :

ـ سأحاول يا أماه فى إخـــلاص وعزيمة ، فكونى بجانبى دائماً ، وساعدينى على بلوغ غايتى . ولا تتوانى عن الأخذ بيدى إذا رأيتنى أستسلم للغضب . لقد كنت أرى أبى أحياناً يضع إصبعه على شفتيه . وينظر إليك فى جد وعطف ، وكنت أراك إذا ما فعل هذا تزمين شفتيك ، ثم تنصرفين من الغرفة مسرعة ، فهل كانت هذه وسيلته فى معونتك على قهر الغضب ؟

قالت :

ـ نعم ، وكم أنقذتنى تلك الإشارة الصغيرة من أخطاء كثيرة .

ورأت چو الدموع تترقرق فى مقلتى أمها ، فخشيت أن تكون قد تخطت الحدود بكلامها ، فقالت بلهفة وندم :

ـ أكان خطأ منى أن أرقبكما ، وأصارحك بما رأيت ؟ إنما أردت أن أفتح لك صدرى ، وأحدثك بخواطرى وإحساساتى ، بعد أن وجدت فى كنفك راحة نفسية غامرة .

قالت الأم :

ـ لا بأس عليك ياچو ، وأكثر ما يسعدنى ياحبيبتى أن أكون

محط ثقة بناتى ، فأقص عليهن سعادتى وأفراحى .

قالت چو :

ــ خشيت أن أكون قد آلمتك بحديثى .

قالت الأم :

ــ لا يا عزيزتى ، ولكن الحديث عن أبيك ، يحرك وحشتى إليه ، ويذكرنى بأفضاله الكثيرة ، ويحفزنى إلى الإخلاص فى رعاية بناته ، وحفظهن سعيدات من كل سوء .

قالت چو :

ــ ومع ذلك ، فقد تركته يذهب إلى الميدان ، ولم تذرفى دمعة فى يوم الوداع ، وبقيت إلى اليوم راضية كأن شيئاً لا ينقصك فى الحياة .

قالت :

ــ لقد وهبت الوطن أعز ما أمتلك ، وحبست دموعى حتى لا أحزن والدك يوم السفر ، وأقلعت عن الشكوى قانعة بإرادة الله . لقد أدى كلانا واجبه . والسعادة تنتظرنا فى النهاية . إنى لا أطلب العون ، لأن الله فى عونى . ومن كان الله معيناً له ، فلا حاجة به إلى إنسان . إن المتاعب يابنيتى قد بدأت فى حياتكن ، وستزداد يوماً بعد يوم ، فاستعنّ بالله على قهرها ، يرعاكنّ الله ويكلؤكنّ برحمته وعنايته . وكلما ازداد إيمانكن بالله ، ازداد الله قرباً منكن ، وكفاكن شر الحاجة إلى الناس . إن عطف المول معين للسعادة لا يغيض ، وينبوع للقوة والسلام لا ينضب ،

فاحفظى قولى هذا عن ظهر قلب ، وتوجهى إليه عز وجل بكل ما فيك من قوة وإيمان . الجئى إليه فى آمالك وأحزانك ، واستغفريه نزواتك وأخطاءك ، يستجب لك من عليائه وسمائه .

وأفحمت چو بنصيحة أمها ، فأحاطتها بذراعيها صامتة ، وتوجهت إلى الله فى صلاة خاشعة ، وخرجت منها نقية القلب ، طاهرة النفس . فكما تعلمت فى هذه اللحظة قسوة الندم والألم واليأس ، كذلك تذوقت حلاوة التضحية وجمال السيطرة على النفس . فقد أرشدتها إلى طريق الله ، وأخذت بيدها إلى رحمته التى تشمل كل حزين ضال والتى تزيد فى عظمتها وجلالها عن رحمة الآباء والأمهات .

وتململت آمى فى فراشها ثم تنهدت ، فنظرت چو إليها نظرة جديدة كلها عطف وحنان ، كأنها تتلهف إلى المبادرة بالتكفير عن زلتها . وقامت إلى أختها تحنو عليها ، وتربت شعرها الذهبى الناعم ، ثم تقول لأمها :

— لقد عصيتك أمس ، فلم أصفح عنها ، وتركت شمس النهار الجديد تشرق على قلبى المفعم بالغضب ، ولولا لورى ، كنت فقدتها إلى الأبد ، وشقيت بإثمى العظيم مدى الحياة .

وكأن الصغيرة قد سمعت قول أختها ، إذ فتحت عينيها ، ومدت ذراعيها ، وافتر ثغرها عن ابتسامة نفذت إلى صميم قلب چو . ولم تنبس إحداهما بكلمة ، وتعانقتا فى صمت ، ثم محت القبلات آثار المحنة الماضية .

الفصل التاسع

« ميج » تجرب مباهج المجتمع

فى أول يوم من شهر أبريل ، وقفت ميج فى حجرتها تعد حقيبة السفر ، وأخواتها من حولها يساعدنها . قالت تتحدث عن الأطفال الذين تعمل مربية لهم :

ـ أليس من حسن الحظ أن يصاب أولئك الأولاد بمرض الحصبة فى الوقت الحاضر ؟

قالت چو ، وهى تساعد أختها فى طى ملابسها :

— أوليس جميلا من آنى موفات أن تتذكر وعدها لك ، فتدعوك لقضاء أسبوعين فى ضيافتها ؟

وكانت بث تقوم بنصيبها من مساعدة أختها ، فتطوى الشرائط الملونة ، وتضعها فى صندوق أعارته ميج بهذه المناسبة السعيدة ، قالت :

— ومن حسن المصادفات أن الجو معتدل جميل .

قالت آمى وهى تغرز الدبابيس فى وسادتها الصغيرة :

— من لى بدعوة أنيقة أرتدى فيها كل هذه الملابس الجميلة .

قالت ميج ، وهى تجيل بصرها فى ملابسها وأدوات زينتها :

— كنت أتمنى أن تذهبن معى ، ولكن آنى لم تدع سواى ، فلتطمئن نفوسكن إلى أننى سوف أحتفظ بكل ذكرياتى ومخاطراتى ، لأرويها لكن عند عودتى ، فهذا أقل ما يجب علىّ ، بعد ما لمسته من عطفكن البالغ . وتسابقكن إلى إعارتى أجمل ملابسكن ومقتنياتكن .

سألتها آمى :

— وهل أعطتك والدتى شيئاً من صندوق تحفها المعهود ؟

وكانت تشير بهذا الكلام إلى صندوق كبير من خشب الصنوبر ، اعتادت مسز مارش أن تحتفظ فيه بما تركته لها أيام الرخاء من تحف غالية ومقتنيات ثمينة ، لتهبها لبناتها فى الوقت المناسب . وكانت الأم قد فتحت الصندوق لأول مرة من أجل رحلة ميج ، ولكن شاء سوء الطالع أن تكون آمى خارج البيت فى تلك اللحظة المثيرة ، فلم تر شيئاً

من عطايا أمها .

أجابت ميج :

— أعطتنى جوربآ حريريًّا ، ومروحة منقوشة ، وحزاماً أزرق اللون . وكنت أحب أن آخذ قطعة الحرير البنفسجية ، ولكنى عدت فتركتها ، إذ ليس لدىّ متسع من الوقت لقصها وحياكتها . وأرى أن أقنع بثوبى المقوى القديم .

وكانت چو تتمنى لو استطاعت أن تعطى أختها كل ما تملك ، ولكن سوء الاستعمال كان قد أفسد ملابسها وأدوات زينتها ، فلم تعد تصلح للإهداء . قالت :

— سيكون ثوبك جميلا ، عندما ترتدينه فوق قميصى الجديد ، وتزينينه بحزام أمى الأنيق ، وكان يسعدنى أن أعيرك سوارى المرجانى ، ولكنه تهشم منى مع الأسف .

قالت ميج :

— رأيت فى صندوق التحف عقداً من اللؤلؤ ، فلم تشأ والدتى أن تعطينى إياه ، وقالت إننى ما زلت صغيرة السن ، والزهور الطبيعية أليق زينة بى ، وقد وعد لورى أن يمدنى بكل ما أحتاج إليه منها .

وعادت تتأمل ملابسها وتقول :

— هذه الريشة تحتاج إلى إصلاح ، وهذا « الطاقم » الرمادى الجديد ينفع للسير فى الصباح ، والرداء البوبلين للحفلات الصغيرة ، وإن كنت

أعتقد أن نسيجه سميك لا يناسب جو الربيع . آه لو كان الوقت يسمح بحياكة القطعة البنفسجية !

قالت آمى ، وهى تسرح الطرف فى مجموعة الملابس الأنيقة :

— لا يهم ، فثوبك الموسلين يصلح للحفلة الكبيرة ، ولونه الأبيض يكسبك حسناً ملائكياً .

قالت ميج :

— إنه قصير ، وفتحته ضيقة ، ولكنى سأصلحه على كل حال . وثوبى الأزرق يبدو جميلا بعد أن قلب وثنى حتى أصبح كالجديد ، وحقيبتى من طراز عتيق ، وقبعتى ليست كقبعة سالى ، ولكن هذا كله لا يضايقنى بقدر ما تضايقنى مظلتى الجديدة ، فقد طلبت من والدتى واحدة سوداء بمقبض أبيض ، فابتاعتها صفراء بمقبض أخضر قبيح . إنما متينة الصنع جيدة النسيج ، ولكن لونها لا يعجبنى وأشعر بالخجل عندما أقارنها بمظلة آنى الحريرية المذهبة .

وتنهدت ميج ، ونظرت إلى مظلتها بعين الرثاء ، فاقترحت چو أن تغيرها ، ولكن ميج أنكرت هذا الرأى وقالت :

— لا ، لن أغيرها حتى لا أجرح شعور والدتى ، بعد أن تكبدت عناء كبيراً فى شرائها . واقتصدت فى مصروفاتها ، لتوفر ثمنهـــا . إنها نزوات سخيفة لا يصح الاستسلام لها ، خصوصاً أننى أجد فى جوربى الحريرى وقفازى الجديد عزاء كبيراً . كان جميلا منك يا چو أن تعيرينى

قفازك الجديد لآخذه مع قفازى القديم بعد تنظيفه .

وأحضرت آنى كوماً من الشرائط الحريرية البيضاء ، كانت حنة قد كوّنها لتوها ، ثم سألت أختها ميج :

ــ إن آنى موفات تحلى قلنسوة نومها بأشرطة زرقاء وحمراء ، فهل تفعلين مثلها ؟

قالت چو بحزم :

ــ لو كنت مكانك يامیج ، مافعلت ذلك ، حتى لا يتجسم الفارق بين أناقة القلنسوة ، وبساطة ثوب النوم الرخيص .

فقالت ميج بضيق :

ــ متى يأتى اليوم الذى أستطيع فيه أن أزين قبعاتى بالأشرطة ، وأحلى ثيابى بالدنتلا الحقيقية ؟

قالت بث فى هدوئها المعهود :

ــ كنت تتمنين منذ أيام أن يسعدك الحظ بتلبية دعوة آنى موفات !

فقالت ميج :

ــ صدقت ، ولا يصح أن أخرج من أمل إلى أمل ، ولكنها الطبيعة البشرية ، فكلما تحقق لنا رجاء ، تطلعنا إلى غيره .

تلفتت ميج حولها ، واستطردت فى غبطة ملحوظة :

ــ أعتقد أننا انتهينا من إعداد الحقيبة ، ولم يبق غير ثوب السهرة ، وأفضل أن أتركه لوالدتى تضعه فى الحقيبة بنفسها .

وكان اليوم التالى صحواً والشمس مشرقة ، فغادرت ميج دارها سعيدة إلى حيث تقضى أسبوعين فى ضيافة صديقتها آنى موفات ، ولم تكن مسز مارش تميل إلى الموافقة على ذهابها ، خشية أن تعود مارجريت ، بعد زيارة أولئك الأثرياء ، أكثر تذمراً بحالها من أى وقت مضى ، ولكن ميج استعطفتها كثيراً . وبالغت فى الإلحاح والرجاء ، وضمت صديقتها سالى صوتها إلى صوتها . وتعهدت برعايتها خلال الزيارة ، فلم تجد الأم بدأ من الموافقة . راجية أن تكون دعوة آل موفات خير ترفيه عن ابنتها بعد عملها طول السنة .

وكان آل موفات على ثراء عظيم : يعيشون فى قصر كبير ، ويرفلون فى حلل الخير والأناقة ، فانكمشت ميج فى بداية الأمر ، ثم لم تلبث أن خبرت حسن أخلاقهم ، وعظيم تواضعهم ، فزال توجسها واندمجت فيهم ، وأمكنها بعد وقت قصير أن تلمس ما وراء مظاهرهم الفاخرة من معدن عادى لا يزيد عن معدن الآخرين فى شىء . وكانت مترفة المزاج بطبعها ، فأعجبتها أساليبهم فى البذخ ، وسرها أن تعيش مع قوم لا يعرفون من الحياة إلا ركوب العربات الجميلة ، وارتداء الملابس الأنيقة ، وقضاء الليالى فى المتع والمسرات ، وكان تأثرها بعشرتهم بالغاً ، فجعلت تقلدهم فى تصرفاتهم وأحاديثهم ، فتكوى جدائلها كل يوم ، وتحشو كلامها بألفاظ فرنسية ، وتنحصر مناقشتها فى شئون الأزياء وأخبار المسارح ، وكانت تبذل فى إتقان هذا التقليد جهوداً عظيمة .

وكلما كانت ترى مزيداً من مظاهر الثراء فى بيت موفات ، يزداد حسدها لابنتهم آنى ، ويتضاعف إحساسها بفقرها وحقارة بيتها ، وتزداد ثورتها على الظروف التى تحوجها إلى كسب عيشها بالعمل الشاق ، حتى انتهى بها الأمر إلى الشعور بأنها فتاة فقيرة مسكينة ، ظلمتها الأقدار بغير حق . وأحلتها مكانة ما كانت تستحقها أو ترجوها . وهانت أمام شعورها هذا فرحتها بثوبها الحريرى ، وجوربها الجديد ، وقفازها الجميل ، وأصبحت ترى فى تلك المقتنيات . التى كانت تفخر بها قبل وقت قصير ، مظاهر فقر لا تليق بفتاة مثلها .

وكان من حسن حظ ميج أن وقتها لا يتسع لطول التأمل والتفكير ، إذ حرصت مضيفتها آنى على إعداد برنامج حافل لا يترك من اليوم ساعة بغير متعة ونشاط ، فكانت تخرج بميج وسالى إلى المتاجر فى الصباح ، ثم تزور معهما الجيرة والأصحاب ، وفى المساء يطوف ثلاثتهن بالمتنزهات فى عربة موفات الأنيقة ، وفى الليل يذهبن إلى المسرح أو دار الأوبرا . وكان لآنى موفات أختان كبيرتان هما بل وكلارا . وكانتا على قسط عظيم من الحسن والأناقة ، وكان رب البيت مثلا أعلى فى الوداعة والسماحة . وقد أعجبا بجمال ميج ، وراق لهما حسنها الطاهر الوديع ، فأقبلا عليها — كما أقبل بناتهما وضيوفهما — يدللانها ، ويؤثرانها بكثير من أوجه المجاملة والتكريم ، فازدادت ميج بذلك غروراً على غرور . وأحست كأنها تعيش فى عالم من الأحلام الحلوة .

وكان برنامج الدعوة يحوى حفلتين رئيسيتين ! إحداهما صغيرة والأخرى كبيرة ، فلما حان موعد الأولى ، أخرجت ميج ثوبها المقوى ، فبدا فى عينيها حقيراً تافهاً ، بالقياس إلى ثوب سالى القشيب . وقد أحست لذلك بحرج شديد ، ازدادت وطأته عندما لاحظت كيف تطلع البنات إلى ثوبها ، ثم تبادلن النظرات خلسة . والتهب وجه ميج بحمرة الخجل ، وشعر البنات بما أصابها ، فعملن على إصلاح الخطأ بمزيد من العطف والرعاية ، فسألتها سالى أن تسمح لها بتصفيف شعرها ، وتطوعت آنى بربط حزامها ، وانبرت أختاها الكبيرتان بل وكلارا تطريان محاسن ميج ، وتثنيان على جمال ذراعيها وبياض لونهما . ولكن هـذا العطف كله لم يأت بثمرته المرجوة ، فظلت ميج فيما بينها وبين نفسها ، حزينة واجمة تلعن الفقر والحاجة ، حتى شغلتها شجونها عن المرح والمتعة ، فانزوت فى جانب من البيت صامتة واجمة ، وزميلاتها يتنقلن بين الغرف ضاحكات راضيات.

وظلت ميج فى حزنها ومرارتها ، حتى أقبلت عليها إحدى الخدم تحمل صندوقاً شفافاً به باقة زهر يانعة ، وعندئذ تصايحت الفتيات معجبات بالهدية ، وقالت آنى موفات وهى تشم عبير الزهور بلهفة :

ـ أظنها لأختى بل ، فقد اعتاد خطيبها جورج أن يبعث إليها بزهور ، وإن كانت هذه الباقة أجمل من سابقاتها وأعظم .

قالت الخادم ، وهى تقدم الصندوق لميج :

ـ قال الرسول الذى أحضرها إنها للآنسة ميج مارش ، وأعطانى

هذه الرسالة أرفقها بها .

وكان الخبر مفاجأة ازداد لها البنات سروراً وحماسة فسألنها فى نفس واحد :

ــ أخبرينا ممن جاءتك الباقة والرسالة ، فلم نكن نعرف أن لك صديقاً حميماً ، له فى اختيار الزهور ذوق سليم .

فقالت ميج فى بساطة :

ــ الخطاب من والدتى والورود من لورى .

وألقت عليها آنى نظرة عجيبة ، تلقتها ميج راضية ، وهى تدس رسالة أمها فى جيبها ، كأنها طلسم يقيها شر الغرور والحسد والكبرياء الفارغة ، فقد كانت تجد فى كلمات أمها معيناً من الخير والسعادة لاينضب.

قالت آنى وهى لاتزال تنظر تلك النظرة العجيبة :

ــ آه . . حقاً ؟ !

وشعرت ميج أنها قد أصبحت محط إعجاب البنات وتقديرهن ، فاستعادت مرحها وحبورها ، واحتفظت لنفسها بجانب من الزهور ، ووزعت الباقى على صديقاتها . وكانت فى تقديم هديتها مهذبة كريمة ، فاغتبط البنات لذلك ، وامتدحن ظرفها وحسن معاملتها ، وكان من أثر ما حدث أن تشجعت ميج ، فزال عنها خوفها وحياؤها ، وازدادت ثقتها بنفسها . فلما جاءت مسز موفات تطمئن على البنات قبل بداية الحفلة ، طالعها وجه ميج جميلا مشرقاً سعيداً ، ورأتها مخلوقة تستوقف

النظر بالرغم من ثوبها القديم البالى .

وكانت متعتها كاملة فى ذلك المساء، فقد رقصت ما شاء لها شبابها أن ترقص ، وغنت ثلاث مرات إجابة لطلب الحاضرين ، وكان كل من بالحفل يعطف عليها ، ويعجب بها : فقد سأل الميجور لنكولن عن « هذه الفتاة النضرة ذات العيون الجميلة » . وأصر مستر موفات على الرقص معها . لأنها كما اعترف بصراحة « تتحرك فى منتهى المرونة والرشاقة » ، كما قال أحدهم « إن لها صوتا ممتازاً فى جماله ونعومته » وهكذا أمضت ميج وقتاً سعيداً ، إلا أن شيئاً حدث بعد ذلك عكر عليها صفاء سعادتها . فقد خرجت إلى الحديقة تنتظر صديقاً وعدها بإحضار بعض المثلجات . فسمعت حديثاً من الجانب الآخر من السياج المغطى بالزهور ، قالت المتحدثة الأولى :

— كم عمرها فى رأيك ؟

قال صوت ثان ، عرفت فيه صوت مسز موفات :

— ستة عشر عاماً أو سبعة عشر على أكثر تقدير .

قال الصوت الأول :

— ستكون فرصة عظيمة إذا نجحت فى اقتناصه ، فقد أخبرتنى سالى أنهم أصدقاء حميمون ، وأن الرجل العجوز شديد الإعجاب بالبنات .

قالت مسز موفات :

— أعتقد أن مسز مارش عرفت كيف تحبك خططها ، ولن

تلبث أن تنجح فى أداء دورها ، بالرغم من صغر سن الفتاة ، وجهلها بما يعدّ لها . قال صوت ثالث :

ــ لا أشك فى أن الخطاب جاءها منه ، ولكنها كذبت علينا ، فنسبته إلى أمها ، ولكن احمرار وجهها فضحها . إنها فتاة جميلة ، لولا ملابسها العتيقة ، لازدادت جمالا على جمال . ما رأيك فى أن نعيرها ثوباً من أثوابنا ترتديه فى حفلة الثلاثاء القادم ؟ أتظنينها تقبل ذلك ؟

قال الصوت الثانى :

ــ لاأظنها ترفض رغم كبريائها ، فليس عندها سوى ذلك الثوب القديم الذى ترتديه ، فإذا تمزق الليلة ، واتتنا الفرصة لنعيرها ثوباً لائقاً محترماً .

قالت مسز موفات :

ــ وأرى أن أدعو لورنس الشاب إلى الحفلة إكراماً لها ، واتركن الباقى لحينه .

وفى تلك اللحظة أقبل على ميج الصديق الذى كان قد وعدها بإحضار بعض المثلجات . فوجدها محتقنة الوجه ثائرة النفس . إذ كانت الفتاة . على سذاجتها وبراءتها ، ذات كبرياء وأنفة . فعز عليها أن تسمع الحديث الجارح . ولم يخف عنها معنى من أدق معانيه . وظلت تفكر وتفكر فيما قيل عن خطط أمها وقبح ثوبها وكذبها فيما يختص بالرسالة التى جاءتها ، فزادها التفكير حزناً على حزن ، حتى أحست برغبة ملحة

فى البكاء . ولكنها عرفت كيف تكبت هذه الرغبة وراء ستار من المرح الزائف الذى انخدع به الحاضرون ، فلم يكشفوا شيئاً مما كان يعتمل فى نفسها .

وعندما انتهت الحفلة ، أسرعت ميج إلى غرفة النوم تعالج فيها همومها وحيدة ، وأوت إلى فراشها تبكى وتذرف دمعاً سخيناً ، فقد فتح الكلام المرير أمامها أبواباً جديدة تقودها إلى عالم كله حيرة وشقاء وقلق . وشعرت أن التلميحات أفسدت صداقتها البريئة للورى ، وأكسبت الأخوة بينهما لوناً مبتذلا رخيصاً ! واهتز إيمانها بعض الاهتزاز بأمها ، التى قيل إنها تحبك الخطط لتقتنص لها الصبى الثرى ، فضاعف هذا كله نقمتها على الفقر . وبدأت تعتقد أنه أعظم مصيبة تنزل بالإنسان تحت الشمس .

وقضت ميج ليلة عصيبة ، واستيقظت فى الصباح التالى ضيقة الصدر مثقلة الجفنين ، وزادها مضى الوقت حنقاً وغيظاً ، فقد كانت تعرف أنها لا تستطيع الكلام بصراحة مع صديقاتها ، ولا يمكنها بحكم الضيافة أن تعيد الأمور إلى نصابها .

وكان الكسل جاثماً على من فى البيت جميعهم ، بعد سهرة الليلة السابقة ، ولذلك لم ينشط الفتيات إلا ظهراً ، عندما جلسن معاً يقتلن الوقت بالتطريز . ولاحظت ميج من صديقاتها عطفاً مضاعفاً ، ورأتهن ينظرن إليها بفضول واهتمام ، وكان بودها أن تعلم السبب ، ولكنها آثرت السكوت حتى يأتيها الخبر من تلقاء ذاته . ولم يطل بها الانتظار ، فقد

رفعت الآنسة بل – كبرى بنات آل موفات – رأسها عن تطريزها ، وقالت لها :

– لقد أرسلنا ياعزيزتى ندعو مستر لورنس ، ورجاؤنا أن يقبل الدعوة ، فكلنا رغبة فى معرفته .

فاحمر وجه ميج . ولكن رغبة ماكرة أغرتها بالإمعان فى غيظ البنات ، فقالت :

– جميل أن تفعلن ذلك ، وإن كنت لا أتوقع مجيئه .

سألتها الآنسة بل :

– ولم لا يحضر ياعزيزتى ؟

قالت :

– لأن كبرسنه يمنعه من الحضور .

فصاحت كلارا تقول لها :

– ماذا تقصدين بذلك ياصغيرتى ؟ وكم يبلغ من العمر ياترى ؟

قالت ميج وهى تنظر إلى تطريزها لتخفى سرورها البالغ :

– ليس أقل من السبعين على ما أعتقد !

فضحكت الآنسة بل ، وقالت :

– يالك من فتاة ماكرة ، لقد أرسلنا ندعو لورنس الشاب ، لا لورنس العجوز .

قالت ميج :

ـ ولكنه ليس شاباً ، إنما هو صبي صغير .

وضحكت فى نفسها من النظرات التى تبادلنها الشقيقات الثلاث ، للوصف الذى أسبغته على لورى .

قالت إحداهن :

ـ أهو فى سنك ؟

أجابت ميج :

ـ بل هو فى سن چو تقريباً ، لأننى أبلغ السابعة عشرة من عمرى

قالت آنى ، وكأنها لا تصدق :

ـ ألم يكن جميلا منه أن يبعث إليك بالورود ؟

قالت ميج ، وهى تتمنى أن ينتهى الحديث عند هذا الحد :

ـ لقد تعود أن يهدينا أزهاراً من حديقته الكبيرة ، ومستر لورنس العجوز صديق حميم لأمى ، فطبيعى أن نكون نحن الصغار أصدقاء بالمثل فنلعب معاً بغير حرج .

فأومأت كلارا برأسها لبل ، وقالت بصوت خافت :

ـ من الواضح أنها ما زالت طفلة غريرة .

وهزت بل كتفيها وقالت :

ـ وساذجة أيضا إلى أبعد حد .

ودخلت مسز موفات تدب كالفيل فى ثوبها الحريرى ، وقالت :

ـ إنى ذاهبة إلى السوق لشراء بعض الأشياء ، فهل من خدمة

أؤديها لكن يا بنات ؟

أجابت سالى :

ــ شكراً ، ولست أريد شيئاً فعندى الحرير الوردى ليوم الثلاثاء

وبدأت ميج تقول :

ــ ولا أنا . . .

ولكنها توقفت عن الكلام ، إذ تذكرت أنها تحتاج فى الحقيقة إلى أشياء كثيرة ، ولكنها لا تستطيع أن تشتريها لفقرها .

سألتها سالى :

ــ ماذا تريدين فى حفلة الثلاثاء القادم ؟

قالت ، وهى تتظاهر بالهدوء :

ــ فى نيتى أن أرتدى ثوبى الأبيض القديم ، إذا أمكننى أن أصلح عيوبه بحيث يصبح قابلا للبس .

قالت سالى ، ولم تكن فتاة حصيفة :

ــ ولم لا تطلبين ثوباً آخر من البيت ؟

وبذلت ميج جهداً كبيراً حتى أمكنها أن تقول :

ــ لأنى لا أملك ثوباً آخر .

ولم تلحظ سالى ما أصاب ميج من خجل واضطراب ، فقالت :

ــ ألا تملكين سوى هذا الثوب فقط ؟ إنى لا أصدق .

وتوقفت عن الكلام ، إذ وقع بصرها على بل تشير إليها محذرة ،

فقالت تصلح الخطأ :

ـ وما فائدة الأثواب الكثيرة إذا كنا لانخرج إلا نادراً ؟ لا تطلبي شيئاً من البيت ، فلدىّ ثوب حريرى أزرق ، ولست فى حاجة إليه . فهل ترتدينه يوم الثلاثاء إكراماً لى ؟

قالت ميج :

ـ أشكرك كل الشكر . ولكنى أفضل أن أرتدى ثوبى ، إذا لم يكن فى ذلك إحراج لكن فهو مناسب جداً لفتاة فى مثل سنى .

قالت بل تقنعها :

ـ بل دعينى أمتع نفسى برؤيتك فى خير الثياب وأجملها ، وستكونين رائعة الحسن بلا شك ، ولن أسمح لأحد أن يراك قبل أن أنتهى من تزيينك كما أشتهى ، وعندئذ أدخل بك على الناس ، كما دخلت سندرلا المرقص مع أمها الطيبة .

وكان الرجاء مهذباً لطيفاً ، فلم تقو ميج على الرفض ، وتحرك غرورها فتملكتها رغبة فى أن تكون رائعة الحسن أنيقة ، وأنستها رغبتها هذه ما كانت تشعر به من مرارة نحو آل موفات .

وفى مساء الثلاثاء المعهود عكفت بل بمساعدة خادمتها الفرنسية ، على تحويل ميج إلى سيدة جميلة ، فتعاونتا معاً على تصفيف شعرها ، وتعطير وجهها وذراعيها ، ودهن شفتيها ووجنتيها بحمرة خفيفة ، ثم ألبستاها بعد ذلك الثوب الأزرق . وكان ضيقاً عند الخصر ، واسعاً عند الصدر ،

حتى استبد الخجل بالفتاة ، وهى تتطلع إلى صورتها المنعكسة أمامها على المرآة . ولم تنس بل أن تحلى معصم صديقتها بالأساور ، وعنقها بالعقود ، وأذنيها بقرط فريد فى نوعه ، وثبتت الخادم باقة من الورود الحمراء فى صدر ميج ، وألبستها حذاء ذا كعب عال من النوع الذى كانت تشتهيه نفسها . وأكملت الزينة بمنديل مزركش ، ومروحة لها مقبض فضى . قالت بل وهى تتأمل ميج راضية :

— أنت دمية رائعة الحسن .

وصاحت الخادم الفرنسية تقول معجبة :

— أليست الآنسة فاتنة جدا ؟

قالت بل ، وهى تقود ميج إلى حيث اجتمع البنات فى انتظارها :

— تعالى وابهرينهن بجمالك .

وسارت ميج تحف بها أذيال ثوبها ، والقرط يلمع فى أذنيها ، وكان قلبها يدق سريعاً لفرط طربها ، بعد أن حدثتها المرآة بجمالها الباهر . وطرب البنات لمرآها ، وأقبل الأصدقاء يطرون محاسنها ، فسر بل أن تنجح فى مهمتها ، فقالت لأختها :

— علميها يا آنى كيف تحمى أذيال ثوبها من حذائها ، وإلا تعثرت فى سيرها . وأنت يا كلارا ضعى فراشتك الفضية فى وسط شعرها ، واشبكى الخصلة المتدلية منه ، واحذرن جميعاً أن تفسدن السحر الذى صنعته بيدى .

ودق الجرس ، فأرسلت مسز موفات تستدعى البنات إلى بهو الحفلة ، فقالت ميج لصديقتها سالى :

ـ أخاف أن أدخل الحفلة ، وأنا نصف عارية بهذا الشكل .

قالت سالى ، وهى تحاول أن تخفى غيرتها :

ـ قد تغير شكلك تماماً ، وأصبحت جميلة بمعنى الكلمة ، ولن أكون شيئاً مذكوراً بجانبك ، فإن بل ذات ذوق ممتاز ، وأنت فرنسية الطابع . دعى زهورك تهدل ، ولا تكثرى من الالتفات إليها ، وحاذرى أن تتعثرى فى أذيالك .

وعملت ميج بالنصائح فى حذر ، فهبطت السلم فى أمان ، ثم سارت إلى حجرة الجلوس حيث اجتمع آل موفات مع من بكر من الضيوف بالحضور. وكشفت لأول وهلة كم للثياب الأنيقة من سحر فى نفوس بعض الناس ، إذ أقبل عليها المدعوات معجبات ، وأحطنها بالعطف بعد أن تجاهلن وجودها منذ أيام ، واجتمع الشبان حولها وتسابقوا إلى خطب ودها ، ولم يبخلوا بالثناء عليها فى عبارات أعجبتها رغم سخافتها . وحتى العجائز اللواتى دأبن على النقد ولم تنج واحدة من ألسنتهن ، سألن عن اسمها باهتمام ، وسمعت ميج مسز موفات تقول لإحداهن :

ـ إنها مارجريت مارش ابنة ضابط كبير فى الجيش ، ومن أحسن العائلات وأعرقها ، ولكن المال ينقصها ، وهى صديقة حميمة لآل لورنس ، وتدله فى حبها ابنى نِدْ .

وتمتمت العجوز متعجبة ، وعادت تنظر إلى ميج من خلال عويناتها ، تستكمل فحصها الدقيق ، فتذرعت الفتاة بالثبات ، وتظاهرت بأنها لم تسمع شيئاً من حديث مسز موفات العامر بالادعاءات والأكاذيب.

وسارت الأمور على ما ينبغى ، وخيل إلى ميج أنها تتقن أداء دور الفتاة الحسناء ، وقد أتقنته بالفعل ؛ رغم أن خصر الثوب كان يخز فى وسطها لشدة ضيقه ، وكعب حذائها يشتبك بذيولها أحياناً ، وخوفها الدائم من أن يسقط القرط من أذنها ، فتطؤه الأقدام وتهشمه .

ووقفت ميج تداعب مروحتها ، وهى تصغى ضاحكة إلى ملح سخيفة يرويها على مسامعها صديق متظرف ، ثم سكتت عن الضحك بغتة ، وغشاها قلق واضطراب ، فقد رأت لورى يقف قبالتها ، وفى نظراته أبلغ معانى الدهشة والاستنكار . ورغم أنه انحنى باسماً يحييها ، غير أن لمحة فى عينيه الصريحتين ، بعثت حمرة الخجل فى وجنتيها ، وجعلتها تتمنى أن لو كانت ترتدى ثوبها القديم ، وقد ازداد حرجها لما رأت آنى وبل تتغامزان ، وتشيران إليها وصديقها لورى الذى بدا فى بزة السهرة أصغر سناً من حقيقته .

وسارت تعبر الحجرة إليه ، وهى تقول فى نفسها :

ـ لن أدع أولئك السخيفات يفسدن صداقتى بلورى ، أو يغيرن بشكوكهن البلهاء شعور الأخوة بيننا .

ثم قالت للورى وهى تصطنع لهجة الفتاة الكبيرة الناضجة :

ـ إنى سعيدة بحضورك ، وكنت أخشى أن تعتذر .

وابتسم لورى فى عطف وأجاب دون أن ينظر إليها :

ـ جئت إرضاء لجو ، فقد أرادت أن آلبى الدعوة ، حتى أراك وأحدثها عنك .

واستبد بها الفضول ، وأرادت أن تعرف رأيه فيها ، فقالت والقلق مازال يساورها :

ـ ماذا تنوى أن تقول لها ياترى ؟

أجاب وهو يعبث بقفازه :

ـ سأقول لها إننى لم أعرفك لأول وهلة ، فأنت تبدين أكبر سناً ، ولست تشبهين ميج التى أعرفها ، وأشعر بخوف شديد منك .

واستبدت بها رغبة شديدة فى أن تنتزع كلمات الإعجاب صريحة من فمه ، فقالت :

ـ ألبسنى البنات هذه الملابس الجميلة ، ألا تعتقد أن جو ، إذا رأتنى بها ، تقف دهشة مأخوذة ؟

قال :

ـ لست أشك فى ذلك .

فسألته :

ـ ألا يعجبك شكلى ؟

قال بصراحة خشنة :

ـ لا . . لا يعجبنى .

قالت بلهفة :

ـ ولم لا ؟

فنظر إلى شعرها المجعد ، وكتفيها العاريتين ، وثوبها الخليع المزركش ، نظرة أخجلتها ، وقال فى نبرات خلت من لباقته المعهودة :

ـ إنى لا أحب الغرور والخيلاء .

وكان رده أكثر مما تحتمله من صبى فى سنه ، فقالت وهى تنصرف عنه غاضبة :

ـ أنت أوقح صبى عرفته فى حياتى!

وابتعدت عنه فى انفعال شديد ، واختارت من القاعة جانباً هادئاً تعالج فيه غضبها وحيدة ، واتخذت موقفاً بجوار إحدى النوافذ حتى يخفف هواء الليل البارد احتقان خديها ، فإذا بالكولونيل لنكولن يمر بها فى صحبة والدته ، وسمعته يقول :

ـ كنت أود أن أريها لك ، ولكن البنات أفسدن شكلها تماماً ، وجعلن منها أضحوكة لا تستحق النظر .

وتنهدت ميج ، وقالت فى نفسها :

ـ ليتنى رضيت بملابسى القديمة ، فلو أننى ارتديتها ، ما نفر الناس منى ، وما خجلت من نفسى كل هذا الخجل .

وأسندت جبينها إلى زجاج النافذة البارد ، وأخفت جسدها وراء

الستائر ، غير عابئة برقصة الفالس التى تحبها ، وظلت فى مكانها ساهمة واجمة ، حتى أحست بيد تلمسها . والتفتت ميج خلفها فرأت لورى ينظر إليها وعلى وجهه أبلغ أمارات الندم ، قال فى انحناءة رشيقة :

ــ اغفرى لى وقاحتى ، وهيا بنا نرقص الفالس .

وأرادت أن تتظاهر بالغضب ، ولكنها لم تفلح ، فقالت فى ذلة :

ــ أخشى أن تضايقك رفقتى .

قال :

ــ أبداً فإنى أتوق إلى الرقص ، وأحب أن تكونى غفورة متسامحة . لست أنكر أن ثوبك لا يعجبنى ، ولكنك جميلة رائعة .

ولوح بيده كأن الكلمات لا تسعفه .

فابتسمت ميج فى استسلام ، وسارت معه إلى الرقص تقول :

ــ احذر أن تدوس ذيل الثوب ، فقد جشمنى متاعب كثيرة ، وكانت حماقة أن أرتديه .

قال وهو ينظر إلى حذائها ولا يخفى إعجابه به :

ــ ارفعى الذيول إلى أعلى ، تلافياً للخطر .

ودخلا الحلبة يرقصان سوياً فى رشاقة وانسجام ، وكان متكافئين طولا وسنا ، فتبعتهما العيون معجبة ، وهما لاهيان عنهما بحبورهما وسعادتهما ، فقد شعرا أن المعركة الصغيرة التى نشبت بينهما دعمت صداقتهما أكثر من ذى قبل .

قالت ميج عند ما انتهى الرقص ، ووقفت تروح عن نفسها وتلتقط أنفاسها اللاهثة :

ـ أريد مكرمة منك يا لورى .

قال :

ـ اطلبى ما تشائين .

قالت :

ـ لاتحدثهن فى البيت عن هذا الثوب ، فأخشى ألا يفهمن الأمر على حقيقته ، وربما أغضب أمى ما فعلت .

قال فى تساؤل واضح :

ـ إذاً لماذا ارتديته ؟

قالت :

ـ أفضل أن أخبرهن بنفسى ، ولن أتردد عن الاعتراف لوالدتى بغباوتى وحماقتى . فمن الخير أن تترك الأمر لى .

قال :

ـ أعدك بذلك ، ولكن خبرينى ماذا أقول إذا سئلت .

أجابت :

ـ قل فقط إننى كنت جميلة سعيدة .

قال :

ـ سأكتفى بالشطر الأول من الخبر ، أما عن السعادة فلست أرى

علائمها عليك .

وكان فى نظرته ما جعلها تقول بصوت خفيض :

ـ لم أكن سعيدة فى بداية الأمر ، ولكن السعادة لا تنقصنى الآن ، وأرجوألا تسئ الظن بى ، فما ارتديت الثوب إلا سعياً وراء متعة بريئة ، وقد نلت نصيبى منها واكتفيت .

قال لورى ، وقد انعقد حاجباه الأسودان :

ـ أرى ندّ موفات يقبل علينا ، فماذا يريد ياترى ؟

وكان واضحاً أنه لا يرحب بقدوم مضيفه الصغير ، ولا يسر بحضوره فى تلك اللحظة . قالت ميج فى تراخ أدهش لورى :

ـ كنت قد وعدته بثلاث رقصات ، وأظنه جاء يذكرنى بها ، ولكن حماسى فترت ولا أشعر برغبة شديدة فى الرقص .

وسارت الحفلة فى مجراها ، ولورى لا يتحدث إلى ميج ، حتى حان موعد العشاء، فرآها تشرب الشمبانيا مع ند، وقد ضايقه منها أنها تفعل ذلك ، إذ كان يشعر أنه بمثابة الأخ لبنات مارش ، ومن أوجب واجباته أن يحميهن من كل سوء يتعرضن له . ولم يكن يليق بفتاة فى سن ميج أن تشرب الشمبانيا ، فانتهز أول فرصة وهمس فى أذنها يقول :

ـ لا تكثرى من الشمبانيا ، وإلا أصابك صداع شديد فى الصباح ، وتذكرى أن والدتك لا توافق على مثل هذه التصرفات .

قالت تفتعل ضحكة :

ـ لست فى هذه الليلة ميج التى تعرفها ، وما أنا إلا دمية تقوم بأعمال طائشة ، وغداً أخلع ثوب خيلائى وغرورى ، وأستعيد سابق طيبتى وصلاحى .

قال :

ـ ليتك تبدئين من الآن .

ثم سار مبتعداً عنها ، وقد ساءه ما حاق بها .

واقتفت ميج خطوات الفتيات الأخريات ، فرقصت وثرثرت وضحكت ، ولما انتهى العشاء عادت إلى حلبة الرقص تطوف بها مع زميلها مسرعة ، فتكاد تسقطه على الأرض لكثرة ما تعثر فى ذيل ثوبها . وكانت تمايل فى شكل استقبحه لورى ، فأعد لها تأنيباً قاسياً ، ولكن الفرصة لم تواته ، فقد تحاشته الفتاة طوال السهرة ، حتى حان موعد الانصراف ، وأقبل عليها مودعاً ، فقالت وهى تصطنع ابتسامة رغم ما تعانيه من صداع شديد :

ـ تذكر ما اتفقنا عليه .

قال بلهجة تمثيلية :

ـ السكوت حتى الموت ! !

ثم انصرف عنها مسرعا .

وأثار حديثها مع لورى فضول آنى موفات ، فسعت إلى معرفة مادار بينهما ، ولكن ميج رغبت عن الحديث لفرط تعبها ، فذهبت إلى فراشها

وهى تشعر كأنها كانت فى حلم لم تستمتع به بقدر ما كانت تحب أن تستمتع .

ومضى اليوم التالى وما زالت تعبة مرهقة ، وفى يوم السبت عادت إلى بيتها ، بعد أن قضت أسبوعين فى ضيافة آل موفات ، وشعرت أنها نالت كفايتها من حياة الدعة والترف .

وفى مساء ذلك اليوم ، جلست ميج إلى أمها وأختها چو ، تقول راضية :

— جميل أن يعود الإنسان إلى هدوء بيته المتواضع ، بعد طول الرياء والتصنع .

وكانت أمها قد لاحظت ما اعترى ابنتها من تغير ، فنظرت إليها بقلق وقالت :

— يسعدنى أن أسمع ذلك ، فقد كنت أخشى أن تعودى إلى بيتك ، أكثر تذمراً بالفقر من ذى قبل .

وروت ميج لأخواتها أخبار مخاطراتها ومسراتها ، وأكدت لهن مرة بعد مرة مبلغ سعادتها وهنائها ، ولكن هماً دفيناً كان يثقل نفسها ، فلما ذهبت أختاها الصغيرتان إلى النوم ، جلست ميج تتأمل نيران الموقد شاردة الذهن مهمومة ، حتى دقت الساعة تسعاً ، واقترحت چو أن تأوى إلى غرفتها ، إذ ذاك نهضت ميج عن مقعدها فجأة ، وقبعت على كرسى بث الصغير بجوار قدمى أمها ، وقالت بشجاعة :

ـ أريد أن أعترف بذنوبى يا أماه .

قالت مسز مارش :

ـ هذا ما كنت أنتظره يابنيتى .

قالت چو بصوت خافت :

ـ أتفضلين أن أترككما وحدكما ؟

قالت ميج :

ـ لا ، ولا يسيئنى أن أتحدث فى حضرتك ، فقد تعودت أن أصارحك بكل شىء ، وما سكتُّ عن الكلام إلى الآن إلا خجلا من أن أعترف بمباذلى على مسمع من أختىَّ الصغيرتين .

ورغم قلق مسز مارش الواضح ، قالت باسمة :

ـ كلى آذان صاغية .

قالت :

ـ ذكرت أنهن أعرنى ثوباً من ثيابهن ، ولكنى لم أقل إنهن طلين وجهى بالمساحيق ، وشددن خصرى وجعدن شعرى ، حتى صرت كإحدى عارضات الأزياء ، ولا أشك فى أن لورى تألم كثيراً لما فعلت ، واعتبره خروجاً على دواعى الاحتشام المستحب . وكانت حماقة بالغة ، ولكنى أردت أن أثير الإعجاب ، فجعلت من نفسى أضحوكة الناس .

ونكست ميج رأسها بذلة ، وبدت عليها مظاهر الندم الشديد ، فلم يطاوع مسز مارش قلبها على تأنيبها . وقالت :

ـ أهذا كل مافعلت ؟

قالت فى ندم بالغ :

ــ بل ذهبت إلى أبعد من ذلك : شربت الشمبانيا ، وتمايلت فى الرقص . وكنت فى تصرفاتى مثلا للرعونة والطيش .

فربتت مسز مارش الخد المتقد بنيران الخجل ، وقالت :

ــ ليس هذا كل شىء على ما أعتقد .

قالت ميج :

ــ هناك أمر آخر سخيف . ولكنى أفضل أن أحدثك به . فليس أبغض إلى نفسى من أن يتقوّل الناس عن صداقتنا بلورى .

ثم روت لأمها ما قاله آل موفات فى الحديقة ، ولاحظت جو كيف زمت مسز مارش لهذا الحديث شفتيها ، كأنها تستنكر أن تدخل مثل هذه الأفكار رأس ميج الساذجة . فصاحت جو تقول فى ترفع :

ــ هذا أسخف ما سمعت فى حياتى ، وكان واجبك أن تظهرى نفسك لهن ، وتضعى الأمور فى نصابها .

قالت :

ــ لم أجرؤ على ذلك ، فقد غلبنى الارتباك فى بداية الأمر ، ثم ألجمنى الغضب عن الحركة والكلام ، فلم أفكر حتى فى مغادرة مكانى

قالت جو :

ــ ويل لآنى موفات حين أراها وأسوى معها هذه المهزلة . أيظن هؤلاء الأغبياء أننا ننصب الشباك حول الصبى الغنى ، ونسعى إلى اقتناصه زوجاً

فى الوقت المناسب ؟ آه لو سمع لورى بهذه السخافات ! !

وضحكت چو عندما تصورت كم يغضب صديقها إذا حدثته بالقصة .

قالت ميج تحذرها :

— لن أصفح عنك إذا حدثته بذلك ، أيصح أن نقول له مثل هذا الكلام يا أماه ؟

قالت مسز مارش بجد :

— إياك أن تعيدى القصة على مسامعه ، وانسيها بأسرع ما يمكن . وكان خطأ منى أن سمحت لك ياميج بزيارة قوم لا أعرفهم إلا قليلا ، وأعتقد أننى ألحقت بك ضرراً بليغاً ، فما كان يجوز أن أبعث بك إلى أناس ماديين ، تملأ رءوسهم أفكار نابية ، لست أشك فى طيبة قلبهم ، ولكن نصيبهم من حسن التربية قليل .

قالت ميج فى حرج مما اعترفت به :

— اطمئنى يا أماه ، إن ضرراً لن يصيبنى ، وثقى بأننى لن أذكر إلا الخير مما رأيت ، وإنى لأشكرك جزيلا أن سمحت لى بالذهاب ، فقد تمتعت كثيراً ، وتعلمت أيضاً أن القناعة كنز لا يفنى . لقد خرجت على تعاليمك ، ولكنى تبينت الحقيقة الآن ، ولن أتخلى عن مشورتك ، حتى أصبح قادرة على رعاية نفسى بنفسى . وكنت أسعى إلى الإطراء والمديح ، فحدث ما حدث .

قالت :

ـ كلنا يحب الإطراء يابنيتى ، ولكن لا يصح أن نذهب فى السعى إليه إلى حد المبالغة ، فنأتى أفعالا لاتليق بنا . تعلمى أن تطلبى من المديح ما تستحقينه فقط . واعملى على أن تثيرى إعجاب الناس بفضلك وحسن أخلاقك .

وجلست مارجريت تفكر ساهمة ، فوقفت چو تتأملها فى دهشة وحيرة ، إذ كانت هذه أول مرة ترى فيها وجه أختها الكبرى يحمر بالخجل ، ولم يسبق لها أن سمعتها تتحدث عن الإعجاب والإطراء والشبان بمثل هذه اللهجة ، وأحست چو أن أختها قد كبرت خلال الأسبوعين الماضيين بدرجة ملحوظة ، وأنها بدأت تنزلق بعيداً عنها إلى دنيا جديدة ليس فى استطاعتها أن تتبعها إليها .

قالت ميج تسأل أمها بحياء :

ـ أحقاً ماتقوله مسز موفات من أنك تضعين بشأننا خططاً ؟

قالت :

ـ نعم . . إنى أضع خططاً كثيرة ، شأنى فى ذلك شأن الأمهات جميعهن ، ولكن خططى تختلف قليلا عما تظنه مسز موفات ، ولست أرى بأساً فى مصارحتك بها الآن ، فقد كبرت ياميج وحان الوقت لأن أرشدك إلى ما فيه خيرك حتى لا يقودك رأسك العاطفى الصغير إلى غير الطريق الذى أبتغيه لك ، ولن تجدى أصدق من الأم ناصحاً ومرشداً .

أما أنت يا چو ، فلم يحن دورك بعد . ولكنى أحب أن تصغى إلى خططى وتعاونينى على تنفيذها إذا اقتنعت بفائدتها .

وجلست چو على ذراع مقعد أمها ، وقد بدا عليها الاهتمام الشديد ، وأمسكت مسز مارش بيدى ابنتها وجعلت تنظر بجد فى الوجهين الصغيرين ، قالت :

— أريد أن تكون بناتى جميلات متعلمات طيبات ، وأحب أن ينلن عطف الناس وحبهم واحترامهم . وأن يتزوجن خير الزيجات وأكثرها توفيقاً ، وأن يعشن حياة نافعة سعيدة ليس فيها من أسباب الخوف إلا قليلا . لست أنكر أن أجمل ما فى حياة المرأة أن يسعدها الله بزوج طيب ، وإنى لأرجو أن ينال بناتى هذه النعمة الجزيلة . ولست أرى حرجاً ياميج فى أن نفكر فى الزواج ، ونعد له أنفسنا خير إعداد ، فإذا حان الوقت المناسب ، كنا جديرات بحقوقه وواجباته . ولكنى لا أذهب فى طموحى إلى حد الرغبة فى أن تتزوجن أغنياء من أجل مالهم فحسب ، فالذهب لا يصنع السعادة ، إنما يصنعها الحب والإخلاص ، وإنى أفضل أن أراكما سعيدتين مع زوجين فقيرين عن أن تسكنا قصوراً خلت من سعادة الحب . لست أشك فى أن المال أداة نافعة فى الحياة . ولكنه ليس هدفاً نسعى إليه إنما وسيلة نحقق بها الخير الذى نبتغيه .

فتنهدت ميج وقالت :

— ولكن « بل » تعتقد أن الفقيرة لا حظّ لها من الزواج ، ما لم تشق

إليه طريقها بنفسها .

قالت چو فى كبرياء :

ــ أفضل أن أقضى الحياة عانساً عن أن أمتهن نفسى بالسعى إليه .

قالت مسز مارش :

ــ صدقت يا چو ، فأكرم لك أن تكونى عانساً سعيدة ، من أن تكونى فتاة مبتذلة تجرى وراء الرجال .

والتفتت إلى ميج تقول :

ــ لاتقنطى يا بنيتى ، فالفقر لا يقف دون الحب الحقيقى ، وكم من نساء فقيرات سعدن بالزواج وعشن فى سعادة وهناء . دعى هذه الأمور للزمن ، وابحثى عن السعادة فى هذا البيت ، واقنعى بما فيه من هناء ، حتى يمن الله عليك ببيت آخر تجعلينه بالحب جنة وارفة الظل . ونصيحتى لكما أن تضعا ثقتكما فى أمكما وأبيكما ، فنحن أخلص الأصدقاء لكما ، وكل أملنا أن يظل بناتنا فخراً لنا ، سواء تزوجن أم عشن وحيدات .

صاحت الفتاتان تقولان بإخلاص :

ــ سنذكر هذه النصيحة دائماً . . يا أماه .

وقامت مسز مارش تقبلهما وتحييهما تحية المساء .

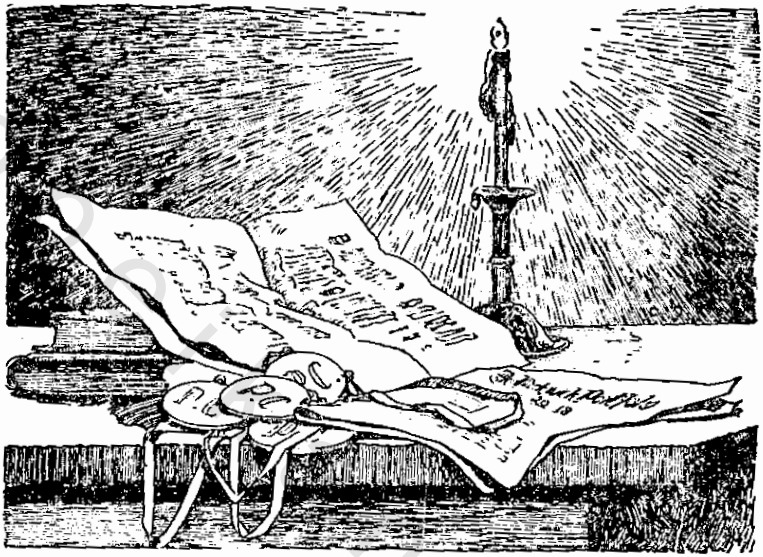

الفصل العاشر

ندوة الأدباء

عندما حل الربيع واتسعت ساعات النهار لمزيد من اللهو واللعب ، وجد بنات مارش أن حديقة بيتهن تتطلب إعداداً وتنظيماً ، فاختصت كل فتاة منهن بربع منها ، تنسقه وتزرع فيه ما تشاء ، وكانت حنة ، التى درست أخلاق البنات دراسة وافية لطول عهدها بالأسرة ، تقول :

ـ يمكننى أن أعرف صاحبة كل ربع مما تزرعه .

ولم تكن تجانب الحق فى ذلك ، فقد كانت ميول البنات تختلف

بعضها عن بعض كل الاختلاف : فهيج تهوى الورود ولا ترضى عنها بديلا ، وچولا تستقر على لون من ألوان النبات ، فتغير فى كل فصل وتجدد ، وانصبّ اهتمامها فى هذه السنة على زراعة عباد الشمس كى تطعم ببذوره دجاجتها وكتاكيتها ؛ وكانت بث تفضل الأزهار العبقة ، فتجد فى حقلها الصغير البازلا أو الربيان والعائق والبنفسج ، وإلى جانب ذلك خضراوات تطعم بها عصفورها ؛ أما آمى فكانت تميل إلى حشد حديقتها بمختلف أنواع الأزهار الكبيرة اللافتة للنظر ، ولا تراعى فى زرعها نظاماً أو تنسيقاً ، فترى حديقتها مزدحمة بالزنابق وزهور الصباح المتدلية والأبصال المتباينة فى ألوانها وأشكالها .

وفى أيام الصحو ، كان البنات يقضين أوقات فراغهن فى الحديقة أو فى التجديف أو فى جمع الأزهار البرية من الحقول ، فإذا سقطت الأمطار ، اقتصر نشاطهن على أوجه التسلية المنزلية القديم منها والجديد . وكانت الجمعيات السرية طابع العهد الذى يعشن فيه ، فاقتبس البنات فكرتها فى ألعابهن وألفن جمعيـــة سرية أطلقن عليها « ندوة الأدباء » ، وقد ظل نشاط هذه الجمعية مجهولا لبقية أفراد الأسرة عاماً كاملا ، فكن يجتمعن فى غرفة السطح مساء الأحد من كل أسبوع ، فيتبعن المراسيم التى قررنها منذ بداية الأمر ، فتوضع مقاعد ثلاثة حول منضدة عليها مصباح وأربع شارات مختلفة الألوان ، كتب على كل منها « ندوة الأدباء » ، وبجانب هذه الشارات توضع صحيفة الندوة ، وكن يسمينها

« صوت الأدب » ، وكانت چو تقوم بنسخها لجمال خطها . وكل من الأربع تسهم بنصيب فى تحريرها .

وفى تمام الساعة السابعة ، يصعد الأخوات إلى مقر الندوة ، فيربطن الشارات حول رءوسهن ، ويتخذن مقاعدهن فى وقار وجلال ، وكانت كل واحدة منهن قد اختارت لنفسها اسم أديب عظيم من أدباء العصر ، وتقمصت شخصيته على قدر الإمكان ، وكانت ميج تلعب دور الرئيس ، فتتصدر المائدة ، وتبدأ الاجتماع بقراءة الصحيفة التى امتلأت بالقصص والأخبار والإعلانات والفكاهات والمغامرات البريئة .

وفى أحد هذه الاجتماعات ، جلس الرئيس وقد وضع على عينيه إطار عوينات بلا زجاج . وضرب المائدة بيده إيذاناً بالبدء ، ثم وقف متعالياً ينظر شزراً إلى عضو كان يجلس بغير احترام ، ويسند ظهر كرسيه إلى الحائط ، فخجل العضو لسلوكه واعتدل فى مجلسه ، واتخذ سمة الأدب والاحترام .

وعندما اطمأن الرئيس إلى استتباب النظام ، تناول صحيفة الندوة وشرع يقرأ « صوت الأدب » ، فقال :

صوت الأدب

٢٠ من مايو

تهنئة بمناسبة مرور عام على تأسيس الجريدة .

نجتمع اليوم احتفالا بصدور العدد الثانى والخمسين من صحيفتنا الغراء ، وقد ارتدينا شاراتنا المقدسة ، وامتلأت قلوبنا خشوعاً ووقاراً ، ونحمد الله على أننا فى صحة كاماة ، وأن فرداً لم ينقص من جماعاتنا الصغيرة ، وأن الفرصة عادت فجمعتنا ، لنرى الوجوه المألوفة ونصافح الأيدى الصديقة .

إننا نحيي الرئيس تحية حارة ملؤها التقدير والاحترام ، ونقدم له فروض الولاء والتبجيل ، وهو يتصدر اجتماعنا ، وقد وضع عويناته على أرنبة أنفه ، ونحمد الله على شفائه من البرد الذى ألمّ به ، ونشكره تعالى أن مكنه من أن يقرأ لنا صحيفتنا ، ويتحفنا بالدرر التى تتساقط من فمه ، رغم صوته الخشن المتحشرج المبحوح .

لقد مضى بنا عام ونحن متحدون ، نسعد أوقاتنا بالضحك والمزاح والقراءة ، ونبنى مستقبلنا بجد واجتهاد ، ونمهد الطريق أمامنا إلى ذروة

الأدب ، فالله ندعو أن يديم نجاحنا ، وأن يكتب الرواج الدائم لصحيفتنا ، وأن يمتع ندوة الأدباء بالسعد والهناء . »

ا. سنود جراس (چو)

* * *

قصة

الزواج المقنع

قصة من البندقية بقلم الأديب س . بيكوياك (ميج)

رسا أمام السلم المرمرى ، جندول وراء جندول ، وتوافد المدعوون والمدعوات فى ثيابهم البهيجة الغالية ، حتى غصت بهم أبهاء قصر الكونت أديلون الفخمة الواسعة . واختلط الأشراف والفرسان والسيدات بالحراس والفقراء وبائعات الورد ، واشترك الجميع فى رقص مرح على أنغام الموسيقى والغناء ، وفى هذا الجو المرح مضى الحفل التنكرى الأنيق .

وانحنى الشاعر اللبق أمام ملكة القصر وقال :

— هل رأت جلالتك ليدى فيولا هذه الليلة ؟

أجابت الملكة :

— رأيتها وكانت رغم حزنها رائعة الجمال ، وقد أحسنوا اختيار ثوبها ، فبعد أسبوع تزف إلى الكونت أنطونيو الذى تمقته من صميم قلبها .

قال الشاعر :

ــ إنى أغبطه وأيم الحق ، وهأنذا أراه قادماً فى ملابس العرس ، وعلى وجهه قناع أسود ، فلننتظر حتى يرفع قناعه لنرى كيف ينظر إلى عروسه التى استعصى عليه قلبها ، وإن كان والدها قد قبل زواجها منه .

وسارت الملكة مع الشاعر إلى حلبة الرقص ، وهمست فى أذنه :

ــ يتحدث الناس بأنها مدلهة بحب فنان إنجليزى ، ويقال إن والدها باغته وهو يحوم عند سلم القصر فطرده شر طردة .

وكان الحفل فى معمعانه ، عندما دخل إلى البهو قسيس ، وانتحى بالفتاة وعريسها غرفة جانبية ، وطلب منهما أن يركعا أمامه استعداداً لمراسيم الزواج . وساد القوم سكون وهدوء لا يعكره إلا خرير المياه وحفيف الأوراق وهى تتحرك تحت لمسات النسيم العليل فى ضوء القمر الفضى . هتف الكونت أديلون بمدعويه يقول :

ــ أيها السيدات والسادة ، جمعناكم الليلة بخدعة لطيفة كى تشهدوا زواج ابنتى من خطيبها الكونت أنطونيو .

والتفت إلى القس يقول :

ــ سر فى مراسيمك أيها الأب الجليل ، فنحن فى الانتظار .

والتفتت العيون إلى العروسين ، وسرت فى القاعة همهمة الدهشة والاستغراب ، عندما ركع الاثنان أمام القس بقناعيهما ، ولم يكن ذلك مستساغاً ، فثار فضول الناس ، ولكن جلال الموقف منعهم من الكلام .

ولما انتهت مراسيم الزواج ، التف القوم حول الكونت يستفسرون ويستوضحونه ، فقال :

— ليس هناك ما يدعو إلى توضيح . فقد رغبت ابنتى فيولا أن تتزوج الليلة ، وأن تتم المراسيم بهذه الصورة ، فلم أر ما يمنع من تحقيق رغبتها .

والتفت الكونت العجوز إلى العروسين وقال :

— لقد انتهينا من أداء الدور الذى طلبتماه ، فاخلعا قناعيكما ، كى أهنئكما وأباركما .

ولكن العروسين لم يركعا أمام الكونت . إنما تقدم العريس وحده ، ورفع القناع الأسود عن وجهه ، فإذا به الفنان الإنجليزى ، الذى أحبته فيولا وطرده أبوها . وسارت إليه عروسه باسمة راضية ، وأسندت رأسها على صدره الذى التمعت فوقه نجمة ذهبية ، هى شعار أشراف الإنجليز .

قال الفنان فى صوت أجفل له الحاضرون :

— سيدى اللورد ، قد طردتنى من قصرك ، وأبيت أن تزوج ابنتك إلا لمن يعادل الكونت أنطونيو حسباً وثراء ، إن لدىَّ من المال أكداساً تشبع أطماعك ، ولا أظنك تبخل بابنتك على سيد أشراف الإنجليز إيرل ديفير و وديفير ، فهل تقبل ثروتى الطائلة ونسبى الرفيع فى مقابل يد ابنتك التى أصبحت زوجتى ؟

وتسمر الكونت فى مكانه . ولم ينطق لفرط دهشته بكلمة واحدة ،

فالتفت الشريف الإنجليزى إلى الجمع وقال وعلى فمه بسمة الانتصار :

ـ أما أنتم يا أصدقائى الأشراف ، فالله أدعو أن يحقق آمالكم كما حقق آمالى ، وأن يسعدكم مثل ما أسعدنى الليلة بزواج حبيبتى الجميلة فى هذا الحفل التنكرى .

قصة حياة عنقود عنب

بقلم ت. توپمان . . (بث)

« يحكى أن فلاحاً زرع بذرة صغيرة فى حديقته ، ولم تلبث هذه البذرة أن نبتت وأينعت وصارت كرمة كبيرة تتدلى منها عناقيد العنب الشهية . وفى صباح يوم من الأيام اختار الفلاح أجمل عناقيده ، فقطفه وحمله إلى السوق كى يبيعه ، فاشتراه منه بدال وعرضه فى واجهة متجره . ومرت بالمتجر فتاة صغيرة ذات وجه مستدير وأنف قصير ، وكانت ترتدى ثوباً أزرق اللون وقبعة بنية ، فلما رأت العنقود بادرت بشرائه لأمها ، وحملته إلى البيت حيث قطعته وغلته فى الماء ، ثم عصرت جزءاً منه ، وأضافت إلى العصير زبداً وسمناً ، وقدمته للعشاء . أما الباقى فقد خلطته بملء كوب من اللبن وبيضتين وأربع ملاعق من السكر ، وأضافت إلى الخليط بعض اللوز والبسكوت ، ووضعته فى إناء عميق ، وأدخلته الفرن حتى احمر لونه ، وفى اليوم التالى أكلته أسرة اسمها أسرة مارش » .

رســـالة

بقلم ن. وينكل (آمى)

سيدى رئيس ندوة الأدباء

أكتب إليك بخصوص حديثك عن الذنوب والمذنبين ، فقد كنت تشير بذلك إلى من يدعى وينكل ، فتتهمه بإثارة المتاعب فى اجتماعات الندوة ، وتتهمه بالإهمال فى كتابة نصيبه من موضوعات الصحيفة . وكل ما أرجوه من سيدى الرئيس ، أن يصفح عن إهمال هذا العضو ، وأن يأذن له بإرسال قطعة من الأدب الفرنسى ، فإن مشاغله فى الدروس والمذاكرة تحول بينه وبين تأليف قطعة مبتكرة . وأعدك يا سيدى بأن يبعث إليك فى العدد القادم قطعة ممتازة تستحق الذكر والإعجاب .

وختاماً أقدم بالغ . احترامى » .

* * *

ملحوظة من رئيس التحرير

فى هذا الخطاب اعتذار كاف من حضرة العضو ، وأنصحه أن يزيد اهتمامه بالمذاكرة حتى لا يخطئ فى الهجاء كثيراً .

حادث يؤسف له

« ساد الفزع يوم الجمعة الماضى ، إثر سماعنا صوت ارتطام جسم ثقيل بالأرض فى الطابق السفلى من المنزل ، واستبد بنا الهلع عندما تناهى إلى آذاننا صراخ وعويل ، ونزلنا إلى المخزن مسرعين ، فوجدنا رئيسنا المحبوب منبطحاً على الأرض ، والمكان من حوله فى فوضى واضطراب ، وأدركنا والأسف يملأ قلوبنا ، أنه كان بسبيل إحضار بعض الأخشاب لأغراض منزلية ، فانزلقت قدمه ، وسقط برأسه وكتفيه فى حوض الماء ، واصطدم جسمه بصندوق الصابون ، فانقلب فوق شخصه المبجل . ولما أنقذنا الرئيس من سقطته ، كانت ملابسه ممزقة بشكل مخجل ، وليس بجسده ، لحسن الحظ ، سوى عدد وفير من الكدمات ، ولكنها بسبيلها إلى الشفاء .

المحرر »

* * *

أحزان شعبية

« وقع حادث غامض ، اختفت على أثره الصديقة العزيزة مسز سنوبول ، تلك القطة المدللة التى عرفها الأصدقاء والمعجبون مثلا فى

الرشاقة والجمال والأدب . ولا شك أن اختفاءها يعتبر خسارة فادحة ، تئن لها الجماهير حزناً ولوعة .

وقد شوهدت لآخر مرة . تراقب عربة الجزار ، ومنذ ذلك الحين لم يظهر لها أثر . ويتجه الظن إلى أن أحدهم رآها ، فأغراه جمالها الفاضح بسرقتها فى ضعة وخيانة . ورغم الجهود الشاقة التى بذلناها فى البحث عنها ، فقد مضت الأسابيع ولم نتمكن من العثور عليها ؛ ولذلك اعتبرناها مفقودة ، ووضعنا شارة الحداد على السلة التى كانت تنام فيها ، كما رفعنا صحن طعامها من مكانه .

ونحن نبكى فى الفقيدة العزيزة أجمل القطط وأوفى الصديقات » .

* * *

إعلانات مبوبة

* تلقى الأديبة الموهوبة الآنسة بلاجيدج محاضرة هامة عن « المرأة ومركزها فى المجتمع » ، وذلك بندوة الأدباء مساء يوم السبت القادم بعد الاحتفالات المعتادة .

* تعقد اجتماعات أسبوعية فى « حلقة المطبخ » لتعليم الطهى ، وترأس هذه الاجتماعات حنة براون ، والدعوة عامة .

* تجتمع لجنة النظافة فى تمام الساعة التاسعة من يوم الأربعاء

القادم ، والإدارة ترجـــو أن يرتدى الأعضاء ملابسهم الرسمية ، ويحضروا معهم أدوات النظافة .

• تفتتح السيدة بث فى الأسبوع القادم معرضاً لأزياء الدمى ، استحضرت له خصيصاً من باريس أحدث الملابس الفرنسية وأجملها ، وتعلن السيدة أنها على أتم الاستعداد لقبول الطلبات .

• يقدم مسرح « بارنفيل » فى الأسابيع القادمة مسرحية جديدة اسمها « العبد الإغريقى » أو « كونستانتين المنتقم »، ويسرنا أن نبشر محبى الفنون ، بأن هذه التمثيلية ستكون حدثاً فى تاريخ المسرح الأمريكى ، ولم يسبق أن شاهدت الجماهير مثلها ، فى روعة التأليف وجمال التمثيل ودقة الإخراج .

* * *

غمزات

• تستطيع ميج أن تتناول طعام الإفطار فى الموعد المناسب ، إذا اقتصدت قليلا فى إجراءات غسل يديها .

• نرجو من جو أن تقلع عن الصفير بفمها أثناء سيرها فى الطرقات العامة .

• يا جبذا لو تذكرت بث أن تعيد إلى آمي فوطتها .

• بودنا أن تقتصد آمى فى غرورها وتذمرها ، فهى لا تمتاز بشىء عن بقية أفراد الأسرة .

* * *

تقرير أسبوعى عن حالة الأعضاء

ميج — جيـــدة
چو — ســـيئة
بث — سيئة جدًّا
آمى — متوسطة

* * *

وما إن انتهى الرئيس من قراءة الصحيفة ، حتى دوت القاعة بتصفيق حاد ، فقامت چو تقدم اقتراحاً ، وقالت فى لهجة خطابية برلمانية :

— سيدى الرئيس ، حضرات السادة :

أقترح أن نضم إلى ندوتنا عضواً جديداً . يستحق هذا الشرف ويقدره ، ولست أشك فى أنه سيكون عوناً لنا على أداء رسالتنا الأدبية والاجتماعية ، بفضل ما اتصف به من علم وأدب ومرح .

إنى أرشح مستر ثيودور لورنس ، وأزكيه عضو شرف فى الندوة ، وأرجو أن تتفضلوا بالموافقة على قبوله .

وبدا على البنات بعض التردد، ثم قامت ميج، واعتلت المنصة وقالت:

— سنقترع على اقتراح العضو، فمن يؤيد انضمام مستر لورنس يقول « موافق ».

هتفت چو بأعلى صوتها:

— أوافق.

وتبعتها بث تقول بصوت خجل:

— أوافق.

أردفت ميج تقول:

— ومن يعارض الاقتراح يقول « لا أوافق ».

وكانت ميج وآمى من المعارضات، وقامت آمى تشرح رأيها فى تأنق شديد وتقول:

— هذه ندوة للسيدات، وأحب أن تظل دائماً هكذا، فالفتيان بطبعهم كثيرو الهذر والمشاغبة، وأخشى أن ينضم مستر لورنس فيفسدها.

وقالت ميج وهى تعبث بشعرها، شأنها إذا ترددت فى أمر من الأمور:

— أخشى أن يسخر من صحيفتنا، ويهزأ بجهودنا الأدبية.

فوقفت چو مرة أخرى وقالت بحزم:

— سيدى الرئيس.

أعدك وعد رجل شريف ألاّ يفعل لورى أمراً من هذا، إنه مشغوف

بالكتابة ، وانضمامه إلينا يضيف إلى جهودنا الأدبية لوناً جديداً ، ويمنعنا من الانسياق مع عواطفنا ، ولقد قدم لنا خدمات كثيرة ، فأقل ما يجب علينا أن نرد له الجميل ، فنقبله بالترحيب عضواً فى ندوتنا .

وتأثرت بث بهذه الخطبة ، فقامت تؤيد رأى چو وتقول بلهجة حاسمة :

ـ وأنا أضم صوتى إلى صوت العضو المحترم ، وأرى أن نقبل لورى دون تردد ، لا هو وحده ، بل نقبل جده أيضاً إذا شاء أن يشترك معنا .

وتكهرب الجو لحديث بث ، وقامت چو من مكانها تصافح أختها مهنئة شاكرة ، وقالت :

ـ مادام لورى صديقنا ، فواجبنا جميعاً أن نوافق على انضمامه .

قال أخواتها فى نفس واحد :

ـ نوافق ، نوافق ، نوافق .

وبين دهشة الجميع وعجبهن ، قامت چو إلى خزانة الملابس القائمة بجانب الحجرة ، وفتحت بابها ، فوقعت أنظار المجتمعات على لورى يجلس فوق زكيبة ممتلئة بالمهملات ، وقد احتقن وجهه لفرط رغبته المكبوتة فى الضحك .

صاح الفتيات يستنكرن وجوده :

ـ أيتها الخائنة الشريرة ، كيف تجرؤين على خيانتنا بهذه الصورة ؟

وقامت چو إلى صديقها ، فأخرجته من الخزانة ، وقادته إلى منضد

الاجتماع فى سرور وانتصار ، ثم قدمت له شارة ، فأصبح بذلك عضواً فى الندوة .

وحاولت ميج أن تتظاهر بالغضب ، ولكن ابتسامتها خذلتها ، فاعتلت المنصة ، وقالت بلهجة خطابية :

— إن ثبات أعصابكما أيها الوغدان يدهشنى .

فنهض لورى بأدب بالغ . وانحنى تحية للرئيس . وقال برشاقة ولباقة :

— سيدى الرئيس ، سيداتى ، آسف جداً ، أقصد سادتى ، يسرنى أن أكون دائماً فى خدمتكم ، وأن أسهم بجهودى فى نجاح ندوتكم .

وصاحت چو تشجعه وتؤيده :

— مرحى . . مرحى . .

وأردف لورى يقول للجالسات :

— رئيسى النبيل ، وأصدقائى المخلصين ، شرفتمونى بالصفح عن خدعتى الدنيئة ، وأحب بهذه المناسبة أن أضع الأمـــور فى نصابها ، فأعترف بأننى وحدى المسئول عن هذه الخدعة ، وليس لچو ذنب فيما حدث ، فأنا صاحب الفكرة ، وأنا الذى ألححت عليها حتى اقتنعت بها .

فصاحت چو فى غبطة بما فعلت :

– بل الذنب مشترك بيننا ، وأنا التى اقترحت إخفاءك فى الخزانة .

وانحنى العضو الجديد للرئيس وقال :

– لا تصدق ، فأنا الوغد الذى رتب الخديعة كلها ، ولكنى أعاهدكم بشرفى ألاّ أعود إلى مثل ذلك ، وأعدكم أن أكرس حياتى وجهودى فى خدمة ندوتكم العتيدة .

صاحت چو مغتبطة :

– هكذا يكون الكلام !

وانحنت ميج احتراماً للمتكلم ، وقالت آمى تستزيده :

ـ أكمل حديثك ، أكمل حديثك .

قال :

ـ أحب أن تعلموا جميعاً أنى شاكر لفضلكم ، معترف بجميلكم ، وقد أردت أن أعبر لكم عن بعض ما يجيش فى نفسى ، فأعددت فى ركن السياج الفاصل بين حديقتينا ، صندوقاً للبريد ، كان فى يوم من الأيام برجاً للطيور ، ولكنى أصلحته ونظمته ، وصنعت له فتحة فى أعلاه . تغلق بقفل محكم ، يحتفظ كل طرف منا بمفتاح له . وسيكون لهذا الصندوق فوائد عميمة ، فيه نتبادل الرسائل والمخطوطات والكتب واللفافات ، توفيراً للجهد واختصاراً للوقت . وإنى أقدم لحضرة الرئيس أحد مفتاحيه ، وأملى عظيم فى أن يتفضل بقبوله .

ووضع لورى على المائدة مفتاحاً صغيراً ، هلل له الحاضرون وصفقوا طويلا ، فعانى الرئيس مشقة حتى نجح فى إعادة النظام إلى الجلسة .

وعاد الرئيس إلى جدول الأعمال ، فدارت المناقشات على أحسن وجه ، وبذل الأعضاء جهوداً مشكورة فى أداء واجباتهم كاملة ، وسارت الأعمال فى سهولة وانسياق إلى ساعة متأخرة ، ثم رفعت الجلسة تحية العضو الجديد .

ولم يأسف أحد على انضمام لورى إلى الندوة ، فقد أثبت بلباقته وذكائه ومرحه ، أنه عضو منتج لا مثيل له فى أية ندوة أخرى ، وأكسب وجوده الاجتماعات روحاً جديدة ، وأضافت جهوده الأدبية إلى الصحيفة

مادة غزيرة ، وكانت خطاباته فى الندوة مثار إعجاب الأعضاء لطرافتها وحسن أسلوبها وخلوها من السخافات العاطفية .

أما صندوق البريد فقد نجح فى أداء رسالته أعظم نجاح ، وتبودلت عن طريقه أغرب الأشياء وأكثرها تناقضاً : فمن قصص جديدة إلى أربطة عنق ملونة ، ومن شعر إلى مخللات ؛ ومن بذور إلى خطابات ؛ ومن كتب موسيقية إلى فطائر شهية ؛ ومن أحذية إلى دعوات وتمنيات ، ومن عتاب رقيق إلى كلاب صغيرة .

وأعجب مستر لورنس العجوز بالفكرة ، فأسهم بدوره فيها ، واختار أن يرسل هداياه إلى البنات عن طريق صندوق البريد ، واتسع استعمال الصندوق حتى شمل الخدم فى البيتين ، فكان بستانى القصر يودعه رسائل غرامه بالطاهية حنة ، وقد ضحك أعضاء الندوة كثيراً عندما اكتشفوا سر الخادمين ، ولكن أحداً منهم لم يدر بخلده ، كم سيحمل الصندوق من رسائل الغرام ، فى الأعوام القادمة .

الفصل الحادى عشر

تجارب

فى مساء يوم صحو ، عادت ميج من عملها إلى البيت ، فوجدت أختها چو ترقد على الأريكة بادية التعب مرهقة ، وكانت ميج بدورها متعبة مجهدة ، فخلعت حذاءها ، واستلقت على مقعدها ، حتى تأتيهما آمى بكوب من عصير الليمون .

قالت ميج :

ــ اليوم أول شهر يونية ، وعن قريب يسافر آل كنج إلى المصيف ،

فأستريح من العمل ثلاثة أشهر ! كم سأتمتع بها ؟

قالت چو :

ـ لقد سافرت اليوم عمتى مارش إلى مصيفها ، وكنت أخشى أن تصحبنى معها . ولو أنها طلبت إلى أن أرافقها ، ما جرؤت على الرفض ، ولكنها تركتنى والحمد لله ، فرحمتنى من قضاء الصيف معها فى تلك المقبرة التى يسمونها پلمفيلد ، وكانت مهمة شاقة أن أعينها على إعداد حقائبها للسفر ، ولكن فكرة البعد عنها كانت مبهجة مفرحة ، فبذلت جهودى مضاعفة فى خدمتها ، ولم أتردد فى تلبية أوامرها ، وقمت بكل ما تحتاج إليه فى نشاط وسرعة ، حتى خفت فى آخر الأمر أن تشعر بأهمية وجودى معها ، فتعود وتصحبنى إلى مصيفها . وعندما رأيتها تجلس فى العربة اطمأنت نفسى وهدأت مخاوفى ، ولكن أمراً أزعجنى فى اللحظة الأخيرة ، إذ رأيتها فجأة تطل برأسها من نافذة العربة وتقول :

ـ چوزيفين ، هلا . . .

وخفت أن تقع الكارثة ، فلم أدعها تكمل حديثها ، واخترت أن أستدير بسرعة . وأعدو مبتعدة عنها ، ولم أكف عن العدو حتى بلغت منعطف الطريق وتأكدت من زوال الخطر . قالت بث وهى تدلك قدمى چو بحب وحنان :

ـ مسكينة أنت يا چو ، لقد رأيتك تعودين إلى البيت ، وكأن شبحاً يطاردك .

وجاءت آمى تحمل عصير الليمون ، وأخذت نصيبها منه فارتشفت منه رشفة وقالت :

ـ العمة مارش « أبليز » بشرى .

قالت چو بتسامح :

ـ إن الفتاة تقصد (إبليس) ، ولكنى أفضل أن أتساهل معها ، فحرارة الجو تغرينى بالإغضاء عن فلتات اللسان .

قالت آمى تغير الموضوع بلباقة :

ـ ماذا تفعلان فى العطلة ؟

أجابت ميج من أعماق مقعدها الهزاز :

ـ سوف أسهر كثيراً ، ولا أنام إلا متأخراً ، وكفانى أن كنت آوى إلى فراشى مبكرة طول الشتاء ، وأبذل جهودى فى خدمة غيرى . أريد أن تكون عطلة كاملة ينعم بها قلبى .

قالت چو :

ـ أنا لا أحب الكسل ، ولذلك أعددت مجموعة كبيرة من الكتب ، أقرؤها على مقعد صنعته بين غصون شجرة التفاح .

فنظرت آمى إلى بث وقالت ، وقد طرأت لها فكرة جديدة :

ـ ونحن أيضاً فى حاجة إلى عطلة ، فما رأيك أن نترك الدراسة بعض الوقت ، ونلعب كما يحلو لنا طول النهار .

قالت بث :

ـ رأى جميل ، بشرط أن تقبل والدتى ، فأنا فى شديد الحاجة إلى التمرن على عزف القطع الموسيقية الجديدة ، ثم إن ملابس الدمى تمزقت ، وأريد أن أصنع لها ثياباً صيفية جديدة .

وكانت مسز مارش تجلس فى ركن من الغرفة فالتفتت إليها ميج تقول :

ـ أتسمحين لنا بعطلة يا أماه ؟

قالت :

ـ أسمح بأسبوع على سبيل التجربة ، ولنر فى ختامه كيف تكون الحال ، فكل ما أخشاه أن تضقن ذرعاً بالبطالة ، وتقتنعن قبل مضى سبعة أيام بأن البطالة المطلقة لا تقل ثقلا على النفس من العمل المستمر .

قالت ميج فى حماسة :

ـ لست أوافقك على رأيك يا أماه ، فالبطالة متعة لا تعوض .

ورفعت چو كوب الليمون عالياً ، وقالت :

ـ أقترح أن نشرب نخب اللهو والراحة .

وشرب جميعهن فى حبور ، وبدأن لفورهن تجربة الراحة الدائمة ، فقضين بقية اليوم بلاعمل . وفى الصباح التالى ، لم تغادر ميج غرفتها قبل العاشرة ، وعندما هبطت إلى قاعة الطعام ، تتناول إفطارها ، لم تجد فيها أحداً من أفراد الأسرة ، فانقبضت شهوتها ولم تصب من الأكل إلا قليلا . وساءها بعد ذلك أن أوانى الأزهار خالية من الورود التى درجت على

الاهتمام بها فيما مضى ، وكانت الغرف فى فوضى واضطراب ، فالمقاعد غير منتظمة فى أماكنها ، والكتب مبعثرة على الأرض ، والأتربة عالقة بالأرفف والمناضد . ولم يكن بالبيت كله مكان نظيف يستطيع الإنسان أن يأوى إليه مرتاحاً، سوى الركن الذى اعتادت مسز مارش أن تعنى به، وتجلس فيه ، ولكن ميج لم تقل شيئاً ، واختارت أن تستلقى على الأريكة فى كسل ، وقد انشغل ذهنها بثياب الصيف الجديدة ، التى تريد أن تبتاعها براتبها .

وقضت چو ساعات النهار مع لورى عند النهر ، وفى المساء جلست تقرأ بين أغصان شجرة التفاح . وأقبلت بث على خزانتها ، فأخرجت منها دماها المشوهة ، ولكنها لم تلبث أن سئمت اللعب بعد قليل ، فتركت الدمى على الأرض مبعثرة ، وذهبت إلى المعزف تتسلى بموسيقاها ، وقد اطمأنت نفسها إلى أنها غير ملزمة بغسل صحون الطعام كما اعتادت أن تفعل كل يوم .

أما آمى فقد ارتدت ثوباً أبيض اللون جميلا ، ونسقت شعرها تنسيقاً أنيقاً ، ثم جلست فى جانب من الحديقة ترسم بعض الأزهار ، وأملها كله ينحصر فى أن يراها العابرون فى الطريق ، فيأخذهم الإعجاب بالفنانة الصغيرة ، ولكن أحداً لم يرها مع الأسف ، فتركت الرسم وخرجت من البيت إلى نزهة قصيرة ، وما لبث المطر أن فاجأها غزيراً ، فأسرعت بالعودة وملابسها الأنيقة تقطر ماء .

وبعد تناول الشاى ، اجتمع البنات فى غرفة الجلوس يتحدثن فى حياتهن الجديدة ، فأجمع الرأى بينهن على أنها حياة ممتعة بمعنى الكلمة ، وإن كانت ساعات النهار طالت أكثر مما يجب . وأرادت ميج أن ترفه عن نفسها ، فخرجت إلى السوق ، وعادت بقطعة من الموسلين ابتاعتها لتصنع منها ثوباً ، فلم تكد تقصها ، إلا واكتشفت أنها غير قابلة للغسل ، فأغضبها ذلك وتركتها جانباً . ولم تجد جو تسلية أخرى تشغل بها وقتها بعد أن سلخت الشمس أنفها لطول ما جذفت فى النهر ، وأصابت القراءة رأسها بصداع حاد ، فقنعت بالجلوس ساكنة لا تجد ما يشغلها أو يسليها . ولاقت بث عناء فى تمرنها على عزف القطع الموسيقية الجديدة ، وضايقتها الفوضى المنتشرة فى خزانتها ، فجلست هى الأخرى صامتة ، لا تعرف ماذا تفعل بنفسها . أما آمى فقد أحزنها ما أصاب ثوبها الأبيض الجميل ، وتحيرت فيما ستلبسه فى حفلة كيتى براون ، بعد أن أفسدت الأمطار الرداء الجيد الوحيد الذى تملكه ، وانتهى بها الأمر إلى الحزن والكمد . ورغم كل هذه المضايقات الصغيرة ، أكد البنات لأمهن أن التجربة تبشر بخير عميم ، فابتسمت لهن ولم تقل شيئاً ، وتعاونت هى وحنة على أداء الأعمال المنزلية التى تركها بناتها ، حتى يحتفظ البيت برونقه ونظامه .

ولم يكن أحد يتوقع أن تتطور الأمور بهذه السرعة بعد ذلك ، ولكن هذا ما حدث بالفعل ، فقد زادت الأيام طولا ، وانقلب الجو على غير العادة ، فتغيرت أمزجة البنات بالمثل ، واستبدت بهن حيرة

لا يعرفن لها سبباً ، وتسلل الشيطان إلى جماعتهن ، ووجد مرتعاً خصيباً فى أذهانهن الفارغة وأيديهن التافهة . وبدأت المحن يوم أخرجت ميج بعض أثوابها القديمة تجربها ، ولما وجدت فيها بعض العيوب ، فكرت فى أن تصلحها ، فتغير شكل الأثواب حتى تصبح شبيهة بثياب آل موفات ، ولكنها لم تفلح فى تحقيق هذه الرغبة ، وخرجت من التجربة وقد أفسدت ثيابها . وأنهكت القراءة چو فتركتها ، ولم تجد ما تشغل به وقتها ، فثارت فيها روح المشاجرة ، وتشاجرت مع لورى الطيب القلب وخاصمته ، وكانت بث تنسى أحياناً أنها فى عطلة ، فتعود إلى عملها المنزلى ، ثم لا تلبث أن تتذكر ، فتهجر العمل إلى دماها ، ولكن التجربة أضرت بهدوئها . فتشاجرت مع دماها ، وأنبتها لأول مرة تأنيباً شديداً . أما آمى ، فكانت أشقاهن حالا ، فقد كان معين تسليتها محدوداً بحكم سنها ، فاحتارت فيما تفعله بنفسها ، وأثقلت عليها مواهبها التى تعتز بها ، فزادتها ضيقاً على ضيق ، ولم تكن تحب الدمى ، وتعتبر القصص الخرافية تسلية الأطفال ، ولم يكن فى استطاعتها أن تقضى اليوم كله فى الرسم ، وفقدت حفلات الشاى والنزهات بهجتها ، قالت تحدث نفسها :

ــ لست أرى سعادة فى مثل هذه الحياة ، فياليتنى كنت أملك بيتاً كبيراً كله بنات ظريفات ، أو كان باستطاعتى أن أسافر إلى المصيف أقضى فيه عطلة مبهجة .

وسكت البنات على ما أصابهن من هذه التجربة ، ولكن ما إن

أقبل مساء الجمعة ، حتى كنّ جميعاً مبتهجات بانتهاء الأسبوع الممل . وأرادت مسز مارش أن تزيد الأثر عمقاً فى نفوسهن ، وكانت محبة للنكتة ، فاستقر رأيها أن تختم التجربة ختاماً حاسماً ، ولذلك أذنت للطاهية حنة بيوم عطلة ، وتركت بناتها يفعلن ما يشأن .

وفى صباح السبت ، لم يجد البنات ناراً موقدة فى المطبخ ، ولا إفطاراً على المائدة ، وكذلك لم يجدن أمهن فى مكانها المعهود من البيت .

وتلفتت چوحولها فى اشمئزاز وقالت :

— اللهم رحمتك ، ماذا حدث لهذا البيت ؟ !

وأسرعت ميج إلى الدور العلوى ثم نزلت وقد ارتسمت عليها أمارات الراحة المقرونة ببعض الخجل ، قالت :

— وجدت والدتى فى فراشها ، وقد رأت أن تلازم غرفتها طول اليوم ، فعلينا أن نعنى بأنفسنا . إنه أمر عجيب حقاً ، فعهدى بها نشيطة متوثبة ، ولكنها تقول إن الأسبوع الماضى كان مرهقاً لها ، ومن حقها أن تنال بعض الراحة .

فقالت چو فى لهفة :

— إنى أرحب بذلك ، فقد ضاقت نفسى بالراحة ، وأريد أن أفعل شيئاً .

وعدن إلى العمل فوجدن فيه تسلية وترفيهاً ، وما إن اندمجن فيه حتى تبين لهن صدق حنة ، التى كانت تقول لهن دائماً ؛ إن العمل المنزلى

ليس مجرد مزحة أو لعبة . وكان الطعام موفوراً فى خزانة المطبخ ، فقامت ميج وچو بإعداد وجبة الإفطار ، وتعهدت بث وآمي بإعداد المائدة ، وهما تعجبان لماذا يشكو الخدم من صعوبة عملهم .

قالت ميج وهى تقف أمام إبريق الشاى :

— سأحمل إلى والدتى قسطاً من الشاى ، بالرغم من أنها أبدت رغبتها فى خدمة نفسها بنفسها .

وأحضرت الصينية ، وأعدتها لوالدتها خير إعداد ، وحملتها إليها فى الطابق الأعلى ، وبالرغم من أن الشاى كان مر الطعم لكثرة ما غلى على النار ، والبيض يفوح برائحة الحرق ، والكعك يلمع لازدياد الكربونات فيه . ورغم ذلك كله ، تقبلت مسز مارش إفطارها راضية شاكرة ، ثم ضحكت كثيراً عند ما انصرفت ابنتها من الغرفة ، وقالت تحدث نفسها :

— يا للنفوس الطيبة ! سيلاقين اليوم صعاباً كثيرة ، وسيتجشمن مشقات لا عداد لها ، ولكنه درس يفيدهن .

وأزاحت إفطارها جانباً ، واستعاضت عنه بقطعة من اللحم كانت قد أعدتها من قبل لمثل هذا الوقت ، فكانت لمحة طيبة تدل على فرط رغبتها فى المحافظة على شعور بناتها .

وكثرت الشكاوى فى الدور الأرضى ، وتعددت الغلطات والأخطاء ، مما أثار أحزان ميج . التى كانت تلعب دور كبير الطهاة ، قالت

چو تخفف عنها :

ــ لا بأس عليك ياميج ، فسوف أقوم بالأعباء كلها فى وجبة الغداء ، وما عليك إلا أن تكونى السيدة الآمرة الناهية ، فلست أرى داعياً لأن تلوثى يديك مرة أخرى .

وقبلت مارجريت هذا العرض السخى مسرورة ، ثم انسحبت إلى حجرة الجلوس التى تسودها الفوضى ، فرتبتها بأن أخفت الأشياء المتناثرة على الأرض تحت الأريكة ، وأسدلت الستائر ، حتى لاترى العيون الغبار العالق بالموائد والرفوف . وندمت چو على ما فعلته بصديقها لورى ، وأرادت أن تمحو أثر الإساءة من نفسه ، فأرسلت إليه تدعوه إلى الغداء ، الذى سوف تطهيه بيديها .

وقالت ميج عندما بلغها الخبر باندفاع أختها فى الكرم :

ــ كان الأفضل ، قبل أن تدعى ضيوفاً للغداء ، أن تنتظرى حتى تنتهى من الطهى وتطمئنى .

قالت :

ــ لاعليك ، فقد أعددت للأمر عدته ، وقصرت الغداء على اللحم المفروم والبطاطس ، بالإضافة إلى بعض المحار والهليون والسلاطة ، ولست أعرف كيف تصنع السلاطة ، ولكنى سأجدها فى كتاب الطهى ، ثم نحلى بالفراولة ، ولا بأس من القهوة ، ليكون الغداء من أول طراز .

قالت ميج :

ـ بالله لا توقعى نفسك فى ورطات كثيرة . ونصيحتى أن تكتفى بصنع بعض الفطائر ، وإلا أخجلتنا أمام لورى ، إنى أنفض يدى من هذه الدعوة ، وما دمت قد دعوته ، فتولى الأمر بنفسك .

قالت چو ، وقد آلمها حديث أختها :

ـ لست أطلب منك سوى أن تساعدينى فى عمل حلوى الفراولة ، وتمدينى بالنصح إذا تعقدت الأمور .

قالت ميج ، فى تواضع ربة البيت الماهرة :

ـ لن أتأخر عن معونتك ، ولكنى لا أعرف كثيراً ، ولا أتقن سوى الخبز وبعض المأكولات البسيطة ، ويحسن أن تستأذنى والدتى قبل أن تشترى شيئاً .

قالت چو ، وقد ضاقت ذرعاً بنصائح أختها :

ـ لست بلهاء إلى هذا الحد ، فاطمئنى .

ثم صعدت تستأذن والدتها التى قالت :

ـ اشترى ما تريدين ، ولا تعكرى هدوئى ، فأنا اليوم فى عطلة ، وسأتناول غدائى فى الخارج ، ثم أتسلى بالقراءة وزيارة بعض الصديقات .

ودهشت چو لهذا الكلام كل الدهشة ، فقد كان عهدها بأمها نشيطة مجدة ، لا تنى عن العمل والجهاد ، فلما رأتها متكاسلة بهذه الصورة أصابتها دهشة ، واعتبرت الأمر ظاهرة لا تقل عجباً عن كسوف الشمس أو الزلازل .

وقالت تحدث نفسها وهى تهبط السلم :

ــ الأحوال كلها مختلة ، وها هى ذى بث تبكى ، فلا بد أن حادثاً أصاب الأسرة ، والله لأؤدبن آمى إذا كانت السبب فى بكاء أختها .

ونزلت چو ثائرة غاضبة ، فوجدت بث تبكى عصفورها الذى رقد ميتاً فى قفصه ، وقد تقلصت أصابعه الصغيرة وارتفعت إلى أعلى كأنه يتوسل فى طلب الطعام .

وجعلت بث تبكى طيرها ، وهى تهزه بيدها كأنها تريد أن ترد إليه الحياة . قالت :

ــ إنها غلطتى ، فقد نسيت أن أضع له طعامه وشرابه ، آه ياعصفورى الجميل ، لن أغفر لنفسى قسوتها عليك .

وفحصت چو عينى العصفور ، واستمعت إلى ضربات قلبه ، فلما تأكدت من موته ، أعدت له نعشاً من صندوق صغير .

وقالت آمى تبعث الأمل فى صدر أختها :

ــ ضعيه فى الفرن ، فربما عادت إليه الحياة إذا أصابه الدفء .

قالت بث ، وهى ماتزال تبكى وتنوح :

ــ لقد مات جوعاً ، ولن يعيده إلى الحياة شواؤه فى الفرن . سأحفر له قبراً أدفنه فيه ، ولن آتى بعصفور غيره ، فكفانى ما فعلت بهذا المسكين .

فقالت چو فى جد واهتمام :

— لا تنوحى يا بث ، إنه أمر محزن . كان هذا الأسبوع عامراً بالشئون والشجون ، ولعل عصفورك نال أسوأ قسط من تجاربنا . لفيه بالأكفان ، وضعيه فى الصندوق ، وبمجرد أن ننتهى من وليمة الغداء ، ندفنه فى احتفال مهيب ، ونسير جميعاً إلى القبر وراءه .

وتركت بث فى رعاية أخواتها الأخريات ، وذهبت إلى المطبخ فوجدته فى فوضى واضطراب ، ولكن ذلك لم يثن من عزم چو ، فوضعت المروحة على ثوبها ، وبدأت تغسل الأوانى والصحون ، ولم تنته منها حتى كشفت أن نيران الموقد خمدت ، فقالت بضيق شديد ، وهى تنفخ باب الموقد وتدخل رأسها فيه تفحص الأخشاب به :

— أمر جميل !

وأشعلت الموقد من جديد ، ووضعت عليه آنية مليئة بالماء ، وتركتها لتغلى ، حتى تذهب إلى السوق وتعود . وسارت فى الطريق ، فرد إليها السير بعض هدوئها المفقود ، وطافت بالحوانيت تشترى منها أرخص البضائع ، ثم رجعت إلى البيت تحمل محار صغير الحجم جداً ، وهليوناً شائخاً ، وعلبتين من الفراولة الحامضة . وعكفت جو على تنظيف الأوانى ، ثم أخذت أهبتها لطهى وجبة الغداء ، وكانت ميج قد أعدت عجينة الخبز فى الصباح ، وتركتها تخمر بجوار المدفأة ، ثم نسيت أمرها فى غمرة انشغالها بمسامرة صديقتها سالى ، التى جاءت لزيارتها . وفجأة انفتح الباب بشدة ، ودخلت چو محمرة الوجه مغبرة الشعر

بالدقيق ، وقالت بلهجة لاذعة :

— ارتفع العجين وسال من آنيته على الأرض ، أفلا يكفيك كل هذا اختماراً ؟

وضحكت سالى ، ولكن ميج رفعت حاجبيها تتعجب من أمر أختها ، التى سبق أن تعهدت بإعداد وجبة الغداء دون معونتها ، فارتدت چو على أعقابها أمام هذه النظرة ، وعادت إلى المطبخ تعالج وحدها كل شئون الأكل . وخرجت مسز مارش لقضاء حاجة لها ، بعد أن استرقت نظرة إلى مايدور فى البيت ، وهمست ببعض عبارات العزاء لبث التى كانت مشغولة بقص أكفان عصفورها .

وكان وجود الأم فى البيت رغم اعتكافها بغرفتها ، يطمئن البنات ويقوى عزائمهن . فلما رأينها تخرج ، تملكهن شعور بالعجز والقلق ، واشتدت بهن المحنة . عندما جاءت مس كروكر ، جارتهن العجوز ، وطلبت أن يؤذن لها بتناول الغداء معهن . وكانت مس كروكر هذه عانساً نحيفة القد ، لها أنف معقوف ، ونظرات متطفلة ترى بها ما يخصها وما لا يخصها ، ثم تطوف بأهل الحى تتحدث بما رأته . وكان البنات يكرهنها ، ولا يرتحن إلى صحبتها ، ولكنهن تعلمن عن أمهن أن يحترمنها ويرحبن بها إكراماً لفقرها وحاجتها . ولم تجد ميج مناصاً من تحيتها ، فقامت تصافحها ، وقدمت لها مقعداً مريحاً ، ثم جلست بجوارها تصغى صامتة لثرثرة العجوز ، وأحاديث تطفلها .

ومضى الصباح فى جهاد بالغ لم يؤت ثمرته المرجوة ، فقد جاء طعام الغداء أضحوكة خالدة : فإن چو أرادت أن تعتمد على نفسها بقدر الإمكان ، ولا تطلب العون أكثر مما يجب ، فكانت النتيجة أن سلقت الهليون ساعة كاملة ، لتجد بعدها أن رءوسه قد تفتتت ، وما زالت سيقانه صلبة مليفة . وشغلها أمره عن العناية بأمر البطاطس ، فقررت الاستغناء عنه فى وجبة الغداء ، واحترق الخبز فى الفرن حتى اسود لونه ، واستعصى عليها تنظيم السلاطة ، واختلطت موادها اختلاطاً قبيحاً أقنعها بوجوب الا ستغناء عن هذا الصحن أيضاً . واستغلق عليها أمر المحار ، ولكنها لم تشأ أن تستسلم للعجز ، فعكفت عليه تعالج فتح أصدافه ، إلى أن أمكنها أن تستخلص منه لحماً قليلا ، بدا فى وسط أوراق الخس ، التى تزين الصحن ، تافهاً هزيلا . أما الفراولة فقد تعجنت ، وفاحت رائحتها الحامضة ، فثار غضب چو على البائع الذى خدعها ، فوضع لها الفاكهة الفاسدة فى قاع العلبة ، وغطاها ببعض الحبات الطازجة .

ومضى على موعد الغداء ساعة ونصف ساعة والطعام لم يعد بعد ، ثم دق الجرس أخيراً ، ووقفت چو ترقب الوليمة تعبة منهكة ، وقد استبد بها الخجل أن يكون الطعام بهذه الصورة المحزنة فى حضرة لورى الذى اعتاد أن يتناول أطيب المأكولات ، وفى وجود مس كروكر ذات اللسان اللاذع والعين المتطفلة ، قالت تحدث نفسها :

ـ ليكن ما يكون ، وإذا لم يعجبهم طهيي ، فلديهم اللحم المفروم

والخبز المقدد والزبد الطازج يشبعون به بطونهم ، ولكن الذى يغيظنى حقًّا أن تذهب جهودى ، فى هذا الصباح هباء .

واشتد الحجل بچو ، وتمنت لو انشقت الأرض فابتلعتها ، وهى ترى الصحون تتوالى على المائدة ، فما إن يتذوق الجالسون ما فيها ، حتى يتركوه جانباً ، فتضحك آمى ، ويتورد وجه ميج ، وتزم مس كروكر شفتيها اشمئزازاً ! أما لورى ، فكان يتحدث بنشاط ، ويروى القصص والفكاهات ، وغرضه بذلك أن يزيل التوتر السائد ، ويكسب الوليمة لوناً من المرح والبهجة .

وكان فخر چو الوحيد فى تلك الوليمة الخائبة ، صحن الفراولة الذى رشته بالسكر الناعم وغطته بالقشدة المخفوقة ، فأشرق وجهها قليلا عندما وضع الصحن على المائدة . وأقبل عليه الحاضرون كل يأخذ نصيبه منه ، وكانت مس كروكر أول من تذوق الحلوى ، فما إن وضعت فى فمها جزءاً منها ، حتى انقلبت سحنتها ، وأسرعت تشرب جرعة من الماء . والتفتت چو إلى لورى ، فرأته يتناول نصيبه فى شجاعة ورجولة ، وإن كان التواء شفتيه قد دلها على مبلغ ما يعانيه من ألم يحاول أن يخفيه . وأرادت أن تقرأ فى عينيه سر ما أصابه ، ولكنه اختار أن يتهرب من مواجهتها ، فأطرق برأسه إلى صحنه ، وثبت أنظاره فى الحلوى . وكانت آمى مشغوفة بهذا اللون من الطعام ، فاغترفت منه نصيباً كبيراً ، لم تكد تتذوقه ، حتى بان الانزعاج الشديد على وجهها ، فأخفت فمها بالفوطة ، وخرجت من الغرفة جرياً .

صاحت چو فى حيرة وعجب :

ــ ماذا دهاكم جميعاً ؟ !

أجابت ميج بحزن :

ــ لقد وضعت ملحاً بدل السكر ، والقشدة مع الأسف حامضة .

وتأوهت چو فى أسى بالغ ، وقد تذكرت أنها ، فى لهفتها على إعداد الفراولة ، نسيت أن تضع القشدة على الثلج ولم تنتبه إلى وجود صندوق الملح بجوار صندوق السكر ، فأخذت حاجتها من الأول دون الأخير ، واحمر وجهها خجلا ، واستبدت بها رغبة شديدة فى البكاء ، ولكن نظراتها تلاقت مع نظرات لورى ، وطالعتها عيناه العامرتان بالمرح ، فانكشف لها من المأساة جانبها المضحك ، فانفجرت فى عاصفة من الضحك ، حتى سالت الدموع على خديها ، وسرت العدوى إلى الحاضرين ، فضحكوا جميعهم ، حتى مس كروكر الناقدة المتزمتة ، وهكذا انتهت الوليمة فى سرور ، وقنع أهل البيت وضيوفهم بالخبز والزيتون والزبد .

ونهضت مس كروكر تستأذن فى الانصراف ، استعداداً لنشر الخبر بين أهل الحى ، فودعتها چو إلى الباب ، ثم عادت تقول :

ــ لا قبل لى بتنظيف المائدة الآن ، فهيا بنا نحتفل بدفن العصفور .

وتمت مراسم الدفن كاملة إكراماً لبث ، فحفر لورى للعصفور قبراً بين ورود الحديقة وأشجارها ، وثوى جثمان الطير فيه ، بين بكاء

صاحبته ونحيبها ، ثم نثر عليه المشيعون زهور البنفسج ، ووضعوا على القبر قائماً كتب فيه :

هنا يرقد عصفور آل مارش
مات فى اليوم السابع من شهر يونية
أحبه أصحابه وحزنوا عليه
وسوف تبقى ذكراه فى قلوبهم خالدة

ولما انتهى حفل الجنازة ، أوت بث إلى حجرتها تغالب أحزانها على عصفورها ، ولكن الوقت لم يتسع لمزيد من الحزن ، فقد حل المساء ، وآن الأوان لإعداد الفراش . فنهضت إلى عملها تفرغ همومها فى ضرب الوسائد وشد الأغطية وإعادة الأشياء إلى مواضعها . وتعاونت ميج مع چو على تنظيف المائدة ، وغسل الصحون ، فاستغرق العمل منهما ساعات المساء كلها ، وخلفهما تعبتين مجهدتين ، لا قبل لهما بطهى طعام للعشاء ، فقنعتا بتناول الخبز والشاى . وكانت آمى فى حالة سيئة إثر ما تناولته من قشدة حامضة ، فدعاها لورى إلى نزهة خلوية تخفف عنها آلام بطنها ومتاعب يومها . وعادت مسز مارش فوجدت بناتها الثلاث الكبيرات يعملن فى البيت باجتهاد ، وأقنعتها نظرة واحدة إلى الخزانة المنظمة ، بأن تجربتها قد نجحت كل النجاح ، وأتت بأطيب ثمراتها .

ولم ينعم الفتيات بفرصة للراحة ، إذ أقبل على البيت بعض الزائرين ، فاستدعى الأمر مزيداً من العمل والاستعداد ، فخرجن إلى السوق ،

وأعددن الشاى ، وعكفن بعد ذلك على حياكة قطعة مستعجلة كانت العطلة قد شغلتهن عن إتمامها . وعندما حل الغسق ، كان البنات يتوافدن على الشرفة ، حيث تزهو براعم الصيف بجمالها ، فيرتمين على مقاعدهن تحت وطأة التعب والعناء .

قالت چو تبدأ الحديث :

ــ ياله من يوم عصيب !

قالت ميج :

ــ كان فى الحقيقة يوماً عصيباً ، ولكنه انقضى سريعاً .

وأضافت بث :

ــ وخرج البيت على ما اعتدنا عليه .

ونظرت آمى إلى قفص عصفورها الخالى ، وقالت بحزن :

ــ وهل يكون البيت على ما تعودنا ، وليس به والدتى وعصفورى .

وأقبلت مسز مارش ، واتخذت مقعدها المعتاد ، وقد بدا كأنها لم تستمتع بعطلتها . قالت لبث :

ــ هأنذا أعود إليك ياعزيزتى ، وإن شئت اشتريت لك غداً عصفوراً آخر .

وارتمت بث فى أحضان أمها ، وأشرقت وجوه الفتيات فرحاً وسعادة ، قالت مسز مارش تسألهن :

ــ أترين أن نمد العطلة أسبوعاً آخر ؟

فصاحت چو فى حزم :

ــ لا أريد مزيداً من العطلة يا أماه .

وقال أخواتها فى نفس واحد :

ــ ولا نحن أيضاً .

قالت الأم :

ــ هل أقنعتكن التجربة بوجوب العمل قليلا ، ولذة التضحية فى سبيل الخير المشترك ؟

فهزت چو رأسها وقالت :

ــ لقد سئمت الرقاد والكسل ، وأريد أن أقوم ببعض العمل .

وكانت مس كروكر قد بادرت ، فأخبرت مسز مارش بأمر الوليمة ومأساتها ، فقالت الأم لچو وهى تضحك عالياً :

ــ ما رأيك فى أن تتعلمى شيئاً من أصول الطهى ؟ إنها تسلية مفيدة ، لا غنى لامرأة عنها .

وصاحت ميج ، وقد ساورتها الشكوك فيما استهدفته أمها بتصرفاتها طوال اليوم :

ــ هل خرجت اليوم ، وتركتنا وحدنا ، لتختبرى قدرتنا على تصريف الأمور ؟

قالت :

ــ نعم يا بنيتى ، فقد أردت أن تدركن أن لا راحة لإنسان ما لم

يؤد واجبه ، ويقم بنصيبه من العمل مخلصاً . فلقد كان تعاونى مع حنة على تصريف شئون البيت يسهل لكنّ الحياة ولا يسعدكن ولا يرضيكن ، فأردت أن تتعلمن بالتجربة كيف تنقلب الأمـــور ، إذا سلكت كل واحدة منكن سبيلها ، ولم تفكر إلا فى نفسها . إن الحياة أخذ وعطاء ، وبغير العمل تفقد الراحة جمالها .

صاح الفتيات معاً :

ــ صدقت يا أماه ، صدقت !

قالت :

ــ إن العمل وجه للحياة مفيد ، ومن الخير أن نقوم بنصيبنا منه ، مهما بدا متعباً ثقيلا ، ففيه مقتلة للملل ، وفيه إنعاش للروح ، وفيه أيضاً قوة معنوية لا تغلب .

قالت چو :

ــ ستَرين من اليوم كيف نعمل باجتهاد ، وكيف نؤدى واجباتنا مخلصات ، وسأعمل بنصحك يا أماه ، فأتعلم الطهى خلال عطلتى ، لأنجح كل النجاح فى وليمتى القادمة .

قالت ميج :

ــ ويسعدنى أن أحوك قمصان والدى بدلا عنك ، يا أماه ، وأشغل نفسى عن التذمر والشكوى بمثل هذا العمل المفيد .

وقالت بث فى عزيمة :

ـ لست أرى داعياً لإضاعة الوقت فى الموسيقى واللعب ، ومن الخير أن أدرس وأجتهد .

قالت آمى ، وقد راقتها بطولة أختها بث :

ـ أما أنا فسأتعلم عمل العراوى ، وأعد بأن أحترس فى اختيار الألفاظ النحوية الصحيحة .

قالت مسز مارش :

ـ عظيم . . يسرنى أن نجحت التجربة ، ولم نعد فى حاجة إلى تكرارها ، ولكنى لا أرى أن تندفعن فى العمل ، فترهقن أجسادكن كالإماء ، ونصيحتى أن تنظمن أوقاتكن ، وتوزعنها بين العمل واللهو ، حتى يمضى بكن اليوم مفيداً ممتعاً . أحسنّ استغلال الوقت تستمتعن بشبابكن ، ولا تحزنّ فى مشيبكنّ ، فتصبح الحياة ناجحة رغم الفقر والحاجة .

قال الفتيات فى حماسة :

ـ سنذكر نصيحتك إلى الأبد يا أماه .

وبالفعل تذكرن ، وعملن دائماً بنصيحة أمهن .

رقم الإيداع	١٩٨٣ / ٤٧٦٥
الترقيم الدولى ISBN	٩٧٧-٠٢-٠٦٢٧-X

١ / ٨٣ / ٩٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

obeikandl.com